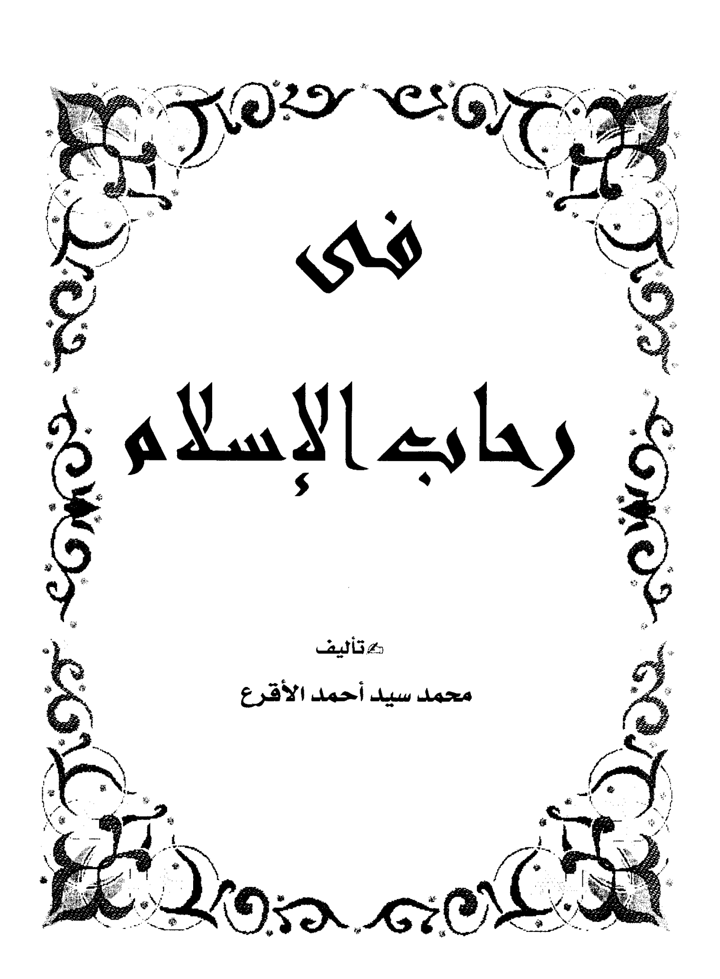
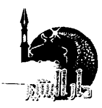


فى رحاب الإسلام

تأليف
محمد سيد أحمد الأقرع



للثقافة والعلوم

الموضـــــوع : منارات هادية للتعاليم الايمانية.
اسم الكتـــاب : فى رحاب الإسلام.
التـــأليف : محمد سيد أحمد الأقرع.
الصف التصويرى : الندى للتجهيزات الفنية .
عدد الصفحات : 252 صفحة
قياس الصفحة : 17×25
التوزيع والنشر : دار البشير للثقافة والعلوم .
طنطا - 23 ش الجيش عمارة الشرق للتأمين
تليفاكس040/3305538 تليفون 040/3316316

الإيداع القانونى : 2610 / 2003
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 278 - 249 - 9

1425 هـ
2004 م

E-mail / info@Dar-albashir.com
Dar_elbasheer@hotmail.com

تقديم

فى رحاب الإسلام : هو العنوان الذى اختير ليكون دليلاً على ما اشتمل عليه هذا الكتاب من فصول تتحدث عن هذا الدين الحنيف وتتصل به أوثق صلة وتأخذ بيد القارىء الكريم وتدخل به إليه من أى جهة من جوانبه، فحيثما اتجه القارىء مع هذه البحوث إلى الإسلام وجد دينًا يدله على رشد ويهديه إلى الطريق الأقوم.

وقد كتبت هذه الفصول فى مناسبات مختلفة أوحت بها فى حينها وبعضها نشر فى صحف ومجلات عربية ثم رأينا جمعها فى كتاب كى يسهل الاطلاع عليها والنفع بها بدلاً من ضياعها فى أنهار الصحف التى نشرت بها.

وسيجد القارىء فى هذه الفصول التى بين يديه عبارة سهلة أدبية وأسلوباً ميسراً ربما يجعله ينهى القراءة للبحث فى زمن قصير، وسيجد - أيضاً - بعد قراءة الفصل أنه قد ألمَّ بالموضوع إلماماً لا بأس به وربما أغناه عن قراءته فى كتاب أو فى كتب متفرقة. على أن فى الفصول أمر آخر : فهى للقارىء المثقف ذكرًا وهى لخطيب المسجد على منبره عوناً وهى للجماهير العريضة منارات هادية إلى الدين الحنيف.

فإليك فصولك - أيها القارىء الكريم - ولم أشأ أن أطوف بها معك مخافة السآمة والملل وحسبها أن تتقدم بنفسها إليك، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

المؤلف

محمد سيد أحمد الأقرع

الاثنين : 23 من رمضان 1424 هـ

18 من نوفمبر 2003 م





الفصل الأول

من دواعي الإيمان

أنيبوا إلى ربكم (1)

(لو أن إنساناً أهدى إلى إنسان آخر خيراً أو يسر له أمراً أو صنع معه جميلاً أو دله على رشاد أو دفع عنه مكروهاً أو حفظه بظهر الغيب فإن مقتضيات الأدب الجميل ومنطق العقل السليم وطبيعة الفهم المتميز تقضى بإخلاص الإنسان لمن فعل معه ذلك إخلاصاً دائماً وعميقاً ضرورة أن الإنسان بما زود به من فكر وبما وضع فى كيانه من إدراك يستطيع أن يميز بين الخير والشر والنافع والضار .

فإن كان ذلك هو الواجب من الإنسان لأخيه الإنسان فإنه يتأكد بصورة أوضح وبقدر أكبر من الإنسان لربه الرزاق الوهاب الفتاح العليم إذا كان ذلك هو الواجب من الإنسان لأخيه الإنسان فإنه يجب بنظام رتيب وبضرورة ملحة من الإنسان لربه الكبير الحفيظ الشكور ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (فاطر: 15-17) .

إن الناس فى عصر الآلة والعلم التجريبى أصبحوا محتاجين إلى الإيمان بالله والرجوع إليه أكثر من أى عصر مضى حيث كُشفَ لهم من مساتير الكون ومخبآته ما يجعلهم جديرين بإعمال عقولهم وتفكيرهمَ فى أسرار الحياة المختلفة ويجعلهم حريين بالإنابة إلى الله القوى القادر الذى أراهم رأى العين من بديع صنعه ما تعجز عن فهم أسراره أفئدة العلماء ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: 88) .

فالله سبحانه وتعالى أنشأنا من العدم وتولى تربيتنا فى أطوارنا المختلفة وتولى إيجاد آدم أبى البشر وصنعه على عينه وخلقه بقدرته وغذاه بنعمته وحفظه بمشيئته وكذلك فعل مع الناس من لدن آدم إلى يومهم هذا وسيظل يسدى إليهم نعمائه ما بقيت هذه الحياة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: 12-14) .

ولن يستطيع كائن من كان أن يخلق ذبابة أو يوجد بعوضة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ

الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الحج: 73-74) .

والله سبحانه وتعالى أبدع خلقنا وأتم تركيبنا وأحسن تصويرنا وجعلنا بشراً سويا يكتب ويقرأ ويتكلم ويُبيِّن ويفكر ويصنع ويجاهد أعداءه ويكافح فى سبيل البقاء ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ (الإنفطار: 6-8) ، سبحان ربى ما أعظم قدرتك .

والله سبحانه وتعالى أعطانا فى الدنيا ما هو ضرورى لأنفسنا وما به تسعد أيامنا وتيسر أمورنا ويجعلنا حريين بالخلافة عنه فى الأرض ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل: 78)

والله سبحانه وتعالى خلق لنا كل ما تحتاجه حياتنا وما نتمتع به فى دنيانا لنستطيع القيام بعمارة الأرض وبقاء النوع الإنسانى ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾ (عبس: 24-32) يالجلال العظمة الإلهية!!! .

والله سبحانه وتعالى سخر لنا كل ما فى سمائه وأرضه وما فى سوى سمائه وأرضه تفضلاً ونعمة منه ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾ (لقمان: 20) .

ولو أنه أعمل عقله وفكره لاهتدى إلى ربه من أقرب طريق ولما جادل فى الله بغير حجة واضحة ولعلم أن ربه كريم يمنح فضله دون حساب ومن فضله أنه لا يعاجل أحداً بعقوبة .

عن قتادة وعبد الله قالا : بينما رسول الله ﷺ جالس مع أصحابه إذ مرت سحائب . فقال : أتدرون ما هذا؟ «**هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يعبدونه**» . وذلك معنى ما تشير إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ**

النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ (فاطر: 45) .

وإذا ظهرت نعمة الله علينا وظهر حدبه ورعايته لنا وآمنت بذلك قلوبنا بعد أن رأته عيوننا فأين يكون الطريق إلى معرفة ربنا تعالى وما هى وسائل الإيمان به؟

ونحن بإزاء هذا التساؤل أمام طريقين يكمل بهما الجواب عنه :

أولهما : كتاب الله الحكيم، فقد رسم الطريق واضحاً أما السائرين إلى السعادة الأبدية والنجاة فى الدنيا واهتدى بهديه الأولون من المسلمين فسعدوا فى دينهم ودنياهم وانتصروا على الأعداء فى كل ميدان وكانوا مع الله بتنفيذ أوامره والابتعاد عن مساخطه ونواهيه فكان الله معهم بنصره وتأييده ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (التغابن: 8) .

وثانيهما : هذا الكون العظيم الذى بلغ من الرحابة والسعة ما دل به على قدرة خالقه وعظمته وبالنظرة الفاحصة فى هذا الكون وبالفكر الصائب فى جوانبه وبالعقل المستنير يستطيع الإنسان أن يتعرف على خالقه جل وعلا، ومن أجل ذلك جاء قول ربنا تعالى : ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: 101) .

وجاءت الآيات الكريمة تحث المرء على إعمال الفكر وشحذ الملكات وكسر أغلال الجمود حتى يصل إلى معرفة الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164) .

وإليك استفهاماً ساقته آية كريمة عن الخالق الرازق الذى يرسل الرزق وفيراً إلى الأنام دون حرج أو تقتير مما يجعل العاقل يذعن لجلال مولاه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ

الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ؟﴾ (يونس: 31-32) .

وكان اهتداء المرسلين فى هداية أقوامهم إلى الله بالفكر الهادىء مثل اهتداء المرء بمنطق القرآن فى هذه الناحية وكانت النظرة الدقيقة فى آفاق الكون وما فيه من شموس وكواكب حسب أمر القرآن مصدر عظة وعبرة وهداية وها هو ذا خليل الرحمن إبراهيم ﷺ يقف أمام الطاغوت «النمروز» ودار الحوار بينهما هكذا ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (التغابن: 8) . قال الطاغية: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة: 258)، يريد أنه يميت بالقتل والسبى ويحيى بالعفو عمن أساء ولكن إبراهيم أدرك بثاقب فكره أنه لن يكون هناك خير يرجى من الحوار مادام يسير على هذا النحو الأرضى فنظر فى آفاق الكون الربانى حيث العظمة الإلهية تتعالى على الشبيه والمثال وتتسامى على الشريك والنظير وقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: 258) .

وما زالت النظرة الصائبة فى آفاق الكون مصدر الهداية والعبرة للقلوب المستنيرة عبر القرون والأجيال ونسير مع الزمن حتى نقف أمام العالم المسلم المفكر «أبى حنيفة» وكان شديد النقد للزنادقة . روى ابن كثير عنه أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم «دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه: ذكر لى أن سفينة فى البحر مثقلة بأحمالها فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا ربان يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام وتتخلص من كل ما يصادفها من الصخور المرجانية من غير أن يقودها أحد فقالوا: هذا شىء لا يقوله عاقل . فقال الإمام: ويْحكَم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة أليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه» .

هذه منارات إيمانية نضعها على طريق العلم والإيمان الذى اختارته دولتنا لتسير عليه فى خططها الجديد ولمحات نضعها أمام شعبنا العزيز علّ فيها ما يعين على السير ويربى النشىء ويأخذ بيد الفتيان والفتيات صعودًا إلى قمة العزة والمجد ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: 52) .

أنيبوا إلى ربكم (2)

إن قضية التوحيد كانت شغل المرسلين الشاغل واستنفدت جل جهدهم من لدن آدم أبى البشر إلى عهد رسول الرسالة الخالدة والنبوة الجامعة محمد ﷺ وتعرضوا من أجلها لإيذاء شعوبهم واضطهاد أقوامهم.

والبشرية منذ أول عهدها بالحياة تأرجحت بين الإيمان بالله إيماناً صافياً مع الأنبياء تارة وبين الشرك والإلحاد فى غياب الإيمان تارة أخرى. فكان الشرك هو السمة الظاهرة والفكرة الغالبة على أفكار الناس.

والبشرية فى أطوار مختلفة من حياتها كثيراً ما ألغت عقولها وتركت زمامها وتخلت عن دورها فى الحياة ونزلت عن المكانة التى أرادها لها ربها فتوهمت أنها أقل شأناً وأضأل مكانة من أن تتصل بربها مباشرة فاتخذت آلهة غير الله من الحجارة أو من البشر أو من النار أو من الأشجار وتقربوا إليها بأنواع العبادة والدعاء والاستغاثة فى وقت الشدة والنذور كى تقربهم هذه الآلهة إلى الله رب العالمين وقالوا - كما تحدث عنهم القرآن - ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر : 3).

ولذلك سموا مشركين حيث أشركوا مع الله غيره فيما هو مختص به تعالى مع أنهم كانوا مؤمنين بأن الله موجود وأنه خالق الكون ومدبره وحافظ العالم ومهيمن عليه فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزمر : 38).

ومن هنا كانت قضية التوحيد هى القضية التى عانى من أجلها المرسلون ما عانوا من المشقة والتعب مع أقوامهم وصودرت حرياتهم واعتدى عليهم فجاءت آيات القرآن تعالج القضية من ألفها إلى يائها من أولها إلى آخرها فأثبتت الوحدانية لله ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : 163).

وأمرت كل رسول أن يؤمن بهذه الحقيقة ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر : 65-66)، وأمرت بابلاغ ذلك إلى قومهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ (الأنبياء : 25)، وبينت أضرار التعدد والثنوية

التى عرفت فى الفلسفات الأولى والحضارات القديمة لدى اليونان والمصريين القدماء من عقيدتهم فى وجود إله الخير وإله الشر وإله الحرب وإله النور ، وربة الخصب والنماء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء : 22) وقال الله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . (الزمر : 65) .

وأنحت باللائمة علي المشركين وناقشتهم في أفكارهم عن الآلهة التي اختاروها من دون الله وشرحت عجزها عن أن تفعل شيئاً في السموات أو في الأرض في دين الناس أو في دنياهم وجادلتهم في ذلك كله بالحجة والبرهان وساقت الدليل تلو الدليل ، قال تعالي : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ (الأعراف : 191) .

وقال تعالي : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر : 14) .

وقف النبي ﷺ من الشرك موقفاً حاسماً لا هوادة فيه ولا لين فقرع المشركين بالحجة وصاولهم بالبرهان وجادلهم بالبيان وحادَّهم بالقرآن ، روي ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءتهم قريش وجاءه النبي فشكوه إلي أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ما تريد من قومك ؟ قال : « **أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية كلمة واحدة** » قال : ماهي ؟ قال : « **لا إله إلا الله** » فقالوا : إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب فنزل في شأنهم قول ربنا تعالي : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص : 1-8) .

إن الإنسان إذا آمن بربه إيماناً ملك عليه شغاف قلبه وزمام نفسه وأدرك إدراكاً

عميقاً أنه في حاجة إلي رحمة مولاه ورعايته في كل لحظة من لحظات الحياة وفي كل نبضة من نبضات الجسم وعرف أن الله بيده الخير وهو علي كل شيء قدير وأن مصير العباد إليه وحسابهم بين يديه، فإن هذا من غير ما شك يجعله يحب من فعل معه ذلك كله وأنعم عليه ورعاه، ومن أجل ذلك كان الحب لله والخوف منه والرجاء فيما عنده والعمل لرضاه آثار لازمة ودلائل صادقة علي إيمان الإنسان بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: 51).

وذلك هو أثر الطاعة، وإليك أثر الخوف وثوابه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ وهذه صفة المؤمن الصادق في آية كريمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: 165).

وقال عز من قائل: مبيناً ما يجب أن يكون عليه المخلصون في الأعمال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: 110) وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: 10).

ومن هذه الآيات الكريمة المبثوثة في ثنايا المصحف الشريف ظهر أن مقتضيات الإيمان بالله حب وعمل، وخوف ورجاء.

إن للإيمان بالله أثراً كبيراً في إيقاظ الضمير وإحياء الشعور وعلاج النفوس وإصلاح القلوب وقد رأينا وقرأنا كما سمعنا عن الرجال الذين رباهم الأنبياء والمرسلون فأدبوهم بتعاليم الدين وأوامره ودربوهم على أعمال الخير والعدل والحق فهم الذين استقام بهم طريق الحياة وصلحت بهم أمور الدنيا، واعتدلت فى أيديهم موازين العدل، وشرفت بوجودهم أحوال الناس ومعيشتهم، وإن المرء لينحنى تقديرا لتلك الروح الطاهرة ويدهش عجباً لتلك النفس الأبية العالية وقد تعالت على الفسق والفجور وسمت عن الفحش والخنا.

وإن الانسان ليمتلىء حباً ليوسف ﷺ ذلك الإنسان الطاهر العفيف وهو يترفع عن مغريات الجمال والزينة ويتحدى القوة الباطشة مهما كان لها من قوة وتمكين وكان منطق المؤمن الثابت الشجاع رائده وحجة العقل المفكر السليم دليله

حينما هددته امرأة العزيز ـ بما لها من عزة وسلطان ونفوذ كلمة فى الدولة ـ إن هو لم يستجب لرغباتها ولم يخلع ثوب الطهارة والعفاف ويقطن بين أحضانها فقال فى قوة وإيمان : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فحفظه الله ورعاه ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف : 33ـ34) .

وعلى ذلك دخل يوسف ﷺ السجن ليقضى فيه بضع سنين لا لذنب فعله ولا لجناية ارتكبها وإنما كان لهوى جامح وعشق آثم ، وشهوة عارمة تمكنت من هذه المرأة الحمقاء.

ولم يكن السجن فى يوم من الأيام سُبَّة فى تاريخ الأحرار ولا منقصة فى جهادهم ، ولا عيب فى أعمالهم ، بل كان السجن موئلاً لكل حر كريم ، ومكاناً لكل أبيٍّ عظيم ، يرده كل مصلح بعد أن غير معالم الحياة الضيقة المظلمة وبعد أن ترك الأفكار النيِّرة تأخذ طريقها إلى النفوس المجهدة ، ولم يعرف السجن مذلة للهداة المرشدين وإنما كان ليمد لهم من أسباب الحياة مداً وليمكن من طريق الكفاح تمكيناً ، وليربط بهم قلوب الأخلاف من بعدهم ويمسكهم برسالتهم وآثارهم .

على هذه السنة دخل يوسف ﷺ السجن بعد أن تأبى على المرأة وترفع على مغريات الحياة وشهواتها ، وأظهر التواءً وامتناعاً ثم إعراضاً ، أتراه ترك واجبه وسكن عن رسالته؟ كلا!! بل قام بواجبه خير قيام ، وعطف على المسجونين ، وأخذ يدعوهم إلى عبادة الله رب العالمين : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف : 39ـ40) .

وعاش الرجل لرسالته يدعو إليها ـ شأنه فى ذلك شأن المصلحين ـ لم تنل منه كوارث الأيام ولم تهن قوته أو تضعف عزيمته ، واستطاع هذا المخلص الأمين والمصلح الرحيم أن يضع خطته الحميدة ومنهجه الرشيد لإصلاح وضع مصر الاقتصادى الذى أنقذها من إفلاس محقق ومجاعة مهلكة كادت أن تأكل الأخضر واليابس .

ولما أخرج من سجنه قام بذلك المنهج الإصلاحى الكبير لخدمة الأمة وقال للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف : 55) ، فدل بذلك على صفاء نفسه وإخلاص قلبه وسداد رأيه .

من أجل ذلك كان الاضطهاد والسجن والتشريد لأصحاب الدعوات صقلاً لنفوسهم، وتمحيصاً لقلوبهم واختباراً لإيمانهم وإعلاء لكلمتهم ورفعاً لشأنهم ولو عرف الطغاة فى قديم الزمان وحديثه أنه مواكب الحرية سوف تصل فى النهاية إلى أملها وغايتها وأن الأحرار لاشك واصلون إلى ما يرجون من نجاح وفلاح فى رسالتهم لتركوا للحرية طريقها كى تمضى نحو الهدف المنشود والغاية المرجوة .

وإليك نموذجاً آخر من أعمال المؤمنين ثمرةً لإيمانهم، ودليلاً على اليقين فى قلوبهم، وأمارة على إخلاص نيتهم .

هذا هو ذو القرنين لما تمكن الإيمان من قلبه دفعه إيمانه إلى أن يقف بجانب شعب مستضعف أهين فى زرعه وماله وفى حريته وكرامته وقد عرض عليه الأجر الجزيل فى مقابل هذا العمل الكبير فأبى ابتغاء لوجه الله وقيامه بواجبه نحو الإنسانية المعذبة المضطهدة وقطعاً للطريق أمام العابثين الظالمين . وكان النشاط بادياً على عمله فلم يطلب من الشعب غير القيام سريعاً إلى مساعدته والنهوض إلى معاونته وصدق الله العظيم حيث يقول عنه وعنهم: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف : 94-95) .

هذا الإيمان فى نفوس المؤمنين وذلك فعله فى إصلاح الفرد ونهضة الجماعة فكان نفحة السماء للأرض ورسالة الملأ الأعلى إلى دنيا الناس ووحى اللطيف الخبير إلى رسله وأنبيائه ودعوة المصلحين الدينيين إلى البشرية كلما تنكبت طريقها السوى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام : 90) .

التدين بين الصدق والادعاء

الإسلام أساس حياة المسلمين وضمان بقائهم فى المجتمع البشرى وسر قوتهم فى القرون الأولى ومنبع عزتهم وسؤددهم فى الحياة وسبب تمكنهم ونصرهم على الأعداء .

وهو أمان الخائفين وموئل الآمنين وهو رائد القلب والعقل وطلبة الروح والنفس وهو دين الله أرسل به رسله من لدن آدم إلى عهد رسول الله محمد ﷺ وقد اختاره لعباده ليقيم به عوجهم وينير به فؤادهم ويرشد به حائرهم ويهديهم به إلى صراط مستقيم قال تعالى : ﴿أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام : 153) .

والإسلام هو ذلكم المنهاج الربانى الشامل والقانون المحكم الكامل والنظام الأمثل الذي عمل على إقامة مجتمع بشرى فاضل وإيجاد إنسانية سامية رفيعة تنشط فى ظلالها قوى العقل والضمير وتنهض فى رحابها ملكات الإرادة والتفكير ويدرك كل فرد من الناس أنه إنسان سيد نفسه لا سلطان لأحد من الناس ـ كائنا من كان ـ عليه ولا يذل إلا فى ساحة الله الحى القيوم الواحد القهار . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت 41ـ42) ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية : 18) .

والقرآن الكريم ـ وهو دستور الإسلام ـ مازال ينطق بالحق والصواب فيفتح الآذان الصم والأعين العمى وينبه الغافلين كى يدركوا أسرار الله فى الكون الكبير ويعرفوا سننه فى النفس الإنسانية ويفهموا نظامه المبدع فى الخلق والإعجاز . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات : 21) ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (ق : 6ـ11) ، وقال عز شأنه ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس : 101) .

وإذا كان القرآن قد أهاب بالناس أن يفتحوا عقولهم وأفئدتهم على مظاهر العظمة والإبداع بما جعل فى الإنسان من فكر وحواس فإنه حدد مسئولية الإنسان نحو هذه الحواس إذا عطلها ولم يستعملها فيما خلقت من أجله وغفل عن آيات الله فى نفسه والأرض والسماء قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء : 36) .

وديننا الحنيف وضحت مبادئه وبينت معالمه وحددت أهدافه ومراميه وأسست قواعده ومبانيه فى أمور أربعة هى جماع الشأن كله وقوام الإسلام كله وكيان التكليف كله .

وهذه الأمور هى عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات وإليكم آية كريمة جمعت هذه الأمور كلها بما لا يدع مزيد المتزيد قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة : 177) .

أمور أربعة جمعت أمور الدين كلها جاءت فى آية كريمة واحدة بدأها ربنا سبحانه برد حاسم على اليهود حين عابوا على رسول الله وأصحابه تحولهم فى الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة امتثالاً لأمر الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة : 144) .

كان رد الله عليهم من أجل أنهم نشروا الأكاذيب والأراجيف حول النبى والمسلمين فى إنهم يصلون كل حين إلى قبلة غير التى كانوا عليها فكان الرد عليهم من قبل الله متضمناً نفى مظاهر التدين الكاذب الذى يعتمد على المظاهر والأشكال دون الاهتمام بالصدق والإخلاص فى العمل وحسن النية فإن الله تعالى يملك الأرض كلها شرقاً وغرباً فيوجه عباده المؤمنين إلى أى جهة يشاء هو لا كما يشاء غيره ﴿ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : 142) .

فليس ـ إذن ـ لأكاذيب اليهود نصيب من الصدق وليس لادعاءاتهم سهم من الحقيقة بعدما تبين من قول الله تعالى أن الذى كانوا يحرصون عليه من التوجه إلى بيت المقدس والتحول عنه ـ ليس من التدين الصادق فى شىء فإن الله مالك الأرض كلها فيوجه عباده إلى أى جهة يشاء ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (البقرة : 177) ، ولكن التدين الصادق والعمل الصالح عقيدة سليمة فى إيمان الله مصدر كل خير ومانح كل رحمة وبر ومعطى كل رزق وفضل .

وهذا حتى تخضع النفس لله وحده وتصدق النية له ويتوجه القلب إليه وعندئذ سوف لا يعرف الإنسان إلا ربه ولا يطيع أمراً لسواه فيه عصيان له .

وكان الإيمان بالله يستتبع الإيمان بالملائكة عباد الله المكرمين المطيعين له المسبحين بحمده القائمين بأمره كما يستتبع الإيمان بالنبوات والرسالات منارات الخير والرشاد والتربية الفاضلة ويستتبع الإيمان بالكتب السماوية دساتير الهدى وشرائع الحق والتقى ، ويستتبع الإيمان باليوم الآخر يوم الثواب والأجر أوالعقاب على الذنب والإثم ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة :177) .

وكما كان التدين الصادق والعمل الصالح فى العقيدة السليمة فإنه يكون بالعبادة الصحيحة التى تعلم المرء إخلاص العقل وخشوع النفس وصفاء النية ونقاء الروح وصدق المراقبة لله تعالى وتعوده العطف على الفقراء والمساكين والرحمة بالأرامل والأيتام والشفقة بالمحتاجين والضعفاء والشعور بالمحبة نحو القريب والجار والصديق ومشاركة هؤلاء المحزونين أحزانهم وتخفيف الويل والكربات عن المكروبين فإن من فرج عن مسلم كربة . فرج الله عنه كربة من كربات الآخرة .

كان التدين الصادق والعمل الصالح بالعبادة الصحيحة عنصراً من عناصر الإخلاص والصفاء والورع والمراقبة والإحسان والرحمة بالناس والتقوى ، فلا فائدة من عبادة لا يكون لها أثر عظيم فى نفس صاحبها . فلا تدفعه إلى خير ولا ترده عن شر ولا تغرس فى نفسه أصول الخشية من الله ولا تخلع من قلبه وساوس الشيطان . روى ابن حبان عن أبى ذر عن النبى ﷺ : «**قدأفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه**

سليماً ولسانه صادقاً ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة» وعن أنس بن مالك قال: كنا في بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار فأقبل علينا رسول الله ﷺ فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه ثم قام إلى الباب فأخذ بعاضدتيه فقال: «**الأئمة من قريش ولي عليكم حق عظيم ولهم ذلك ما فينا وثلاثاً إذا استرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا وإذا عاهدوا وفوا فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**» وروى الحسن قال: قال رسول الله: «**إذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم الحكماء وجعل المال عند السمحاء وإذا أراد الله بقوم شراً ولى أمرهم السفهاء وجعل المال عند البخلاء**» وفي الحديث ما يدل على أن العبادة لابد أن تكون سلوكاً وتربية قبل أن تكون مظاهر خلابة وأعمالاً تقليدية. كان التدين الصادق والعمل الصالح بالعقيدة السليمة وكان التدين الصادق والعمل الصالح بالعبادة الصحيحة وبذلك يكون الدين الصادق والعمل الصالح بالخلق الكريم فقد مدح الله رسوله بأنه على خلق عظيم ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: 4)، وكانت رسالة الإسلام من أجل أن تعلم الناس الوفاء والأمانة والصبر والمروءة، ومن أجل أن تعلم الناس الأخلاق الكريمة والشمائل الندية. قال تعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾ (البقرة: 177).

فقد بينت الآية للصبر ثلاث حالات من أعظم ما يتصف به الإنسان في الحياة في شدة الفقر وعندما يصاب به من مرض وغيره ثم عندما تقبل الحرب بأهوالها وتكشر عن نابها وذلك مع ما ذكر من مكانة الوفاء بالعهد وفضله وما له من أثر كبير في إصلاح المجتمع البشري وبيان شؤم الغدر وسوء أثره حيث ذكر أنه فعل الحمقى والمأفونين ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا**﴾ (النحل: 91-92).

فإن الدين ليس أماني كاذبة وليس دعوة خالية من الروح والتربية وليس كلمة يرددها اللسان وتخرجها الشفاه دون أن يكون لها أثر في السلوك والعمل ومن أجل ذلك عيب على اليهود أنهم تمسكوا بأمور ليست من العمل الصالح في شيء فكان

تدينهم أشبه بالطلاء يزين الظاهر دون أن يكون له أثر فى الباطن ولو صدقوا فى تدينهم ما عابوا على رسول الله أنه تحول إلى الكعبة فى الصلاة بأمر الله مع العلم بأن الأماكن كلها لله شرقاً وغرباً ﴿ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : 142) .

هذه هى صور التدين الصادق . . . إنها العقيدة السليمة التى تدفع الإنسان إلى معرفة الحق تبارك وتعالى واهب الخير ومانح الحياة وهو العبادة الصحيحة التى تعود الإنسان السلوك الطيب والتربية النافعة وهو العمل الصالح الذى يعمر الحياة بالإحسان والعدل والمساواة والاستقامة والنشاط والحركة والسعى من أجل عيش رغيد وهو الخلق الكريم الذى يفتح القلوب فيجعلها تفيض بمعانى الحب والإخاء والتواضع وعندئذ تكون دعوى التدين صادقة ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة : 177) .

هذه هى صور التدين الصادق ومظاهر العمل الصالح التى رسمها دين الله وشرعه . . . إنه صور تحرك النفس الإنسانية كى تفعل كل عمل نبيل وحبذا لو عرف المسلمون هذه المعانى الفاضلة وغيروا من فهمهم لهذا الدين فإن السواد الأعظم منهم انحرف فهمه عنه فاكتفوا من الصلاة بالحركات والسكنات ومن الزكاة بالرياء والعجب ومن الصيام بالتماوت والهزال ومن التسبيح والذكر بالهمهمة والصياح ومن التدين بخفوت الصوت وانحناء الرقبة وإظهار التحسر على الأخلاق وإعلان التباكى على الدين وضياع أركانه ولا شىء بعد هذا فصار التدين كلمة خالية من معانى الروح والحركة فأضحى أشبه بالصورة على الورق منه بالمنهج والنظام .

إن التدين الصادق يدفع إلى مجد الحياة وإن التدين الكاذب يجعل المرء يرضى بالدون منها فالأول ينظم أمور الحياة والثانى لا يمس منها شيئاً . أرأيت إلى الأسد فى قفصه حين يزأر إنه يبعث الرعب فى القلوب ثم انظر إليه وهو على الورقة إنه صورة لا حياة فيها ، أرأيت إلى السيف وهو فى يد المجاهد يضرب به رقاب أعداء الله ثم رأيته وقد تحول إلى قطعة من الخشب فى يد خطيب على منبر .

إذا علمت الفرق بين هذا وذاك فاعلم إنه الفرق بين التدين الصادق والتدين الكاذب وهو ما نقصد إليه من كلمتنا فى العنوان الذى وضعناه فى رأس الموضوع «التدين بين الصدق والادعاء» .

دعوة الحق فى مواجهة أهل الباطل

بعث الله رسوله الأمين محمد ﷺ رحمة للعالمين وخاطبه فبين مهمته فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : 107) .

فقام بالدعوة خير قيام متحملاً فى سبيلها ألوان العذاب وصنوف السخرية والاضطهاد فدعا إلى الإسلام سراً من وثق بهم من الناس حتى نزل عليه قول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾(الحجر : 94)، فانتقل بالدعوة من السرية إلى الجهر والإعلان مطمئنًا إلى وعد الله بالنصر على الأعداء وقام على الصفا وجعل ينادى قريشاً ولما حضروا قال لهم : «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟** » «قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا» قال: «**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**» قال أبو لهب: تبًا لك ألهذا جمعتنا وهزأ به فنزل قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد) .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء : 214-215)، طلب أهله وعشيرته فقال لهم: «**إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذب الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبدا أو لنار أبداً**» .

غير أن الناس عبيد الإلف منذ قديم يجمدون على ما ورثوا من عادات وتقاليد ومبادىء ونظم فما كادوا يسمعون منه هذا الكلام الطيب حتى قال أبو لهب: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فإن أسلمتموه إذن ذللتم وإن منعتموه قتلتم» وصاروا يسخرون منه ويستهزئون به يرمونه بأقبح الصفات فلما رأى منهم ذلك عاب آلهتهم وسفه أحلامهم ونال من عقولهم فثارت فى رءوسهم حمية الجاهلية غيرة منهم على أصنامهم التى يعبدونها من دون الله وذهبوا إلى عمه وطلبوا منه أن ينهى ابن أخيه وردهم أبو طالب رداً جميلاً ولكنهم رأوا النبى ماضيًا فى طريق الدعوة

لا يلوى على شىء فذهبوا إليه مرة ثانية وقالوا له : يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ومنزلة وإنا طلبنا إليك أن تنهى ابن أخيك فلم تفصل وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا وتكفير من مضى من آبائنا فإما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك منا أحد الفريقين، وانصرفوا، فعظم على أبى طالب فراق قومه ولم يطب نفسًا بخذلان ابن أخيه فقال له : يا ابن أخى : «إن القوم قالوا كذا وكذا فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق» فظن رسول الله أن عمه سيخذله فقال تلك الكلمة المشهورة التى مازالت تحاكى الشمس إشراقاً وضياء : **«والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»** فقال أبو طالب : «انطلق يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا» .

سلك المشركون مع رسول الله عدة مسالك وعملوا معه عددًا من الحيل والتهديدات إرادة أن يصرفوه عن هذه الدعوة ولكنهم لم يفلحوا فقد وقف النبى ﷺ فى إباء وشمم يعلن للدنيا كلها أنه ماض فى طريق الدعوة غير عابىء بما يجده فى سبيلها من عنت وشدة .

وكان من جملة التهديدات ما روى من أن أبا جهل قال يومًا : يا معشر قريش إن محمد قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم إنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بى بنو عبد مناف ما بدا لهم فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا ﷺ كما يغدو إلى صلاته وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعله فلما سجد ﷺ احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا لونه من الفزع ورمى الحجر من يده فقام إليه رجال من قريش فقالوا : ما لك يا أبا الحكم؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى» فلما ذكر ذلك لرسول الله قال : **«ذاك جبريل ولو دنا منى لأخذه»** .

وكان هذا الشقى كثيراً ما ينهى الرسول عن الصلاة بجوار الكعبة فقال له يومًا : بعد أن رآه يصلى ـ ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له الرسول فى القول وهدده . فقال :

أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا؟ فأنزل الله تهديداً له فى آخر سورة العلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق : 9-19) .

ومن جملة حيلهم أنهم ذهبوا إلى أبى طالب وقالوا له : إنا نعطيك أحسن فتى فى قريش على أن تسلم إلينا محمد نقتله فقال لهم : عجبًا لكم ! ! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلوه» . فلجأوا إلى أمر آخر بينهم وبين الرسول مباشرة بعيداً عن أبى طالب فعرضوا عليه الدنيا بأموالها وسلطانها ومناصبها ، فهذا «عتبة بن ربيعة» يقول لقومه : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً عله يقبل منا بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا فقالوا : قم إليه يا أبا الوليد فكلمه فذهب إلى رسول الله وهو يصلى بجوار البيت وقال له : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت حسباً ونسباً وإنك قد أتيتنا بأمر عظيم فرقت به جماعتنا وسفهت أحلامنا وعبت آلهتنا وكفرت من مضى من آبائنا فاسمع منى أعرض عليك أموراً علك تقبل منا بعضها وكف عنا فقال : قل : يا أبا الوليد اسمع . فقال : يا ابن أخى إن كنت تريد من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فقال ﷺ : «فاسمع منى وابتدأ الرسول يقرأ قرآنًا بسم الله الرحمن الرحيم : حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦)

الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (فصلت : 1-8) ، واستمر الرسول يقرأ حتى وصل إلى قول الله فى السورة ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت : 13) ، فوضع عتبة يده على فم رسول الله وناشده الرحم أن يكف عن القراءة فلما رجع إلى قريش قال لهم : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى خلو بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم فقالوا : لقط سحرك محمد فقال : هذا رأيى » .

إن الرسول ﷺ فى هذا الموقف يعلن جملة من الأمور فهو يعلن :

أولاً: إن القرآن الكريم من عند الله وهو كتاب وضحت آياته توضيحاً وبينت معانيه تبيناً يعرفه العالمون يبشر المؤمنين بالجنة وينذر المشركين بالنار فآمن به المؤمنون وكفر به الفاسقون ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت : 4،3) .

ثانياً: موقف الكفار من الإسلام فقد قالوا للنبى ﷺ : قلوبنا فى أكنة ـ أغطية ـ مما تدعونا إليه فلا نؤمن بالتوحيد وفى آذاننا ثقل وصمم فلا نسمع القرآن ومن بيننا وبينك سد منيع فلا نتبعك فاعمل أنت على مقاومتنا ونحن سنعمل على مقاومتك وإيذائك سر أنت على طريقك ونحن سنسير على طريقنا ولن نجتمع على كلمة سواء لأن الخلاف الذى بيننا وبينك يمنع ذلك التجمع ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت : 5) .

ثالثاً: إنه بشر مثل سائر البشر ولكنه تميز عن الناس بميزة خاصة فهو إنسان كلف برسالة ونيطت به دعوة فأعده الله إعداداً حسنا كى يستقبل النور من الملأ الأعلى وكى يستقبل رسالة السماء إلى الأرض وكى يتلقى الوحى من رب العالمين .

هذه أمور يواجه بها الرسول عتبة بن ربيعة يعلن بها أنه ما جاء إليهم ليكون ملكًا عليهم أو سيدًا أو طالب مال وإنما أرسله الله ليحمل رسالة ويبلغ دعوة ويهدى

أمة وهو من أجل ذلك يعلنها مفاصلة بين الإسلام وبين غيره من الدعوات الزائغة ويرسم الطريق للداعين إلى هذا الدين فلابد لهم من معرفة هذه الخصائص التى تميز هذا الدين عن غيره ولابد لهم من السمو بأنفسهم عن مغريات الحياة وشهواتها .

وكان من جملة حيل المشركين من أهل مكة أنهم أرادوا صرف رسول الله عن الدعوة بطريقة تخلط بين الحق الذى يحمله وهذا الباطل الذى كانوا يدافعون عنه ويحملون رايته فطلبوا منه أن يتبعهم فى عبادتهم يوماً ثم يتبعونه فى عبادته يومًا لكن الوحى الأمين يعلنها صريحة مدوية : أن طريق الحق واضح لا يقبل خلطا أو تلبيسا ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون) .

فإذا لم يكن ذلك فلينزع من القرآن الآيات التى تذم الأصنام أو فليأت بآيات أخرى وينزل الوحى بالرد الحاسم فى هذه المسألة مبينًا أن الحق ثابت لا يقبل مساومة أو تبديلاً ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑮ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس : 15، 16) .

ولما لم تنفعهم هذه الحيل لجأوا إلى طلب المعجزات الحسية تعنتًا وتعجيزًا وإعراضاً وتكبراً وعنادًا وغرورًا فطلبوا أن يجعل لهم فى الصحراء جنات وأنهارًا وبساتين وقصورا وأن يصعد فى السماء أو يأتى بأدلة ناطقة برسالته وبراهين مؤيدة لدعوته ونبوته وهكذا يحكى القرآن عنهم ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ⑨⓪ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ⑨① أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ⑨② أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء : 90-93) .

هذا أسلوب من العمل يصنعه أناس لا يطلبون الهداية والإذعان لداعى الإيمان وإنما هو التعنت والتعجيز يلجأ إليه من ليس معه من أدلة الهداية شىء ولو أنهم

أمعنوا النظر وأداموا الفكرة لآمنوا وعرفوا الحق من أيسر طريق واهتدوا إليه ولذلك كان رد الرسول عليهم أنه بشر رسول يبلغ ما أوحى إليه من الله فإن آمنوا فلهم ثواب الله وإلا فسوف يبوءون بغضبه ولن يضروا الله شيئا.

حمل رسول الله عبء الدعوة فى هذا الجو المكفهر ورفع رايتها وسط هذه الرياح الهوج وسار متحدياً بها هذه الصعاب مستسهلاً ما يجد أمامه من أخطار مهما كانت صعوبتها ومهما كانت شدتها مطمئناً إلى وعد الله بالنصر.

وقفت قريش لرسول الله ﷺ بالمرصاد وازدادت معارضتهم وكثرت مناوأتهم وعظمت سخريتهم بعد وفاة العزيزين الراحلين «أبى طالب» الذى كان يدفع عنه ويذود عن حماه و «خديجة بنت خويلد» التى كانت تساعده بمالها وتشجعه بحنانها وتمسح عنه عناء الدعوة وتعبها وآلت على نفسها أن تصادر الدعوة مهما كلفها ذلك من مشقة وعناد وجحود.

نظر الرسول ﷺ فوجد الشر قد كشر عن أنيابه ووجد مكة لم تعد تصلح لتبليغ الدعوة فأراد أن يولى وجهه شطر الطائف عله يجد من قبيلة ثقيف من يعينه على تبليغ الرسالة لكن ثقيفًا كانت أخس نفساً مما ظن رسول الله فلم يكد يعرض عليهم الإسلام حتى هبوا فى وجهه وردوا عليه أقبح رد وقالوا له أخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم فصاروا يرجمونه بالحجارة حتى أدموا قدمه الشريف وشج وجه زيد بن حارثة حين حاول أن يدافع عنه.

رجع رسول الله إلى مكة كاسف محزون الفؤاد وتذكر وهو راجع ما فعله معه رجال قريش من عنت وسخرية وجحود وإنكار وأذى واضطهاد فهتف يدعو من أعماق قلبه قائلاً لربه : «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس وأنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى غير أن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**».

«إلى من تكلنى» هكذا يقول رسول الله لربه والله لا يكله لأحد إلا إليه ولن

يتخلى عنه أو يتركه لغيره وهكذا يقول الله له : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور : 48) . عليك أن تصبر على إمهالهم فلا يضيق صدرك بتكذيبهم فنحن نحفظك ونرعاك ونؤيدك ونسدد خطاك واستجاب الله تعالى له فأرسل إليه جبريل ليقول له يا محمد إن الله أمرنى أن أكون طوع أمرك فى قومك لما فعلوه معك فإن أردت أن أهدم عليهم الأخشبين؟ فقال : «**لا يا أخى جبريل إنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**» فقال جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم» .

فى هذه الشدة الشديدة والوقت العصيب وقع حادث الإسراء والمعراج ليكون تسلية للنبى محمد ومسحاً لقلبه المعنى ببرد الراحة واليقين إننا ـ معشر المسلمين ـ مأمورون بأن ندقق النظر ونديم الفكر فى كل ما يقصه علينا تاريخنا الإسلامى من حياة الرسول ﷺ فإن فى هذه الحياة العظة الهادية والدرس المرشد والعمل المخلص والعبارة الخاشعة والعقيدة الدافعة إلى مجد الحياة .

فقد وقف ﷺ فى إباء وشمم يعلن مفاصلة بين رسالة الله وبين مغريات الدنيا فلا استماع إلى شهوات النفس ولا طاعة لنزوات الحس وقف رسول الله ليرد على عتبة أنه ما جاء إلا لينقذ البشرية من ظلمات الجهل والشرك إلى نور المعرفة والإيمان فليس هو بملك وليس هو بسيد يطلب أن يسود قومه أو يتملك عليهم وليس هو طالب مال أو جاه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ : 28) .

وجب على المسلمين من أجل ذلك أن يفقهوا هذا الأمر من حياة رسول الله حتى يعلم أنهم يحملون أعظم فكرة ويمثلون أضخم دعوة ويقومون بأكبر رسالة جاءت إلى البشرية . فليفقه المسلمون ذلك وليقرأوا تاريخهم وليدركوا رسالتهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم وليعلموا أن وضعهم ليس فى هذه الحياة فقط من أجل أن يعيشوا فيها كما يعيش غيرهم وبذلك ينتهى أمرهم وإنما سوف تمتد حياتهم إلى ما بعد الدنيا حتى يصلوا إلى الآخرة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة : 72) .

إن التاريخ الإسلامى يشرح لنا كيف وقف رسول الله يعلن على الدنيا أنه

يتسامى على غرور النفس ويتعالى على متاع الحياة لأنه يحمل رسالة أكبر من الحياة وأضخم من كل ما فيها وأعظم مما يحرص عليه الصغار من جاه ومنصب ولا يمكن أن ينزل من أفقه السامى إلى الحضيض السافل وكيف يصغر والله قد جعله كبيراً فلئن كانت متع الحياة تنتهى عند أجل محدود بإنتهاء عمر صاحبها فى الدنيا فإن رسالة الإسلام تمتد بصاحبها حتى تصل به إلى الرضوان الأكبر ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر : 55) ، وشتان بين ما يحرص الصغار عليه من متاع فان وبين ما يقوم به صاحب المبدأ وبَعُد ما بين الاتجاهين .

فإذا ربط الناس فى حياتهم وعملهم بالدنيا فإن الإسلام يجعل للمسلم من الآخرة فرصة أعظم وأوسع وأرحب بجانب هذه الحياة التى يحرص الأغرار على متاعها وغرورها وشهواتها وزينتها ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود : 15، 16) ، فكانت الآخرة مصير المجاهدين الصادقين ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران : 14) .

هذه صور من حياة رسول الله وما لقيه من قومه من سخرية وإيذاء واضطهاد ونحب أن نتساءل بعدها : ما الذى كان يريده رسول الله ﷺ من هؤلاء المشركين المجاهدين؟ وما الذى جعلهم يقفون هذه الوقفة الصامدة العنيدة؟

ألأن رسول الله طلب منهم أجرًا على الدعوة؟ كلا فما من رسول جاء إلى قومه إلا وقال : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء : 109) ، وقالها رسول الله أيضاً : ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى : 23) ، إذن : فما الذى كان يريده رسول الله منهم حتى يجد منهم هذا العناد الشديد ويقفوا أمامه هذا الموقف الصعب؟

لقد أراد رسول الله منهم شيئاً واحداً فيه سعادتهم فى الدنيا وفلاحهم فى الآخرة : أن يقولوا : لا إله إلا الله ويشهدوا شهادة الحق ثم يتركوا هذه الأوثان التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها موتاً ولا حياة ولا نشوراً كان يريد منهم أن يدعوا عبادة الأصنام التى نحتوها بأيديهم وعكفوا على عبادتها من

دون الله الواحد القهار ولكنهم يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر : 3) ، كان يريد منهم كلمة التوحيد حتى يدخلوا بها فى الإسلام وهم يقولون : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ۝ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص : 8:5) .

هذا ما كان يريده رسول الله من قومه وهو ما نزل القرآن من أجله وهذا ما قام به أصحابه من بعده وهذا ما جعلهم يقفون فى وجهه هذا الموقف الشائن فحقت عليهم وعلى أمثالهم من سار سيرهم كلمة الخزى والهزيمة والعذاب جزاء وفاقا .



القرآن ... والحياة

القرآن باعث النهوض بالأمم

إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق بقدرته ورباهم بنعمته وغذاهم برزق من فضله وافترض عليهم فرائض ليقوموا بها وبين لهم حدود لا يتعدونها ومهد لهم هذه الأرض تمهيداً وذلل لهم ما فوقها تذليلاً ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم/ 34:32] ، ويقول ربنا سبحانه وتعالى في آية ثانية ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: 73:17) ، ويقول عز شأنه في آية ثالثة : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية : 13) .

لكن الناس قديماً وحديثاً لا يعبأون بأوامر الله ولا يستمعون لنصح أنبيائه ورسله ولا يسلكون طريق المصلحين الهداة ولولا أن رحمة الله تسبق غضبه وأنه ترك الخاطئين كي يهيىء لهم فرصة المتاب ويمد لهم في أسباب الحياة كي يعملون عملاً يجعلهم أهلاً للدخول في رحمة الله ولولا هذا لأخذهم الله بذنوبهم وطهر الأرض من رجسهم، قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾

(فاطر : 45)

وإنه عز وجل وجه الناس إلى الخير توجيهًا حسنًا فيه الموعظة الطيبة والبيان الرائع لحال الطغاة الفاسقين وما فعله في غابر الأزمان مع المكذبين فقال : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ

رَّحِيمٌ﴾ (النحل : 45-47) ، وقال تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف : 97-99) .

حين يستمرىء الناس حياة الفسوق والعصيان والفجور والطغيان ويستمرون فى حياة اللهو والعبث فإن المسألة ـ والحالة هذه ـ تتحول إلى حرب لله ورسوله ومجاهرة بالآثام والشرور والشهوات وعندئذ لابد من علاج حاسم تتقدم به المقدرة الإلهية هكذا ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص : 58-60) ، وقال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل : 112) .

أمام هذه الآيات وغيرها من آيات القرآن الكريم التى صورت دنيا المؤمنين السعداء وبينت حال المفسدين الأشقياء وتشرح أسباب انهيار الأمم حينما تفسق عن أمر الله وتخرج عن الصراط المستقيم أمام هذه الآيات وقف المسلمون فى بداية عهدهم بالحياة ـ أفراد وجماعات شعوبًا وحكومات ـ ففهموا مرادها وقاموا بأوامرها ووقفوا عند حدودها وأخذوا حياتهم بآدابها فتنوعت لذلك أوجه نشاطهم وسادوا وانتصروا فى كل ميدان وعرفتهم الدنيا حكاما عادلين ودعاة مرشدين ورجالاً عاملين فمن كفاءة ومقدرة فى النشاط الجسمى إلى نبوغ والهام فى التفكير العقلى ومن فهم أصيل للنواحى الاقتصادية إلى بذل وتضحية وفداء فى النشاط الحربى وبذلك أقبلوا على الحياة من كل جهاتها ودخلوا عليها من جميع أقطارها وتمكنوا من ناصية الأمور فيها ولن نبعد فى التدليل على هذا الكلام عن أفعال القوم وفى ذلك خير دليل وأقوم حجة وأنصح برهان .

استمعوا أولاً إلى قول الله عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك : 15) ، واستمعوا ثانياً إلى الآية الكريمة

- وهى توجه إلى طريق الخير والرشاد - ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(الجمعه : 10) ، فاهتدوا بهديه وساروا فى نوره.

وندع الآن أحدهم يتحدث عن نفسه قال الإمام على كرم الله وجهه : جعت يوماً فخرجت ألتمس العمل فى عوالى المدينة فمررت بامرأة قد جمعت مدرا - تراباً متبلدا - تريد بله بالماء فبادلتها كل ذنوب - دلو - على تمرة فملأت ستة عشر ذنوباً حتى مجلت يدى - احمرت - ثم جئت المرأة فبسطت كفى لترى أثر العمل فعدت لى ست عشرة تمرة فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فأكل معى منها»

وجاء رجل من الأنصار إلى رسول الله يسأله شيئاً من المال وهو معافاً فى بدنه فقال له الرسول : **أما فى بيتك شيء** ؟ قال : بل حلس (كساء غليظ ممتهن) نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه من الماء فقال له الرسول : **ائتنى بهما** فأتاه بهما فأخذه رسول الله ﷺ بيده وقال : **من يشترى هذين**؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم فقال الرسول : **من يزيد على درهم** (مرتين أو ثلاث) قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال له : **اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتنى به** فأتاه به فشد فيه رسول الله عودا بيده ثم قال : **اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما** ففعل وجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال رسول الله ﷺ : «**هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة سوداء فى وجهك يوم القيامة إن المسألة لا تصح إلا لثلاث :لذى فقر مدقع أو لذى غرم مقطع أو لذى دم موجع**» وقال أبو سعيد الخدرى : أقبلت لأسأل رسول الله ﷺ فوجدته يقول : «**من يتصبر يصبره الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله**» قلت : فما أنا بسائلك اليوم»

وروى إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : أوصنى وأوجز . فقال : «**عليك باليأس مما فى أيدى الناس. فإنه الغنى. وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه**» وجلس ﷺ فجعل أصحابه يثنون على رجل فقالوا : إن فلاناً يصوم النهار

ويقوم الليل ويكثر الذكر فقال: «**أيكم يكفيه طعامه؟ وشرابه؟** » فقالوا: كلنا يا رسول الله. فقال: «**كلكم خير منه**».

إننا نسوق هذا الحديث لأولئك الذين يمدون أيديهم الآثمة المرتعشة فيأخذون بها الرشاوى والهدايا وغيرها من الولائم والأعمال التى حرمها الله فيلوثون بذلك الجرم الكبير يداً طهرها الله وينكسون رأساً رفعها الله ويريقون ماء الوجه الذى كرمه الله ناسين أو متناسين قول الله: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: 188).

إننا نسوق هذا الحديث لأولئك الذين يقطعون الشوارع والطرقات ذهاباً وإياباً يطاردون المارة طالبين العطاء والصدقات ولا يكون لهم فيمن سبق قدوة طيبة كان الرسول ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم وقد مر عليهم شاب جلد قوى بكر يسعى فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله. فقال الرسول: «**لا تقولوا هذا فإنه إن كان قد خرج يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان**».

وكما وضح نشاط المسلمين فى العمل والحركة والنشاط والسعى فقد وضح نشاطهم فى الناحية العقلية فيما خلفوه لنا من تراث عقلى شمل كل مظاهر الحياة فكتبوا فى التفسير وعلوم القرآن وتوفروا عليه قبل غيره لأنه كان مصدر الهداية والمعرفة ومنه تفرع كل نشاط عقلى لدى القوم ثم كتبوا فى علم الحديث ورجاله ثم فى علوم اللغة العربية وآدابها ثم فى التاريخ والجغرافيا ثم فى الطبيعة والكيمياء ثم فى الفلك وعلوم الرياضة ثم فى الأعشاب والنباتات ثم فى فقه الشريعة والسياسة والاقتصاد والمال ثم فى الفلسفة وعلم النفس والأخلاق وتدفقت بذلك قرائحهم وسالت أقلامهم مما لم يعرف به لدى أمة من الأمم الأخرى.

وهذه طرفة جليلة صدرت من عالمين كبيرين وإمامين جليلين من أئمة الفقه الإسلامى ترينا إلى أى مدى كان القوم يفكرون وكيف كان القوم يعملون حتى يفهم الناس ما كان عليه سلف أمتهم العربية الإسلامية.

فقد نزل الإمام محمد بن إدريس الشافعى ضيفاً على الإمام أحمد بن حنبل وكانت هناك ابنة للإمام أحمد تسمع أخبار الإمام الشافعى وتتشوق إلى رؤيته لترى

صلاحه وعبادته فرقبت عبادته بالليل وذكره في الأسحار وتتبعت حركاته وسكناته والناس نيام ولكن الإمام الشافعي ظل مستلقياً على ظهره طول الليل حتى طلع الفجر والإمام أحمد بن حنبل مشغول بذكره وعبادته. فلما أصبح الصبح قالت ابنة أحمد لأبيها: رأيتك تعظم الإمام الشافعي وما رأيت له في هذه الليلة صلاة ولا تسبيحاً ولا ذكراً ولا ورداً وبينما هما يتحدثان دخل عليهما الإمام الشافعي فقال له الإمام أحمد: كيف كانت ليلتك؟ قال: ما رأيت ليلة أبرك منها ولا أطيب ولا أربح فقال الإمام أحمد: وكيف كان ذلك؟ قال: لأني تبت في الليل مائة سألة وأنا مستلق على ظهري كلها في صالح المسلمين ثم ودعه الشافعي وانصرف. فقال الإمام أحمد لابنته: هذا الذي عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته الليلة وأنا قائم.

إن المسلمين في العهد الحاضر أصبحوا محتاجين إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم أولاً ثم بدينهم ثانيا لقد كانوا قوة إيجابية تعطى العالم ما هو محتاج إليه من الحرية والعزة والكرامة والعدالة والمساواة والحضارة فأصبحوا كماً مهملاً وعبئًا ثقيلاً على الحياة والأحياء ولم يعد معهم ما يمثلهم ويمثل دينهم في المجتمع الدولي.

إن المسلمين في العهد الحاضر ـ عهد التقليد والتبعية ـ صاروا على هامش الحياة ولا شيء عندهم من الحضارة والعلم سوى ما يطلع به الغرب عليهم بين حين وحين من «الموديلات» في المأكل والشرب والملبس وقد وصلوا إلى درجة التقليد للغرب في كل نظام الحياة في كل ما يرسله إلينا من أرجاسه وأنجاسه وصاروا مستعدين لتلقف أي موضة جديدة حتى ولو كانت أعمال الوضوء وفروضه تلك التي قال الله في شأنها ضمن آيات الكتاب العزيز ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾ (المائدة: 6)، وكانت عملاً وعبادة عند المسلمين فلو أن أحد الكتاب الأجانب طلع على العالم بمقال ضاف في صحيفة ما من الصحف وحدثنا عنها وقال في حديثه: استطاع أحد الأساتذة المتخصصين في الثقافة الصحية اكتشاف طريقة جديدة للقضاء على الميكروب الذي يأتي مع الغبار إلى الأعضاء المكشوفة من الجسم وتقضي هذه الطريقة الجديدة بغسل كل الأعضاء المكشوفة وتدليكها في اليوم

خمس مرات أو ست وهو نفس ما تنادى به الآية الكريمة .

أقول : لو قيل هذا فى صحف الغرب لتلقفناه على أنه كشف جديد واختراع حديث ووجدنا صحفيين من بنى جلدتنا يروجون له ويكتبون فى شأنه ويسودون الصفحات الكبيرة الواسعة مبينين فضله ومادحين مكتشفه وصار حديث الساعة وكأنما قامت الدنيا وقعدت وكأنما كانت فى حاجة إليه من قبل ومنذ أيام بعيدة وأمد طويل .

فمتى يستيقظ المسلمون من غفلتهم؟ ومتى يعودوا إلى دينهم؟



هذه مساجدنا

هذه مساجدنا بيوت يحفها الجلال ويلفها الكمال ويغلفها الوقار ويجللها الخشوع تتنزل فيها الرحمة وتغشاها السكينة إن رأيتها أخذت بخشوعها ورهبتها وإن دخلتها وجدت طهارتها وقدسيتها مأوى العاشقين وموئل الذاكرين وملجأ الخاشعين وملاذ العابدين ومهوى فؤاد الصالحين . قال الله تعالى : **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** (النور : 36-38) .

هذه مساجدنا تجمع الناس مرات عديدة فى كل يوم على روحانية النفس وخشوعها وعلى براءة القلب وطهارته وعلى سلامة الصدر وإخلاصه ولا يدخلها الناس إلا طاهرين منزهين واضعين على أجسامهم الوضوء شعار الطهر والنظافة والنقاء والنور والبهجة والضياء وكأنما يغسلون آثار الدنيا عن أعضائهم ثم يستوون جميعا فى المسجد استواء واحداً ويقفون موقفاً واحدًا ويخشعون خشوعاً واحدًا ويعبدون رباً واحدًا ويخرون جميعاً ـ وفى لحظة واحدة ـ ساجدين لرب العالمين فليس لرأس على أخرى ارتفاع وليس لوجه على وجه تمييز ومن ثم فليس لذات على ذات سلطان وليس لنفس على نفس أمر فالجميع فى ساحة الرحمن سواء وهل تحقق الإنسانية وحدتها فى الناس بأبدع من هذا النظام ولعمرو الحق لن يجد العالم صوابه ورشده ولن تجد الإنسانية صلاحها واستقامة أمرها إلا فى مساجدنا ، قال الله تعالى : **﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾** (الأعراف29-30) .

فتوجهوا عباد الله إليه فى كل صلاة إلى القبلة فى أى مسجد كنتم ووحدوه ولا تشركوا به شيئا .

ومن هنا كانت التحية لها واجبة والارتباط بها أوثق فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ «**إذا كنتم فى المسجد فنودى إلى الصلاة فلا يخرج أحدكم حتى**

يصلى». وعن أبى الشعثاء قال: خرج رجل من المسجد بعدما أذن فيه فقال أبو هريرة: أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ وقال الترمذى: على هذا العمل عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ ومن بعدهم ألا يخرج أحد من المسجد إلا من عذر أن يكون على غير وضوء أو أمر لابد منه» ويروى عن إبراهيم النخعى أنه قال: «يخرج ما لم يأخذ المؤذن فى الإقامة وهذا لمن له عذر فى الخروج منه» وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه».

هذه مساجدنا بيوت الله فى أرضه جعلت لتكون أماكن صلاة وعبادة وذكر وخشوع وتسبيح واعتكاف ومدارسة للقرآن وتعليم لأحكام الله فلا يعبد فيها إلا الله ولا يتردد فيها إلا اسمه وكلامه ومن أجل ذلك نسبها ربنا إلى نفسه فى جملة من آيات الكتاب العزيز فقال تبارك وتعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾(الجن: 18) وقال عز شأنه: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾(التوبة: 18) وقال عز شأنه: ﴿ **وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ** ﴾ (البقرة: 187)، قال الإمام القرطبى: أجمع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى المسجد لقول الله تعالى : ﴿ **فِي الْمَسَاجِدِ**﴾ (البقرة: 187) ، وقال الإمام النووى: ينبغى للجالس فى المسجد لانتظار صلاة أو اشتغال بعلم أو بشغل آخر أو بغير ذلك من طاعة ويباح أن ينوى الاعتكاف فإنه يصح عندنا وإن قل زمانه» وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: قال الله تعالى: «**إن بيوتى فى الأرض المساجد وإن زوارى فيها عمارها**» وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إنما هى «المساجد» لذكر الله عز وجل وقراءة القرآن» وقال ابن كثير فى تفسيره: هى المساجد التى هى أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهى بيوت الله التى يعبد فيها وحده» وقال الإمام أحمد بن حنبل: لا أرى الرجل إذا دخل المسجد إلا أن يلزم نفسه الذكر والتسبيح فإن المساجد إنما بنيت لذلك وللصلاة».

فلا يذكر فيها إلا اسمه ولا يتردد فى جنباتها إلا وحيه وكلامه ولا يسأل فيها إلا عن هداه وشرعه. عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمع قوم فى**

بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» .

قال العلامة النووى : فى الحديث فضل الاجتماع على تلاوة القرآن حتى بالمسجدوعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال : يا أهل السوق ما أعجزكم؟قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال : ذاك ميراث النبى ﷺ يقسم وأنتم ها هنا ألا تذهبون وتأخذون نصيبكم منه . قالوا : وأين هو؟ قال : فى المسجد فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم : ما لكم؟ فقالوا : يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئاً يقسم . فقال أبو هريرة : أو ما رأيتم فى المسجد أحداً؟ قالوا : بلى رأينا قوماً يصلون وقوماً يقرأون القرآن وقوماً يذكرون الحلال والحرام، وفقال لهم أبو هريرة : ويحكم فذاك ميراث رسول الله ﷺ .

وكان النبى ﷺ يعلم الناس فى المسجد أحكام دينهم ويصلهم بربهم عن طريق التوجيهات النبوية التى تعهدهم بها، روى مسلم والنسائى والإمام أحمد عن أبى مسعود قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبادة . فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك فكيف نصلى عليك؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أن لم يسأله ثم قال رسول الله ﷺ : **«قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد»** .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على النبى ﷺ فقال : **«ارجع فصل فإنك لم تصل »** فرجع فصلى كما صلى ثم جاء فسلم على النبى ﷺ فقال : **«إرجع فصل فإنك لم تصل »** فرجع فصلى كما صلى ثم جاء فسلم على النبى ﷺ . فقال : **«ارجع فصل فإنك لم تصل ثلاثا»** فقال : والذى بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمنى . فقال : **«إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها»** .

هذه مساجدنا دور للشورى، وأماكن للفتوى وهى دور للقضاء والفصل بين

المتنازعين وهى مدارس للثقافة الحرة والتربية والتعليم قصد إليها العام والخاص، والغنى والفقير، والصغير والكبير، والرجل والمرأة على السواء، روى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد بعث إلى الإمام مالك ـ رحمه الله ـ يستحضره فلما حضر الإمام مالك قال له هارون الرشيد: يا أبا عبد الله ينبغى أن تختلف إلينا حتى نسمع منك ويسمع صبياننا الموطأ فقال الإمام مالك: أعز الله أمير المؤمنين إن هذا العلم من بيتكم قد خرج فإن أنتم أعززتموه عز وإن أذللتموه ذل، وإنى أرى أن العلم يؤتى إليه ولا يأتى إلى أحد فقال الرشيد: صدقت. ثم قال لابنيه الأمين والمأمون: اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس فقال الإمام مالك: بشرط أن يجلسا حيث ينتهى بهما المجلس» فقبل الرشيد ذلك.

هذه مساجدنا دور لتوثيق عقود الزواج، ومكان للإغاثة وقت الشدة، ومنزل للرعاية الاجتماعية الصحية فقد كان الرسول الأمين وأصحابه المخلصون يتشاورون فيما بينهم فى الشئون الخاصة والعامة بين جدران المسجد وأطلقت منها الفتاوى مشرقة وضاءة تضىء الطريق أمام الحيارى والضالين. روى البخارى عن أنس بن مالك ﵁ يقول: بينما نحن جلوس مع النبى ﷺ فى المسجد دخل رجل على جمل وأناخه فى المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ والنبى ﷺ متكىء بين ظهرانيهم. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء فقال له الرجل: أبن عبد المطلب؟ فقال له النبى ﷺ: «**قد أجبتك**» فقال الرجل للنبى ﷺ: إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد على نفسك فقال: **سل ما بدا لك**. أسألك بربك ورب من كان قبلك الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: **اللهم نعم**. قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: **اللهم نعم**. قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر (رمضان) من السنة؟ قال: **اللهم نعم**. قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فنقسمها على فقرائنا؟ فقال النبى: **اللهم نعم**. فقال الرجل: آمنت بما جئت وأنا رسول من ورائى من قومى وأنا ضمام ابن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر».

هذه مساجدنا اتخذ منها الرسول الأمين أماكن للثقافة والتربية والتعليم فوجد فيها كل شخص ـ كبر أو صغر ـ ما يروى ظمأه ويرضى نفسه من ألوان الثقافة والعلم

وقضى فيها بين المتخاصمين وفصل فيها بين المتنازعين، قال الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ (ص: 21-22) ، قال القرطبي : ليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآيات .

وكان النبي الأمين والخلفاء الراشدون من بعده يقضون في المسجد فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إني زنيت . فأعرض عنه . فلما شهد على نفسه أربعا . قال : «**أبك جنون؟**» قال : لا ، قال : «**اذهبوا فارجموه**» قال ابن شهاب : فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه بالمصلى» .

وكانت مساجدنا دوراً لتوثيق عقود الزواج استئناساً بقول النبي ﷺ : روى الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : «**أعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد ،واضربوا عليه بالدفوف**» .

ومن المسجد وفي وقت الحرب والسلم جعل الرسول مكاناً لإغاثة المصابين وتمريضهم وتوزيع الصدقات على المحتاجين والتفريج عنهم . عن عثمان بن اليمان قال : لما كثر المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوى أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد وسماهم أصحاب الصُفة وكان يجالسهم ويأنس بهم» .

ومن المسجد خرجت الكتائب الأولى التي خرجت تغزو باسم الله وتشيع في الدنيا العدالة الاجتماعية والكرامة والحرية بين الشعوب وتحطم أمامها تلك الحواجز والعقبات التي صنعتها عصابات الظلم والجبروت ، فأدت بذلك للإنسانية خير الخدمات وأجل التضحيات .

هذا هو الدور الذي أدته مساجدنا ـ مازال في الإمكان أن تؤديه ـ لو أحسنا الانتفاع بها وأعدنا إليها قدسيتها واحترامها وحافظنا على الهدوء والسكينة فيها .

أرأيتم إلى النيل ينساب جنوباً في أرضنا وشمالاً يروي الظماء ، ويسقي العطاش ، ويشيع في الوادي الخصيب الخضرة والنضرة ، والحياة والبهجة؟ إن هذا قد حدث له مثيل في مساجدنا .

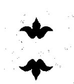
أرأيتم إلى الحضارة الإسلامية الرائعة، التي جمعت بين الجسم والروح في وحدة، وربطت بين الدنيا والآخرة في ربقة، وقضت على حضارات أخرى لم تستطع أن تساير حياة البشر؟

لقد خرجت هذه الحضارة الإسلامية الرائعة يوم خرجت على العالم من مساجدنا، طلعت على العالم من مساجد مكة والمدينة، وبغداد وقرطبة والقاهرة والشام وخراسان، طلعت حضارتنا على الدنيا، كما تطلع الشمس بعد ليل طويل مظلم، فتبعث في الحياة الحرارة والدفء والعمران.

هذه مساجدنا إحدى دعائم ثلاث: يقوم عليها بناء المجتمع المسلم الفكري والعقيدي والثقافي والعلمي فهي مع البيت بصحبة الوالدين وهي مع دور العلم والتعليم يتكون المجتمع الحضاري المتقدم.

في المسجد تتكون العقيدة السليمة للفرد فينشأ عن طريق الخطب والدروس والتوجيهات مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن هنا كان الذهاب إليها طريق النور والهداية والقوة وهذا معنى حديث الرسول ﷺ: « **بشر المشائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنور المبين يوم القيامة** » وحدث الصحابي الذي كان يسير مسافة كبيرة إلى المسجد حين أشار عليه بعض الصحابة أن يشتري حماراً يركبه فقال: إني أحب أن يكتب الله لي أجر ممشاي إلى المسجد ورجوعي إلى أهلي منه فبلغ ذلك رسول الله فقال: « **إن الله قد فعل لك ذلك** » وكان بناؤها طريق إلى الجنة لقد قال ﷺ: « **من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له به قصراً في الجنة** ».

هذه مساجدنا بيوت الله لا يصح بيعها ولا شراؤها ولا امتلاكها أو الاعتداء عليها ولا هدمها إلا لإعمارها حتى تؤدي رسالتها فكانت المحافظة عليها ورعايتها واحترامها سبب الإيمان واليقين.



حزب الله المفلحون (1)

إذا رأيتم إنساناً يتورع عن الشبهات ، ويبتعد عن الدنايا والخطيئات ، ويعمل عمل الصالحين ، ويخشى الله ويتقيه وينأى بنفسه عن كل ما يعيب المرء ويشينه ، فاحكموا له بالإيمان ، واعرفوا له أنه قد صار من حزب الله المفلحين .

ولأهل الله وحزبه صفات ذكرت فى كتاب ربنا ، وبينت فى سنة رسولنا ، وعمل بها المسلمون الأولون ، فجنوا ثمارها ، واستمتعوا بآثارها ، ونحن ذاكرون لكم بعض هذه الصفات وأهمها ، لتكون مرشداً إلى غيرها ، وهادية إلى الطريق المستقيم يقول الله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: 177) .

والإيمان المطلوب هو الإيمان بكل ما أمر الله أن نؤمن به ، الإيمان الذى يترتب عليه السمع والطاعة ، والخضوع لله ولرسوله ، الإيمان بالدنيا والآخرة ، الإيمان بعالم الغيب والشهادة ، الإيمان بالرسالات والديانات ، بالأنبياء والمرسلين ، بالخير والحق والعدل والكمال ، جاء وفد إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك ، وموسى والتوراة والعزيرُ ، ونكفر بما سواه . فقال : «**بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله**» فقالوا : لا نفعل . فنزل قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ (النساء: 136) .

والإيمان المنجى لصاحبه هو الذى لا يشوبه شرك ، ولا يُعكر صفاءه رياء أو نفاق ، ويتسامى على الغرور والضلالات ، ويعلو فوق حطام الدنيا وشهواتها ، لما نزل قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: 82) ، شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لا يظلم

نفسه . فقال : «إنه ليس كما تظنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ـ لقمان ـ لابنه وهو يعظه ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: 13) ، إنه الشرك» .

هؤلاء هم حزب الله أولئك الذين شغلوا أنفسهم بطاعة ربهم وجعلوا رضاه غايتهم، ومحبته فوق كل شيء، وصحبته فوق كل أمر، يقفون بين يديه خاشعين متبتلين ويزورونه في بيته ذاكرين له ومتعبدين ، يقومون والناس نيام، ويعرفون ربهم والناس في غفلة ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور: 36-38) .

وحزب الله هم أصحاب القلوب الكبيرة، والعقول المستنيرة، والصفات القويمة، والأعمال المجيدة، والأخلاق الكريمة . قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: 19-22) .

وحزب الله هم الذين شرفهم ربهم بالانتساب إليه مبيناً صفاتهم التى تحلوا بها وأعمالهم التى عملوها، ومآثرهم التى جبلوا عليها ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ ثم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ﴾ ثم ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: 74;63) .

وحزب الله هم أصحاب الهمة العالية في جهاد العدو ومدافعته يدفعون بغيه ويردون ظلمه ويستمدون منه ثروتهم التي أخذها منهم ويأخذون ديارهم التي طردهم منها، غير متكبرين ولا معتدين، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى: 39)، ولهم على ذلك ثواب الله والنعيم المقيم في الآخرة والنصر المؤزر على الأعداء في الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111).

وحزب الله هم المتعاونون على الخير، المتحابون عند اللقاء، المتراحمون عند الشدائد، المقيمون للصلاة، المؤتون للزكاة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 71).

وحزب الله أناس وثقت نفوسهم بما عند الله، واطمأنت قلوبهم إلى كرمه ورضاه، فلم تنل منهم هموم الدنيا وغيومها شيئا، واستوت عندهم الضراء والسراء، وبقيت نفوسهم على سلامتها في حالتي الأحزان والأسقام، فكان لهم من أجل ذلك، صفاء القلب، ونقاء الروح، والصبر على صروف الأيام وأحداثه، وكوارث الدهر وأرزائه، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج: 22:19).

وحزب الله هم المتقون، الذين أحبهم ربهم، وادَّخر لهم في الدار الآخرة ما يسعدهم، جزاء على ما عملوا في الدنيا، فلما أحسنوا في الدنيا أعمالهم، وغلبت محبة الله على قلوبهم، وظهر أثر ذلك في أعمالهم وأقوالهم، كانوا أهلاً لمحبة ربهم، ورضاه عنهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: 19:15).

وبعد، فماذا أقول عن حزب الله؟ هم الذين أفاض الله عليهم بره وحنانه، وأسبغ عليهم فضله ورضوانه، فجعل لهم سعادة الدنيا وفلاح الآخرة ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ

اللّه هُمُ الْمُفْلحُونَ﴾ (المجادلة: 22:19) ، كما كتب لهم التمكين في الأرض، والحياة الآمنة المستقرة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا﴾ (النور: 55) .

وقربهم إليه وأشعرهم بسعادة حبه لهم ورضاه عنهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: 96) ، وأيدهم بالتوفيق والنصر على الأعداء فى ميادين القتال ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: 171-173) .

ووفر لهم الحياة الطيبة، والأجر الجزيل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 97) ، وتتلقاهم الملائكة بالبشريات العظيمة عند انتهاء الحياة وإقبالهم على ربهم ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم﴾ (فصلت: 30-32) .

وأخيراً أكرمهم الله فى الجنة فجعل لكل منهم مكانة وأعطاهم حقهم غير منقوص وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: 26) .



حزب الله المفلحون (2)

هنا نعيش مع حزب الله المفلحين ـ للمرة الثانية ـ لنرى كيف حرص المرسلين على تكوينهم وتجميع أهل الصلاح والتقوى، وتربيتهم وتعليمهم، وسنرى أن منهج المرسلين معهم لم يتعد القدوة الطيبة، والموعظة الحسنة، بالتربية الهادئة الهادفة .

لما أرسل الله نوحاً ﷺ إلى قومه سار فى طريق الدعوة بالحسنى، فنبه الغافل، وعلم الجاهل، دون عنت أو إكراه، كما حكى القرآن عنه فقال على لسانه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: 10:12) وذلك ما جرى مثله على لسان هود ﷺ حينما قال لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: 52) .

ولما أرسل الله رسوله صالحاً ﷺ إلى قومه، كان منهج المرسلين من قبله رائده، وكأننى به وهو يوجه إليهم هذه النصائح الغالية، أنظر إلى رجل هادىء وديع يحرص الحرص كله على هداية قومه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (الشعراء: 143-152) .

وفى مجلس من مجالس الدعوة والإرشاد، وجه ابراهيم ﷺ هذه النداءات الرحيمة إلى أبيه، حتى يعود إلى رشده، ويترك عبادة الأوثان وغيرها من المعبودات الباطلة ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مريم: 44-45) .

وها نحن أولاء نقف أمام العبد الصالح شعيب ﷺ، وهو يعلم قومه حينما رأى منقصة تفشت فيهم، وطغت على كل ما عداها من الخصال القبيحة حتى عرفوا

بها وذاعت عنهم بين الأمم فقال لهم هذه النصائح الغالية ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (هود: 84-86).

وسار المرسلون في هذا المنهج السديد حتى جاء خاتمهم محمد ﷺ فسار على طريقهم واتبع نهجهم وأدب برسالته القلوب النافرة وجمع النفوس الحائرة وكان لهم رحمة مهداه ونعمه مسداة وذلك ما تحدث به الكتاب الكريم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: 2)، وقد بينت آية أخرى منهج النبي محمد وفصلته تفصيلاً شاملاً لحياة الإنسان الدنيوية والأخروية ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: 157)، وذلك ليكون الرسول الأمين على شرع الله، والنبي الذي تنتظره الإنسانية ليحولها من حال إلى حال من تأخر إلى تقدم من ظلمة شديدة إلى نور وضاء ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (الأعراف: 157)، وذلك في الناحية الإجتماعية ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: 157)، وذلك في الناحية الأسرية والعائلية والمعاشية ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: 157)، وذلك في الناحية الدينية وغيره مما جعل من الرسالة الإسلامية منهاج أمة ودستور جماعة ونظام حياة، وما جعل الرسول نفسه بين منهجه الإصلاحي لتربية الأمة فقال: «**إني لم آتكم إلا بخير أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات، وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا من أموال أغنيائكم، فتردوها على فقرائكم**» وفتح باب الأمل أمام الأمة ومجد القوة، وندبهم إليها، ودفع عنهم اليأس والقنوط «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك**

واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا أو كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

والله تعالى حفظ المصلحين، فأمدهم بعنايته، وأيدهم بنصره، فلما تمرد قوم نوح ﷺ وعثوا واستكبروا استكبارا ولم تنفعهم النصيحة كان أمر الله لنوح ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾(هود: 37) ، وكان ما كان من أمر الطوفان الذى أغرقهم جميعاً ولم يبق منهم أحدًا ﴿**رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ (نوح: 26) .

وهؤلاء قوم إبراهيم ﷺ يتآمرون عليه واستقر الرأى فى النهاية على إلقائه فى النار قائلين ﴿**حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء: 68) ، فنزل عليه جبريل فى هذه اللحظة الحاسمة وقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا وأما إلى الله فهو أعلم بحالى وغنى عن سؤالى، حسبى الله ونعم الوكيل» عندئذ كان أمر الله للنار ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾ (الأنبياء: 69-70) .

وحينما أدرك سحرة فرعون بعلمهم أن ما صدر من موسى لم يكن من جنس سحرهم وإنما هو أمر آخر لا يدركون كنهه ولا يعرفون علمه، أيقنوا أنهم كانوا مخطئين، ولن ينجيهم من غضب الله وسخطه إلا عودتهم إلى الله فآمنوا بالله قائلين : ﴿**آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ**﴾ (الأعراف: 121-122) ولما قال لهم فرعون: ﴿**آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾(الشعراء: 49) ، قالوا له: ﴿**قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ (طه: 72-73) ، قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة فصاروا آخره شهداء بررة» .

ولما آمنت امرأة فرعون واطلع زوجها على إيمانها قال للملأ حوله: ما تعلمون من «آسية بنت مزاحم» فأثنوا عليها فقال لهم «إنها تعبد غيرى» فقالوا له: اقتلها فأوتد لها أوتاداً وشد عليها يديها ورجليها فدعت آسية ربها فقالت: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي**

عندكَ بَيْتًا فى الْجَنَّة وَنَجّنى من فرْعَوْنَ وَعَمله وَنَجّنى منَ الْقَوْم الظَّالمينَ﴾ (التحريم: 11)، وضحكت حين رأيت بيتها فى الجنة ووافق أن حضرها فرعون وهى تضحك فقال فرعون ألا تعجبون من جنونها، إنا نعذبها وهى تضحك فقبض الله روحها فى الجنة ـ رضى الله عنها ـ.

وعناية الله لرسوله محمد بلغت الغاية العالية فحفظه من كل سوء ودفع عنه كل مكروه قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وسفه احلامكم وسب آبائكم إنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا عليه ﷺ كما كان يغدو إلى صلاته وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل فلما سجد ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعاً لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقال إليه رجال من قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى فلما ذكر ذلك لرسول الله قال: «**ذاك جبريل ولو دنا منى لأخذه**»

وروت كتب السيرة أن الرسول حين ذهب إلى ديار بنى النضير ليستعينهم فى دية العامرية أظهروا له الرضا وأرادوا الغدر به وقال بعضهم لبعض: من رجل يعلو سطح هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه وبينما الرسول جالس تحت الجدار أطلعه الله على ما نووا عليه فأسرع راجعاً إلى المدينة ومعه بعض أصحابه فأنزل الله قوله: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نعْمَتَ اللَّه عَلَيْكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمنُونَ﴾** (المائدة: 11).

واليوم ونحن نواجه أعداء الله والإنسانية الذين سلبوا خيراتنا وأخذوا ديارنا جدير بنا أن نتخلق بأخلاق القوم فنصبر صبرهم ونجاهد جهادهم ونحيا حياتهم لا ترهبنا قوة العدو مهما كانت، ولا تخيفنا أسلحته مهما بلغت.

جدير بنا ونحن نحارب عدوًا جباراً أن نأخذ من تاريخنا العربى عدتنا لكسب المعركة وأن نستلهم من كفاح العروبة دروس البطولة والتضحية والعدة والمنعة.

جدير بنا وقد تعرفنا على الصفات العالية الحميدة أن نتصف بها ، وأن نسير على نهجها ، لنفوز بالفوز الذى فازوا ونحرز الذى أحرزوه ونعيش حياة الحرية التى وصلوا إليها والله ولى المؤمنين .



دعاة الشيطان المفسدون

ودعاة الشيطان المفسدون هم الكافرون بالله ورسله المتمردون على الشرائع والرسالات المكذبين بالمبادىء والمثل العليا، المنصرفون عن الحق مهما كانت البواعث الداعية إليه المتعنتون ضد المصلحين فى كل مكان وعصر فلم يستمعوا لهم ولم يعملوا بتوجيهاتهم وتركوا النصح والتوجيه والإرشاد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: 6-7) ، قال ابن عباس تعليقاً على هذه الآية: طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير يعنى أن الله طبع عليها فجعلها لا يخرج ما فيها من الكفر ولا يدخل إليها ما ليس فيها من الإيمان».

وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة إذ تتحدث عن نفور دعاة الشيطان وحزبه من كل ما يتصل بالحديث عن الله ووحدانيته ووجوده وقيامه على أمر الكون ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر: 45) .

من صفات دعاة الشيطان المفسدين: نفورهم من كل ما يذكرهم بتعاليم الله واستهزاؤهم بشرائعه ودينه واعتداؤهم على مقدساته، وتكذيبهم بالبعث والنشور وغير ذلك مما هو خفى ومستور عن العيون من عالم الغيب فقد أخرج البخارى ومسلم عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً حداداً وكان لى على العاص بن وائل السهمى دين فأتيته أتقاضاه فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (مريم: 77-84) .

والعاص بن وائل السهمى هو واحد من كثيرين ممن اعتنقوا الوثنية فى قديم

الزمان وحديثه فينكرون عقيدة البعث والنشور وما سواها مما وراء الطبيعة . وقالوا : إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر على نحو ما تحدث القرآن عنهم ومن أمثاله فقال تعالى : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية : 24) .

هذا دأب الملحدين فى كل زمان ومكان وإن حملت دعواهم أسماء مختلفة فهناك فى القديم الدهرية وهنا فى الحديث الإلحاد تحت ستار العلم ، وهنا الوجودية تحت ستار الحرية العلمية ، وهنا الخنفسية تحت ستار الحرية الشخصية وهكذا برز الكفر فى صوره المختلفه حاملاً أسماء ما أنزل بها من سلطان ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ (النجم : 23) .

ومن صفات دعاة الشيطان المفسدين موقفهم الصريح الواضح من النبى محمد ذلك الموقف الذى انطوى على العداء والتكذيب والسخرية والقتال والاستهزاء طيلة عشرين عاماً صاروا خلالها يدبرون المؤامرات ويذيعون الإشاعات بغية صرف الناس عن دعوة الحق ومازال الكذابون فى كل جيل وعصر يصدون الناس عن سواء السبيل ويبغونها عوجاً ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾

(الفرقان : 4-8) .

وكما سلكوا مسلك السخرية والحرب تجاه رسول الله فإنهم سلكوا مسلك التشويش والتشويه تجاه وحى الله وهداه لطمس معالمه وضياع أوامره وإسكات صوته ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت : 26) .

وقد شرح القرآن موقف دعاة الشيطان فى أيام الشدائد والمحن والأزمات فهم ـ أولاً ـ مع أعداء الأمة دائماً يحرضونهم على حربها ويعملون على الكيد لها

ويتمنون الضرر والإيقاع بها : ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (النساء: 141-143) .

ومن جرأتهم على الحق واعتدائهم على الحرمات أنهم يعدون الأعداء بالنصرة والمساعدة كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر: 11:13) .

وهم ـ ثانياً ـ يجبنون عن القتال أمام الأعداء ويقعدون عن الجهاد بالنفس والمال ولا يلبون نداء التضحية والبطولة ولا يعرفون طريق البذل والإنفاق بل ويحرضون غيرهم على القعود عنه ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: 81) .

وتعبير الله عنهم من سورة التوبة كان في غاية الدقة والوضوح كما كان على جانب كبير من السخرية والذم ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ (التوبة: 87:86) ، والخوالف جمع خالفة وهي النساء يكن في البيوت قاعدات ، ومعنى قول الله على ذلك أنهم قبلوا أن يعيشوا مع النساء حياة النعومة والطراوة والضعف والانحلال بعدا عن خشونة الرجال وشجاعتهم وإقدام الأبطال ومروءتهم .

وهم ـ ثالثاً ـ حرصوا على أموالهم وأنفسهم فتخلفوا عن الجهاد وجبنوا عن

القتال وارتضوا حياة الذلة والمسكنة فاستحقوا بذلك . غضب الله ومقته وعذابه وسخطه وضياع استقلالهم وأمنهم وفقد حريتهم وكرامتهم .

وقد عادت آية من سورة التوبة لتتحدث عنهم للمرة الثانية بأنهم قبلوا هذه الحياة الضعيفة الذليلة ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: 93) .

ومن هنا ركب الشيطان رءوسهم وعشش في عقولهم وحرص على إضلالهم وإغوائهم وسول لهم الشر والإثم ولم يدع لهم فرصة يراجعون فيها أعمالهم شأنه في ذلك شأنه مع البشرية من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة لا يعتريه يأس في الإغواء ولا ملل والناس مع هذا لا يدركون خطره ناسين قوله لربنا تعالى : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: 16-18) .

ومن عجب أن الناس غافلون عن فعله مع آدم مما ترتب عليه خروجه من الجنة وحرمانه من النعيم فيها وسينالهم أمره إن لم يبتعدوا عن وساوسه ونزعاته ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: 6) .

فالواجب أن يتخذ الشيطان وأتباعه أعداء فلا يؤمن جانبهم لأنهم لا يفتأون يزينون الغواية والضلالة والشر والفساد ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 121) .

ولايزال إضلال الشيطان لأتباعه وإغواؤه لهم يزيد وينمو ويكثر ويعظم ويتسع ويتتابع حتى يهلكهم ويزيدهم ويفسد عليهم دنياهم وأخراهم ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصلت: 25) .

وهذه صورة من صور الإهلاك الشيطاني قام بها إبليس مع قريش حينما ذهبوا

لحرب رسول الله فى غزوة بدر فتمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك فتبدى لهم فى جماعة من الشياطين ومعه دابة الحرب وسار معهم حتى وصلوا بدرا ولما التحم الجمعان ورأى الملائكة نزلت مع المؤمنين فى ساحة القتال نكص على عقبيه فقال له الحارث بن هشام: أتخذ لنا فى هذه الحالة يا سراقة؟ فقال الشيطان: إنى أرى ما لا ترون وانتهت الغزوة بهزيمتهم ثم رجعوا إلى مكة وقالوا: هزم الناس سراقةُ فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: 48).

وينبهنا القرآن الكريم إلى أضرار هذه التبعية للشيطان فى حياة الأفراد والجماعات والأمم والشعوب فنها يتها الحرمان وعدم الاستقرار ونتيجتها ضياع العزة والاستقلال وعاقبتها فقدان الأمن والسلام ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة: 19,18).

وإليكم تأريخ القرآن لحياة العصاة الذين أضلهم الشيطان منذ قديم فبين مصيرهم مما كانوا به مثلاً للأولين وعبرة للآخرين، أين قوم نوح؟ ابتلعتهم مياه الطوفان وذهبوا ملعونين ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 44)، بل أين قوم هود ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: 8:6)، وأين قوم صالح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: 50-51).

أين قوم لوط وإبراهيم؟ طواهم الردى وأهلكهم العصيان كما فعل بالمكذبين من قبل ما ظلمهم الله شيئا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وأين قوم موسى وقوم

شعيب؟ جرى عليهم ما جرى على السابقين ممن عصو ربهم.

إن عصاة المشركين من أهل مكة حينما ناوأوا رسول الله وسخروا من دعوته جرعتهم القدرة الإلهية كئوس الردى والهزيمة فصاروا بذلك عبرة للآخرين ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: 96).

إن حياة العصيان والفجور لن تنبت إلا الشر ولن يجنى ثمرة هذا الشر إلا مجتمع غفل عن تعاليم الله ولن يضر بذلك إلا نفسه ولن يضر الله شيئا ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 97).

صفحات من تاريخ المرأة المسلمة

كانت مدرسة الإسلام مدرسة كبرى رائدة فى نواحى التربية والتأديب والتثقيف والتهذيب وسعت الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم رجالاً ونساء صغاراً وكباراً أغنياء وفقراء وقد وجدت المرأة فى شريعة الإسلام وسماحته ما حقق رغبتها فى الكرامة والحرية والحقوق والواجبات فانطلقت هى الأخرى تؤدى واجبها فى أمانة وإخلاص وتلبى نداء التضحية والفداء بصبر واحتمال وتقوم بدورها فى المجتمع خير قيام وشهدت ميادين القتال والفداء والتضحية وأماكن البيع والشراء المسلمة بجوار المسلم يتعاونان على رفع راية الدين الحنيف وبناء الأمة العادلة التى ستكون خير أمة أخرجت للناس تحقق شريعة الله وتنشر تعاليم رسول الله ، ولا غرابة فرائدها قول الله الكريم : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل : 97) ، وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾(آل عمران : 195)، ولا عجب فمعلمها رسول الله إذ يقول : «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**» .

وقد حفظ لنا التاريخ الإسلامى جملة من النشاط النسوى - اجتماعياً ودينياً وحربياً - فعلته النساء فى العصور الإسلامية الأولى فيحكى لنا أن امرأة عجوزا كانت تبيع لبناً فأرادت أن تغش لبنها فتخلطه بالماء وكانت ابنتها واقفة أمامها فقالت لها : يا أماه ألا تخافى أمير المؤمنين فتخلطى اللبن بالماء . فقالت لها : وأين نحن من أمير المؤمنين الآن إنه لا يرانا . فقالت لها : إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا » وصادف فى ذلك الوقت مرور عمر بن الخطاب فسمعها فدخل عليهما الدار وقال للعجوز : من تكون هذه البنت لك؟ فأجابت المرأة : إنها ابنتى فزوجها لابنه عاصم وكان من أحفادها خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز .

وقامت المرأة تسعى لتعرف أمر دينها وتطمئن على مستقبلها فى ظلال هذ الدين فقد وقفت أسماء بنت يزيد الأنصارية عند رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك وبإلهك إنا معشر النساء مقصورات محصورات قواعد بيوتكم

وحاملات أولادكم فإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفنشارككم فى هذا الخير والأجر فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه وقال : «**هل رأيتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها** » فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل ذلك فالتفت إليها رسول الله وقال لها : « **افهمى آيتها المرأة واعلمى من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله**» فانصرفت المرأة وهى تتهلل حتى وصلت إلى نساء قومها وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله ففرحن جميعهن .

ولئن حصل هذا فى نواحى المجتمع وفى أماكن البيع والشراء وإنه لكثير وحصلت منه المرأة على نصيب موفور فإن ميادين الكفاح والجلاد والبطولة والتضحية شهدت من المرأة العربية المسلمة أسمى وأروع ما وعاه تاريخ أمة من الأمم لأبنائها وها نحن أولاء نرى «أم أيمن بركة الحبشية» سبقت إلى الإسلام وهاجرت الهجرتين وشهدت غزوة بدر وأحد، ونرى الفريعة بنت مالك أخت أبا سعيد الخدرى والربيع بنت معوذ شهدتا بيعة الرضوان وهى البيعة التى عاهد فيها المسلمون ربهم ونبيهم على الموت فى سبيل الله والتى تحدث فى شأنها ربنا فقال : ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ (الفتح : 18)، وتحدث عن المبايعين فقال : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (الفتح : 10)، ونرى السيدة عائشة والسيدة أم سلمة كما روى عنهما أنس قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سلمة وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانهما فى أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانهما فى أفواه القوم»

وها نحن أولاء نرى صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله تقاتل فى غزوة بنى قريظة فحينما رأت أحد اليهود فى غزوة بنى قريظة يطوف بالحصن الذى كان يقيم

فيه النساء والأطفال فى غزوة الخندق أخذت صفية عمود خيمة وتوجهت به إلى اليهودى وسددت إليه ضربات قاتلة أودت بحياته ثم عادت إلى حصنها، وكذلك أم كثير زوجة همام بن الحارث والخنساء حضرتا معركة القادسية مع سعد بن أبى وقاص وأخبرتا أنهما وصواحب لهما قد شددن عليهن ثيابهن وأخذن الهراوى الغليظة بأيديهن ومضين يعالجن الجرحى ويجهزن على من يستطعن من المشركين .

ولا نترك هذا المقام حتى نذكر مثلين آخرين لسيدتين كريمتين من سيدات الإسلام الفضليات أما الأولى فهى «أم خلاد » زوج عمرو بن الجموح خرجت إلى غزوة أحد مع زوجها وأخيها عبد الله وولدها خلاد واستشهد الزوج والولد والأخ فحملتهم هذه الصحابية الجليلة على بعير لها تريد دفنهم فى المدينة فقابلتها فى الطريق عائشة أم المؤمنين فقالت لها : عندك الخبر يا أم خلاد فما وراءك فقالت : أما رسول الله ﷺ فصالح وكل مصيبة بعده هينة واتخذ الله من المؤمنين شهداء فقالت لها عائشة : مشيرة إلى الشهداء ـ من هؤلاء؟ قالت : زوجى وولدى خلاد وأخى عبد الله قالت عائشة : وإلى أين تذهبين بهم؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم هناك وضربت البعير كى يتابع سيره إلى المدينة فما استطاع السير فلما وجهته إلى جهة الميدان تحرك وأسرع وهناك دفنهم الرسول جميعاً وقال لها : « **يا هند ترافقوا فى الجنة عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله** » ففرحت وقالت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى معهم» .

وأما الثانية : فالسيدة المجاهدة «نسيبة بنت كعب الأنصارية» كانت مع بنى قومها فى ليلة العقبة الكبرى ثم خرجت إلى غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم وولديها حبيب وعبد الله ، أى أن الأسرة كلها خرجت تؤدى واجب الوفاء والفداء والمضاء فى سبيل الله ونظر رسول الله ﷺ وهو فى طريقه إلى الغزوة فرأى هذه الأسرة المؤمنة المجاهدة تمضى إلى الميدان فى ثقة ويقين فقال لهم : «**رحمكم الله أهل بيت بارك الله فيكم أهل بيت**» فقالت : يا رسول الله ادع الله أن نرافقك فى الجنة . فقال : «**اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة**» ففرحت نسيبة وقالت : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا بعد ذلك» ونهض المسلمون لقتال المشركين واشتركت معهم نسيبة وقاتلت بشجاعة ومن عجب أنها وقفت تقاتل عمرو بن قمئة فى صفوف المشركين ولما ضربها ضربة شديدة

الغور فى كتفها ضربته ضربات كثيرة ولكن عدو الله كان عليه درعان ووقفت بين يدى رسول الله تدافع عنه بسيفها وتطعن وتضرب حتى قال فى حقها رسول الله : «**ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا رأيت أم عمارة تقاتل دونى**» ولما طعنت نسيبه طعناً كثيرة وسال منها الدم بغزارة نادى النبى ابنها قائلاً : «**يا ابن أم عمارة أمك أمك أعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت مقام أمك خير من مقام فلان وفلان**» وحينما جرح ابنها عبد الله أخذ الدم يسيل منه بغزارةربطت له جرحه ثم قالت له : انهض فضارب القوم فقال لها النبى معجبا : «**ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة** » وبعد ذلك بقليل أشار النبى إلى قاتل زوجها وقال لها : « **هذا ضارب ابنك** » فسارت نحوه وجذبته فى ساقه فوقع على الأرض ثم أجهزت عليه فقال لها النبى : «**الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينيك من عدوك وأراك ثأرك بعينيك**» .

ومضت الأيام تلو الأيام حتى كانت حرب اليمامة ووقع ابنها حبيب فى الأسر وقتله مسيلمة الكذاب فنذرت نسيبة ألا يصيبها غسل حتى تقتل مسيلمة وخرجت إلى معارك اليمامة مع ابنها الآخر عبد الله وكانت حريصة على أن تقتل مسيلمة بيدها ولكن القدر أراد أن يكون القاتل له ابنها عبد الله تقول نسيبة : انقطعت يدى يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة وما كان لى مانع حتى رأيت الخبيث مقتولاً وإذا ابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه فقلت له : أقتلته؟ قال : نعم فسجدت لله شكراً » .

هذه هى أعمال المرأة العربية فى أيامها الماضية فماذا نرى من نسائنا اليوم إننا ننظر فنرى حواجب مزججة وعيوناً مكحلة وثياباً قصيرة وضربا فى أرض الشوارع بالحذاء يسمع صوته من مسافة طويلة ناسيات قول الله تعالى : ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ**﴾ (الأحزاب : 33) ، وقوله تعالى ﴿ **وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ (النور : 31) .

إن المرأة فى عهدها الحاضر شغلت نفسها بالتافه الحقير من الأعمال ونسيت رسالتها الأولى وتعودت عادات مثيلاتها من نساء المستعمرين وقلدتها فى كل شىء تقليداً أعمى فأخذت مساوىء ما عند الأجنبيات وتركت اللباب النافع وهل رضيت عنها المرأة الأجنبية وفرحت بها؟ كلا!!! إننا ننظر إلى الجواب فى الكتاب السابع من

فقه السنة نقلاً عن جريدة الأهرام بتاريخ السابع والعشرين من شهر مارس عام اثنين وستين فذكرت أن صحفية أجنبية حضرت إلى بلادنا لتطلع على عادات المرأة الشرقية وتقاليدها ولكنها حينما حضرت اشمأزت نفسها وقالت : كنت أطمع فى أن أجد المرأة الشرقية بحضارتها الأصيلة ولكنى لم أفرق بين ما رأيته وما هو موجود عندنا فى البلاد الغربية وبذلك تقرر أن المرأة الغربية غير مستريحة لتقليد المرأة الشرقية لها وفى هذا التقليد ما فيه من الأخطار على مستقبلنا لأنها عادات المستعمرين وفى فعلها رضا عن الاستعمار وتسليم له كى يبقى بيننا وإذعان لوجوده فى بلادنا وفى ذلك ضياع لعاداتنا وتقاليدنا ، قال صاحب كتاب « التفكير فريضة إسلامية» : ولعل فيلسوف التاريخ الإسلامى - ابن خلدون - كان أول من نبه المسلمين إلى هذه الخلة فى المغلوبين وعدها من تمام التسليم بالغلبة والهزيمة فوقر فى الأذهان أن محاكاة الغالب فى ظواهره وأشكاله أول عوارض الفناء والتسليم على غير أمل فى الخلاص»

إن المرأة فى عهدها الحاضر قد انحدرت بتفكيرها عن المستوى اللائق بها وحتى النساء اللواتى وصلن إلى مراكز التوجيه وصرن محررات فى الصحف والمجلات مشغولات هن الأخريات بما لا يتصل بحضارة المرأة بسبب مثل مسائل تعدد الزوجات وتقييد الطلاق كأن الرجال تحولوا إلى وحوش أو ثيران يترك الواحد هذه ليعلو أخرى وما فهمن أن ظروف الحياة وتكاليفها كفيلة بمنع التعدد إن وجد وكان أحرى بهن أن يقفزن بالمرأة نحو حضارة راقية ومكانة سامية وتربية عالية وبيت سعيد بدلاً من الاشتغال باللهو والعبث .

إن المرأة فى عهدها الحاضر تستطيع بما أتيح لها من تعلم وبما أعطى لها من مناصب فى مجتمعنا أن تطور حياة مثيلاتها متعاونة مع الرجل فى هذه الناحية فهل فعلت المرأة ذلك؟ كلا فقد نشرت جريدة الجمهورية على صفحتها الأخيرة فى يوم الأحد الثانى عشر من شهر يناير عام تسع وستين مقالاً لأحد محرريها تحت عنوان «كيف وصل هذا البرنامج إلى شاشة التليفزيون» مؤداه أن أحد الأعيان فى مدينة ما أراد أن يسخر من أحد أصدقائه الفقراء أو يعمل معه أضحوكة فدعاه إلى تناول الطعام معه فى نادى المدينة الفاخر وهو يعلم سلفاً أن صديقه ليس معه نقود يدفعها

للجرسون وبعد تناول الطعام تركه للجرسون وخرج وهنا تبدأ السخرية أو الأضحوكة بعد الاتفاق مع مذيعة برنامج «الكاميرا وراءك» أن تكون موجودة وبدأ المشهد منظر رجل مسن بسيط يتذلل للجرسون أن يعفو عنه ولكنه يقابل بالرفض والمهانة والسخرية كل ذلك والتليفزيون ينشر على العالم. . . هذا هو مؤدى المقال مذيعة تسخر أجهزة التليفزيون وإمكانياته من أجل لهو فارغ مما جعل كاتب المقال يقول: «مقلب سخيف» وكنا نود أن تدخل المذيعة إلى مكاتب الموظفين فتنقل لنا كيف يعملون لنرى المجتهد منهم والمهمل والنظيف والمرتشى ومن يعقد المسائل منهم ومن يتفانى فى خدمة الجماهير وكنا نود أن تفعل مذيعة التليفزيون ذلك مع الموظفين دون أن يشعر أحد منهم حيث تسجل عليهم حركاتهم وسكناتهم كنا نريد أن تفعل مذيعة « احذر الكاميرا وراءك» ما يفعله الجاسوس فترى الناس موظفيهم على حقيقتهم حتى يتبين لهم الصالح من غيره .

هذا هو ما تفكر فيه المرأة وهذا هو ما تحب أن تصل إليه ولكنها والحق يقال أصبحت سلبية بعد أن كانت إيجابية ونسيت أو تناست رسالتها الأولى وما كان لها من تربية أصيلة قويمة للنشء أين هى الآن من الخنساء؟ أين هى الآن من النساء اللواتى كن يدافعن العدو بما أوتين من قوة إننا كنا نرى نساء فى أيام الحرب مع إسرائيل يملأن شوارع المدن ذاهبات آتيات زججن الحواجب وكحلن العيون وكأننا لسنا فى معركة سقط فيها جملة من زهرة شبابنا وكأنهن لم يسمعن شيئاً من نساء العدو وما فعلنه مع جنودنا فى أرض الميدان وفوقها من الضرب والحرب .

فهل يعود نساؤنا إلى أيامهن الماضية؟ وأفعالهن الرائعة؟



ذكر الله على كل حال

من شـأن المؤمن الحق أن يكون مع ربه فى كل أحيـانه ومن عـلامـات المسلم الصادق أن يلجأ إلى مولاه فى كل أوقاته ومن دلالات التوفيق للمرء أن يديم الصلة بالله رب العالمين .

ولذا أمرت آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله بأن يكون المسلم على ذكر دائم لله تعالى وأن يعيش على علم بربه وتفكر فى ملكوته وذكرنا لربنا جلَّ علاه لن يكون إلا بالطاعة والثناء والتوبة والإخلاص والخشوع والمراقبة والورع وسيكون ذكر الله لنا ـ ثواباً وجزاء ـ بالرحمة وحسن الجزاء والمغفرة والإكرام يوم اللقاء . قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة : 152) ، وقال عبد الرحمن النهدى : إنى لأعلم الساعة التى يذكرنى الله فيها ، قيل له : ومن أى شىء تعلمها؟ قال : يقول الله عز وجل : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة : 152) ، وقال ذو النون المصرى : من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء وكان له عوضا من كل شىء»وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» .

وقد أمر الله بمواصلة ذكره فى جميع الأوقات صباحاً ومساءاً وعصراً ليلاً ونهاراً قال ﷺ : «**أقرب ما يكون العبد من الرب فى جوف الليل فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن**» كما أمر به سراً وعلانية قياماً وقعوداً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب : 41ـ42)، وقال تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم : 17ـ18) ، وقال سبحانه : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه : 130) ، كما أمر به بعد الصلاة ﴿**فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم**﴾ (النساء : 103) ، وبعد الوضوء (**ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**) وبعد الحج ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة : 200) .

وقد وصل عقلاء الناس إلى معرفة الله بكثرة ذكره والتفكر فى خلقه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران : 190 ـ 191) ، وقال معاذ بن جبل : إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت له : «أى الأعمال أحب إلى الله ؟» قال : **«أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»** وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة فمر على جبل يقال له جُمْدان فقال : **«سيروا هذا جمدان سبق المفردون»** قالوا : وما المفردون يا رسول الله؟ قال : **«الذاكرون الله كثيرا»** .

ولذكر الله أثر فى نفوس الذاكرين فهو سبب النجاح وطريق الفلاح ومن دعائم النصر التى أرسى قواعدها كتاب ربنا تعالى ممثلة فى خمسة أمور فكان واحداً منها قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال : 45ـ46) .

ويدفع المسلم إلى الطريق المستقيم ـ واكتساب القدوة الحسنة ـ والتخلق بالأخلاق الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب : 21) ، كما يحث الذاكرين على التوبة والإخلاص لله والرجوع إليه فى كل الأوقات ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران : 135) .

وذكر الله يطرد القلق من النفوس ويبعث فيها السكينة والأمن والاستقرار ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد : 28) ، ويوقظ الشعور فى النفوس ويحيى موات القلب ويبعث رفات الحس . روى البخارى عن أبى موسى رضي الله عنه قال : قال النبى ﷺ : **«مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت»** .

ويحصن الذاكر ضد نزغات الشيطان ووساوسه ويباعد بينه وبين هواجسه وشروره ويعلى شأنه عند الله ، قيل فى الحديث القدسى : **«لا يذكرنى عبد فى نفسه إلا ذكرته فى ملأ من ملائكتى ولا يذكرنى فى ملأ إلا ذكرته فى الملأ الأعلى»** .

كما يؤمن الذاكرين من عذاب الله وينزل عليهم رحماته ويرزقهم ثواب الجنة ونعيمها وتحفهم الملائكة وتغشاهم السكينة ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ما غنيمة مجالس الذكر ؟ قال : **«غنيمة مجالس الذكر الجنة »** .

وآداب الذكر كثيرة ولابد من مراعاتها فإخلاص النية لله والصدق فى العمل والقصد والتوجه بالقلب إلى الذكر واستقبال القبلة والطهارة من الحدث والخبث كل ذلك وغيرها من كل ما هو حسن من القول وجميل من الفعل مطلوب عند الذكر ومرغوب فيه .

وهناك من أنواع الذكر ما يمكن الإنسان من التقرب إلى مولاه فهناك التفكير فى ملكوت الله فى خلق السموات والأرض فى الحيوان والطير وفى النفس الإنسانية قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات : 21) .

والتفكر ـ بهذا المعنى ـ كان ذكر الأنبياء والمرسلين والصالحين فاهتدوا به قبل البعثة وبعدها وانتصروا به على خصومهم فى المناقشات الدينية والعلمية وحفظ لنا التاريخ من صور التفكر ما كان من إبراهيم عليه السلام مع خصومه ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : 75-79) .

ثم ما كان من النبى محمد ﷺ حينما كان يخرج الليالى ذوات العدد إلى غار حراء فيستغرق فى تلك التأملات حتى أكرمه الله برسالته ولذلك أثنى الله على الصالحين لأنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (آل عمران : 191) قائلين بإيمان ويقين وخشوع وإخبات ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران : 191) .

وقد عرف الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فضل الذكر وأثره فى النفس فعاشوا ذاكرين لله شاكرين نعماءه فرقت قلوبهم وسمت أرواحهم وصفت نفوسهم، فعن أنس بن مالك قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : تعال نؤمن بربنا ساعة فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة فقال النبى ﷺ : **«يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة»** .

وسوف نعرض لرأى طائفة من الصالحين فى فضل الذكر سوى أصحاب رسول الله ﷺ لنرى إلى أى مدى كان القوم مع الله فقال الشيخ أبو سليمان الدارانى رحمه الله إنى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيته لله على فيه نعمة ولى فيه عبرة» وكان عمر بن عبد العزيز يقول : الفكرة فى نعم الله أفضل من العبادة » وعن عيسى عليه السلام أنه قال : «**طوبى لمن كان قوله تذكرا وصمته تفكراً ونظره عبراً**» .

ومن أنواع الذكر التعلم والتبحر فى العلوم والفنون والآداب ولا يخفى ما فى ذلك من السعادة والحضارة ورفعة شأن الأمة وعلو درجتها بين الأمم ، قال رسول الله لأبى ذر : «**يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم بابا من أبواب العلم عمل به أم لم يعمل خير لك من أن تصلى ألف ركعة**» .

والتعليم سبيل العزة والقوة وكان مشرق أنوار القرآن الكريم ومبدأ رسالة الإسلام أمر بالقراءة والتعلم ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق : 1-5) ، وذكر أمام رسول الله رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال ﷺ : «**فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا**» ثم قال ﷺ : «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير**» وقال لقمان لابنه : يابنى عليك بمجالس العلماء واسمع كلام الحكماء فإن الله ليحيى القلب الميت بنور الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر» .

وبقى من أنواع الذكر قراءة القرآن ومدارسته وقراءة القرآن فى الدرجة العليا من الذكر وحملة كتاب الله وقارئوه فى رحمة الله وفى كنفه يسبغ عليهم فضله وينزل عليهم سكينته ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾ (فاطر : 29) ، وقال ﷺ : «**ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده**» .

وذكر الله على كل حال مرغوب فيه ومطلوب فى الصحة والمرض فى الفرح والحزن ، قال رسول الله : «**ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماضٍ فِىَّ حكمك عدل فِىَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هُوَ لَكَ سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك**

أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور بصرى وجلاء حزنى وذهاب همى إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا» وقال ﷺ : «**دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجوها فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت**» .

وذكر الله على كل حال مرغوب فيه ومطلوب فى الفقر والغنى فى كل حال يتعرض لها المرء فكان النبى محمد ﷺ يناجى ربه فى كل وقت ويذكره فى كل حين بعد الوضوء والصلاة فعن عبد الله بن الزبير أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة والفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**» .

وذكر الله على كل حال مرغوب فيه ومطلوب فى الصباح والمساء عند النوم والقيام منه ، عند دخول المسجد وبعد الخروج منه ، عند الشروع فى الأكل وبعد الانتهاء منه ، عند السفر وعند العودة ، عند لبس الثوب وخلعه ، عند الاستحمام والتيمم عند دخول الخلاء والخروج منه ، عند الآذان وختامه وعند تكبيرة الإحرام فى الصلاة وقبل القراءة .

وهكذا عاش الصالح بهذا الذكر فى خلوة دائمة مع الله تعالى ، واستمع إلى الرسول وهو يناجى ربه عند صلاة الصبح «**اللهم اجعل فى قلبى نورا وعلى لسانى نورا واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا واجعل من فوقى نورا ومن تحتى نورا اللهم أعطنى نورا**» وكان يقول عند النوم «**باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» وعند القيام منه يقول : «**الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» ويقول عند الطعام إذا قرب إليه «**اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار بسم الله** » وإذا انتهى منه قال : «**الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة**» .

واليوم ونحن نحارب عدو الإسلام والمسلمين ممثلاً فى الصهيونية العالمية والاستعمار ينبغى أن نذكر الله سبحانه وتعالى فهو الذى يربط على قلوبنا ويثبت أقدامنا ويوحد بين صفوفنا ويجمع شملنا ويوجهنا نحو الهدف المنشود ويهيىء لنا من أمرنا .

إننا بذكر ربنا تعالى نستطيع أن نتبين الهدف أمامنا واضحاً ونعمل واجبنا كاملاً ونقوم بواجبات المعركة على خير وجه وأحسنه ونربى عليه أبناءنا وبناتنا وشبابنا .

من أدب الأحاديث القدسية

«من خصال الخير والسعادة»

من أدب الأحاديث القدسية قول الله عز وجل : «**أربع خصال واحدة، فيما بينى وبينك وواحدة فيما بينك وبين عبادى وواحدة لى وواحدة لك فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا وأما التى لك فما عملت من خير جزيتك به وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة وأما التى بينك وبين عبادى ترضى لهم ما ترضى لنفسك**» .

وهذا الحديث جمع خصالاً أربع من خصال الخير والسعادة التى يجب أن يتحلى بها كل إنسان كى يحظى بكرم مولاه وبفيضه العميم ولو أن كل فرد تحلى بها لأصبح فى عداد المؤمنين السعداء ولو أن كل مجتمع تعودها لساد ذلك بين المجتمعات .

أولى هذه الخصال: عبادة الله وعدم الإشراك به وهى فى حقيقتها خشوع وإذعان وإنابة من العبد لمولاه وكانت العبادة بهذا المعنى عماد كل شريعة وصلب كل ديانة واتفقت عليها الأدلة والأنبياء فى كل أمة كما كانت المقصد الأول والأسمى من وجود الإنسان ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ (الذاريات : 56) .

ولكل ديانة عبادة تختلف عن غيرها فى الديانات الأخرى فكانت فى الديانات السابقة انقطاعاً عن متع الدنيا وانعزالاً وتزمتاً ووقفاً على مكان معين لا تنعقد إلا به وحكراً على طائفة معروفة لا تصح إلا بقيادتهم وهذه كلها ليست من الإسلام فى شىء يقول النبى ﷺ «**لا رهبانية فى الإسلام**» ويقول «**جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهورا**» وقال الله تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ (البقرة : 115)

وعلماء الدين فى نظر الإسلام ما هم إلا موجهون وما هم إلا مرشدون وماهم إلا مبينون لشريعة الله وليس لأحدهم أية سلطة دينية على الناس ، والله سبحانه أقرب إلى عباده من حبل الوريد ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (البقرة : 186) .

والإسلام وسع فى معنى العبادة كثيراً فشملت كل عمل دينى ودنيوى ، فالصلاة

والأذكار التى يؤديها الشخص فى اليوم والليلة واقفاً بين يدى مولاه يرجو رحمته ويخشى غضبه عبادة ، والأكل والشرب بغية استطاعة القيام بأداء فرائض الله والسعى على العيش عبادة ، والجهاد فى سبيل العقائد والمبادىء السامية والدفاع عن الوطن والعرض والشرف عباده والزراعة لتوفير القوت للناس عبادة ، والتجارة لتوفير السلع للأفراد عبادة والصناعة لإيجاد ما يعود على المجتمع بالرفاهية والسعادة عبادة والسعى لجمع كلمة الأمة لملاقاتها بالأعداء فى ساحات الكفاح عبادة .

وكانت هذه الأعمال كلها بهذا الدافع الذى دفع إليها وبهذه النية التى دعت إليها عبادة لأن النية الحسنة كانت سلاح المؤمن الذى دفع به الوساوس الشيطانية والنزغات النفسية عن عمله ألا تقرأ قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ (محمد : 12)وقول رسول الله ﷺ : «**إنما الأعمالُ بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» .

وبهذا المعنى كانت العبادة تحريراً للعقل الإنسانى من خرافات الوثنية وتطهيراً للنفس البشرية من أدرانها وإنقاذاً للعمل من براثن الرياء والعجب والضياع والخسران والضعف والتواكل والخذلان ﴿**قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي**﴾ (الزمر : 14) وقال تعالى : ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ (البينة : 5) ، وقال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ (غافر : 60) ، وقال سبحانه : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (التوبة : 105) .

وثانية الخصال: أجر العبد على عمله والله سبحانه أكرم من أن تضيع عنده الأجور وهو القائل فى محكم كتابه ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**﴾(الكهف : 30)، وقال تعالى : ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ (الكهف : 49)والله شمل عبده برحمته من كل النواحى وأعطاه ثوابه كاملا على عمله قل أو كثر عظم أو ضؤل ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ (الأحقاف : 19) ، وكانت عناية الله بأعمال العبد بالغة حداً كبيراً من العناية والرعاية فيحفظها ربنا وينميها ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ**

الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : 47) ، ومن ثم ظهر عدل الله وتحققت حكمته من تكليف العباد بالأعمال فلا ظلم ولا غبن ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ⑦ **وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة : 7ـ8) ، وظهر كرم الله وفضله ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ (البقرة : 261) ، وهكذا كان عمل العبد فى رعاية الله وفى كنفه ويحفظه ويحصيه ويدخره ليوم يحتاج فيه العباد إلى ما قدموا فى حياتهم الماضية إن كان خيراً فخير وإن كان شرا فشر ولا أدل على ذلك من كلام ربنا تبارك وتعالى : ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة : 283) ، ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (البقرة : 265) ، ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ (البقرة : 271) ، ﴿**وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (المجادلة : 13) ، وغير ذلك مما يدل على أن العمل يجنى عناية الله ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (المجادلة : 6) .

وثالثة الخصال: قضية الدعاء وإجابته ودلت على منتهى كرم الله ورحمته فعبد يدعو ورب يلبى إنسان يقول يارب وإله يقول لبيك عبدى مخلوق ينادى فى خلوته وفى ظلمات الليل البهيم يا إلهى وخالق مطلع من عليائه يقول : لك ما سألت يا عبدى ولما جاء أعرابى ليقول لنبى الله : يا محمد أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه نزل قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ (البقرة : 186) .

ومن هنا وجب على العبد أن يكون مع مولاه يدعوه ويرجوه ويخشاه ويتقيه والله من أجل ذلك ينير له طريقه وييسر له أموره فقد قال النبى ﷺ : «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض**» وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر**» ويقول «**لا يغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة**» وكان يقول : «**لا تعجزوا من الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد**» .

والإنسان إزاء هذا الكلام الإلهى ومع هذه الرحمة الشاملة ما عليه إلا أن يلقى بنفسه فى أحضان الحضرة الربانية ويكون له سبحات فى تلك الساحة الطهور ويجعل له أشواطاً فى هذا الفضاء الروحى الكريم وينظف قلبه لله والناس ولا

يجعل لشهوات النفوس وأحقاد القلوب طريق إلى نفسه وقلبه وبذلك يسعد فى دنياه وأخراه ففى الحديث : «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**» .

فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من النبل والطهر والعفاف فإن الله لاشك يعطيه سؤاله ومجيب دعوته وحاضر معه لا يغيب . روى سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين**» وهو القائل فى كتابه سبحانه ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ (غافر : 60) .

وبقيت الخصلة أخيرة كانت دستور المجتمع الطاهر المتآلف والأمة القوية تلك التى تحدث عنها ربنا «**وواحدة فيما بينك وبين عبادى .. ترضى لهم ما ترضى لنفسك**» وتحدث عنها رسول الله فقال : «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» .

وهذه الصخلة أرسى دعائمها النبى محمد بتلك التعاليم التى ربى عليها أصحابه وتلك الأحاديث التى قالها وبتلك التوجيهات الغالية التى جعلت المحبة لله وليست لهوى فى النفوس أو غرض دنيوى صغير وعلى هذه التربية النبوية كان الصحابة متحابين متعاونين واستحقوا من أجل ذلك وصف الله لهم : ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ (الفتح : 29)، وسجل التاريخ لهم هذه المآثر والمفاخر وما تكاد تذكر حوادث الهجرة حتى يقفز إلى الذاكرة إيثار الأنصار - رضى الله عنهم - ووفائهم وكرمهم ومحبتهم ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (الحشر : 9) ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحشر : 10) .

ونحن فى عهدنا الحاضر أحوج ما نكون إلى هذه المحبة والمودة لنربط بها مجتمعنا ونلم بها شملنا ونصلح بها شأننا ونواجه بها أعداءنا .

مع وصية نبوية

فى تراثنا العربى الإسلامى ثروة كبرى روحية فى أدب القول وتربية الضمير وحسن الأخلاق وصلاح العمل ومع وصية نبوية كريمة من الوصايا العديدة التى وجهها الرسول ﷺ لأصحابه رضى الله عنهم وصى بها صاحبه معاذ بن جبل عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أراد سفراً فقال: يا رسول الله أوصنى فقال له: «**اعبد الله لا تشرك به شيئا**» قال: يا رسول الله زدنى قال: «**إذا أسأت فأحسن**». قال: يا رسول الله زدنى. قال: «**استقم وليحسن خلقك**» رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وحديثنا اليوم عن الجملة الثانية من الوصية «**إذا أسأت فأحسن**» لنرى كيف عالج النبى شرود النفس الإنسانية لتنهض من كبوتها وتعود إلى صفائها.

ومن المعلوم أن الإنسان يتنازعه أمران كبيران وتتجاذبه قوتان مختلفتان إحداهما علوية هبطت عليه من الملأ الأعلى.. وسرت إليه من لدن الله العلى القدير تأخذ بيده صعداً وتحلق به فى مستوى رفيع من الكمال والتقوى والخير والأخرى سفلية أخذت من أديم هذه الأرض وتجعله ينزع إلى أصله الذى نبت منه.

ومن هنا تأرجح الإنسان بين العلو والصعود تارة وهبط عن مستواه الإنسانى السوى تارة أخرى تأرجح بين الروح العلية الندية التى كان بها إنسانا سوياً وبين الطبيعة الأرضية التى ينزع إليها فى بعض أحيانه فيُلمّ بما يمس إنسانيته من نوازع القبح والسرور والآثام.

وقد أدرك الرسول هذه البشرية بشرعه الحنيف حتى لا تشرد الشرود كله وتنفر من عقالها فأدبها أدب الله ورسم لها طريق الخير، ولم ينس هذه الطبيعة البشرية وكان يقول: «**كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» فالعبرة ليست فى الخطأ وإنما الخطأ كل الخطأ فى الاستمرار على العبث والشر والفساد وكانت الكلمة النبوية الربانية «**إذا أسأت فأحسن**» بمثابة علاج للنفس الإنسانية وإنقاذ لها من آثامها وتأخذ بيدها صعدا إلى الخير والعدل والتقوى وكأن للرسول بهذه الكلمة يقول: إذا أخطأ أحدكم وألمَّ بإثم فلا يستكثر من إثمه على كرم الله وعفوه ولا يستعظمن ذنبه على رحمة الله التى وسعت كل شىء وليسارع إلى مرضاة الله بإحداث حسنة تقيله من عثرته وليحسن عمله كله.

والإحسان بهذا المعنى كلمة عامة جامعة لمعانى التقوى والإخلاص والطاعة وإتقان الأعمال وصدق المراقبة لله عز وجل وله المنزلة السامية والدرجات العالية عند الله تعالى فقد قال فى محكم كتابه: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: 77)، وقال: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195)، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: 26)، وقال تعالى: ﴿ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ .

وروى أن رجلاً استدرج أمراة إلى داخل البيت إرادة أن يصيب منها فعلا قبيحاً فأصاب منها قبلة وأدرك فى هذه اللحظة جلال الله وعظمته فجاء إلى النبى شاكيا باكياً متظلماً نادماً وقال للنبى ما فعله مع المرأة وسكت رسول الله فتولت السماء الرد ونزل جبريل بالجواب من لدن الله رب العالمين: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (هود: 114-115)، فدعا الرسول بالرجل وتلاها عليه فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أهى للرجل خاصة أم للمؤمنين عامة فقال رسول الله: «**لا، بل هى للناس كافة**» كتب التفسير.

وكانت الصلاة بهذا المعنى وبما وزعها الله على ساعات اليقظة فى اليوم والليلة مفتاح الخير والسعادة لما تعانيه البشرية من آلام وشقاء وقلق واضطراب كانت الصلاة بهذا المعنى وبما قضيت من أجله وصلات إلهية جعلها ربنا مرقاة إلى رضاه ومدعاة إلى ساحة الرضوان ومعراجاً إلى الملأ الأعلى حيث الخير والحق والكمال والإخلاص والتقوى والطهر والعفاف فقد روى الإمام أحمد عن الحارث مولى عثمان رضي الله عنه قال جلس عثمان رضي الله عنه يوماً وجلسنا معه فجاء المؤذن فدعا بماء فى إناء أظنه يكون فيه مد فتوضأ عثمان بن عفان رضي الله عنه قال رأيت أن رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال: «**من توضأ وضوئى هذا ثم قام يصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما كان بينها وبين الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما كان بينها وبين العصر ثم صلى العشاء غفر له ما كان بينها وبين المغرب ثم لعله يبيت ليلة يتمرغ ثم إن قام فتوضأ فصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات**» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات يا عثمان؟ فقال: هى سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم» رواه أحمد بإسناد حسن وأبو يعلى والبزار.

بهذا التوجيه الرباني وانطلاقا من هذا الهدى النبوى الذى وضعه الرسول الأمين بين يدى الإنسانية الحائرة الضالة «**إذا أسأت فأحسن**» مهد الطريق أمام الناس للوصول إلى الله خالق القوى والقدر واهب النعمة ورازق النسمة وجعلت الآيات تترى يتبع بعضها بعضا فى بيان مقام الأعمال الحسنة وأثرها فى محو السيئات **﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾** (القصص : 54) ، وقال تعالى : **﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾** (القصص : 54) .

وقد قرأنا فى أحاديث المصطفى ﷺ ما يفتح للناس طريق الإحسان بعد السيئات وما كان يقصد بهذا الكلام تهويناً بشأن المعصية أو تحريضاً عليها وإنما كان يقصد أن يبين للناس أن الخير والهدى والرشاد فى أن يعود الناس إلى ربهم ويتركوا ما مضى فلعل فى العودة مغفرة ورحمة ولعل فى الإحسان ما يجبر الزلة ويقيل من العثرة وعن أبو سعيد بن مالك بن سنان الخدرى رضي الله عنه أن نبى الله ﷺ قال : «**كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبدو الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت .. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى . وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط فآتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ـ أى حكما ـ فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة**» متفق عليه .

هذه قصة رجل أسرف على نفسه وقتل مائة نفس ولما صحا فؤاده وخشع قلبه لم ير بداً من الرجوع إلى مولاه بعد طول غيبة وشدة جفوة فكانت رحمة الله فى انتظاره فلم تغلق أبوابه دونه حينما وجد منه الإخلاص فى القلب والصدق فى القول والإحسان فى العمل والندم على ما بدا منه ولاشك أن الناس وحالتهم كذلك تتسع لهم رحمة الله **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾** (الزمر : 53-54) .

والواقع أنه لا راحة مع اليأس ولا سعادة مع القلق ولا حياة مع الاضطراب ولا نجاة مع الإثم والذنب ولا استقرار من الشقاء والشر وصدق النبى ﷺ ـ فيما رواه عنه أبو ذر ومعاذ بن جبل ـ «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**» رواه الترمذى .

إن الناس أمام السيئة فريقان فريق يقدم عليها دون خزى من نتيجتها القبيحة وهو يفعلها من غير أن ينظر ما تجره عليه من غضب الله وسوء المصير فى الدنيا والآخرة وهؤلاء لا حظ لهم من خير ولا سهم فى رضا الله .

وفريق وقع فى الذنب دون إصرار عليه فبينما هو يمشى فى حياته متئد الخطا متوازن القوى انزلقت رجله فوقع على الأرض هو لا يريد أن يسقط يقينا حتى لا يتعرض لسخرية المارة وضحكاتهم إن هذا مثل ما يكون من الذين يقعون فى الذنب دُون إقبال عليه ومن أجل ذلك فتحت لهم أبواب رحمة الله على مصاريعها يدخلون إليها فى أى وقت يشاءون قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ (النساء : 17-18) ، عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ : «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**» رواه مسلم .



عوامل النصر على الأعداء

قبل جولة أخرى مع أعدائنا وأعداء الإنسانية جمعاء ـ إسرائيل والاستعمار فى عهده الجديد ـ ينبغى لنا أن نقف وقفه طولة متأنيه عند هذا التوجيه الربانى وتلكم اللوحة المصورة التى رسمها الحق تبارك وتعالى للداعين إلى الحق والعدل والحرية والعزة وأن نتأملها تأمل العاقل المعتبر ونجعلها دستورنا فى العراك الطويل المرير الذى اضطرتنا إليه الصهيونية العالمية حيث نأخذ منها عوامل النصر على الأعداء فى هذا الجهاد المقدس.

هـذا التوجيه الربانى وتلكم الصورة المعبرة هو قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال : 45-46) ونحن الآن نرى أنفسنا وجهاً لوجه أمام عناصر النصر مكتملة فى ميدان الشرف والفداء لو أننا شرعنا فى الأخذ بها وتأدبنا بآدابها.

وأول ما نأخذه من هذه الأمور الثبات ولابد منه أمام الأعداء فى الميادين كلها عسكرية وسياسية وعلمية واجتماعية وعقيدية وأخلاقية والثبات مع قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : 60)، يعطينا القوة المطلوبة فى جهاد العدو ومدافعته حتى نجليه عن أرضنا ونبعده عن ديارنا ونثبت له أننا أمة جديرة بالبقاء تأبى الضيم وترفض الذل ولنحذر الخوف والوجل من لقائه ولنرسم طريق الكفاح الطويل واضحاً بيناً ولنعلم أن عدونا ضعيف لا كيان له مشرد مستعبد كتبت عليه الذلة والمسكنة حيثما حل وأينما سار ولنفهم قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال : 16).

وقد سرنا فى الناحية العسكرية والسياسية خطوات فساحا تبشر بأمل عريض ومستقبل مزهر مشرق بالخير ولكن النواحى الأخرى لازالت فى حاجة إلى العناية والرعاية وإعادة النظر فيها فإن الانحراف فى العقائد والأخلاق والتقاليد والعادات

مازال يسيطر على تصرفاتنا فإن التهاون بزمور الدين، والاستغلال والرشوة والمحسوبية والاختلاف والتفرق وعدم الثقة والجبن والخور وضعف العزيمة والكذب والنفاق والملق والسفور والتبرج والإسراف والتبذير والحقد والبغضاء كل ذلك خصال تتحكم فى عاداتنا وتقاليدنا وعدونا يجدد نفسه كل يوم ويساير التطور ويتفاعل مع عوامل الزمن ويدور حول عقائد تربطه بماضيه ويزعم أنها دين سماوى يدين به ويقدم نفسه فداء له .

فإذا تخطينا هذه المرحلة وهى مرحلة الثبات والإيمان وجدنا من عناصر النصر ذكر الله واللجوء إليه وهو معتصم ربانى وملاذ روحى والطريق الواضح إلى الكرامة ومناط الأمل الذى يمنح رباطة الجأش وقوة العقيدة والشجاعة والإقدام وقد ذكر نوح ربه ولجأ إليه فى الضراء حين وجد من قومه عنتاً وشدة وقال بقلب مكلوم : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ (القمر : 10ـ14) ، وكان جواب الله حاضراً ﴿فَانتَصِرْ﴾ (القمر : 10ـ14) ، وكانت أدوات النصر أمامه قوية حاسمة امده الله بها ممثلة فى قوله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر : 10ـ14) .

وليس ذكر الله نطقاً باللسان أو تمتمة بالشفاة أو تمنيات يتمناها كل إنسان وإنما هو قبل ذلك استحضار لعظمة الله التى لا تحد ولجوء إلى قدرته التى لا تقهر وأمل فى وعده الذى لا يتخلف ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الروم : 64) ، وبهذا الذكر والاستحضار وبهذا اللجوء والأمل تقوى العزائم وتثبت الأقدام .

فإذا كان ذكر الله تنهض به العزائم وتثبت به الأقدام فإن طاعة الله ورسوله بداية الانطلاق إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة وفتح الطريق إلى النصر الكامل والحرية والعزة والاستقلال والكرامة وموئل الإيمان الصحيح واليقين الصادق والفوز الدائم قال تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال : 1) ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور : 52) .

ولئن كانت طاعة الله ورسوله واجبة فى كل وقت فإنها فى وقت الحرب

والضرب ومنازلة الأعداء ومقارعة الخصوم تكون أوجب الواجبات ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (النور : 54) ، وما أرسل الله رسله إلى عباده إلا لهذه الغاية ومن أجل ذلك كتب الفلاح والسعادة للطائعين .

وطاعة الله فعل أوامره واجتناب نواهيه وكانت سلاحاً تدرع به المسلمون فى كل الحروب وبسببها أنزل الله السكينة فى قلوبهم وثبتهم فى ميادين النصر والغلبة على أعدائهم قال عمر بن الخطاب من كتاب له إلى سعد بن أبى وقاص قائد جيوش المسلمين لفتح بلاد الفرس : أما بعد !! فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم» .

والطاعة والذكر يجب أن يستحضرهما كل رجل فى مكانه فالجندى فى ميدانه والموظف فى مكتبه والصانع فى مصنعه والتاجر فى متجره والطالب فى مدرسته والزارع فى مزرعته وليكن دعاؤنا لله مرطباً بإخلاص النية له طارحين عن القلب وساوسه نابذين أسباب البغضاء والشحناء تاركين العجب والكبرياء .

ويأتينا بعد ذلك ا٠لعامل الرابع من عوامل القوة والنصر والغلبة إنها وحدة أمرنا بها القرآن وحثنا عليها المصلحون من أبناء أمتنا العزيزة وكانت من أقوى أسباب النصر والغلبة وما شرقت دعوة الإسلام وغربت ونهضت القومية العربية واستوت على عودها إلا على أساسها وما تنزلت الانتصارات تلو الانتصارات فى الميادين إلا بتماسك هذه الأمة وترابطها فقد قال الله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران : 104) ، والوحدة نظام تفرضه سنة الحياة ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون : 51-54) ، والتآلف سبيل الوحدة والسعادة والقوة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف : 4) .

في ظلال هذه الوحدة تتلاشى الفوارق بين الطبقات وتزول عوامل الضعف والفرقة وتضيع أسباب التخلف والتأخر وتصبح الأمة رجلاً واحداً ويتعاون الأفراد على رفعة شأنها والحفاظ على رقيها ويعملون على إذاعة مجدها وحضارتها وقيام عزها وسؤددها وتطهير صفوفها من المفسدين والعابثين لأن وجود العبث والفساد مضيعة لها ومفسدة لأخلاقها ومتلفة لجهود مصلحين فيها فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال : «**نعم إذا كثر الخبث ـ الفساد**» والخبث ما هو إلا فساد المفسدين وانحراف المنحرفين عن وحدة الأمة وبعد الجماعة وفى هذا يقول ﷺ : «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يعمكم بعذاب من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**» .

والصبر هو فى الكفاح والسبيل فى النضال والطريق إلى الفدائية ما تدرعت به أمة إلا سادت وما تمسكت به جماعة إلا بلغت المجد العريض والخلود بين الجماعات والحياة بطبيعتها ميدان كفاح وجلد وتسابق ولن تجد لهذه المشاق ينظمها ولن ترى لتلك الأخطار يعين عليها إلا هذا الخلق الجميل ولأمر ما فقد تحدث القرآن عنه فى مواضع متعددة قاربت السبعين موضعاً قال تعالى على لسان الصالحين المجاهدين : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة : 250) ، وقال تعالى ـ آمراً وحاثاً عليه ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة 153) ، وفى موضع ثالث يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران : 200) .

وفى ميدان الكفاح تجد النصر حليف أوسع الفريقين صبراً وأرحبهم صدراً وقد انتزع العرب المسلمون النصر من أيدى عدوهم جزاء صبرهم وثباتهم وتضحيتهم رغم ما كان من التفاوت الهائل بينهم وبين عدوهم فى العدد والعدة وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة : 149) .

جهادنا .. وحربهم

الحياة ميدان رحب ومكان فسيح تتبارى فيه الأمم والشعوب والجماعات ويتسابقون كل فيما يروقه ويحبه ومن هنا كان الإختلاف فى المنازع والأهواء والميول.

وقد حفل التاريخ العام بأنواع شتى من النشاط والعمل الإنسانى منه الخير ومنه الشر، منه الحق ومنه الباطل، منه ما كان نافعاً ومنه ما كان ضاراً، منه ما كان طيباً ومنه ما كان خبيثاً.

وهكذا شهد العالم ضروباً من المد والجزر لهذا الجهد البشرى ورأى ألواناً متعددة من الصراع . . رأى حرباً بعد حرب وغزواً بعد غزو وفتحاً بعد فتح، ويضيق بنا الوقت لو أننا ذهبنا نستقصى كل أنواع النشاط الإنسانى ولكن سأقصر الكلام على «جهادنا - نحن المسلمين - وحربهم - أعنى المستعمرين -» وسوف يتبين لنا أن الأمة الإسلامية بلغت درجة عالية من النبل والعفاف والأمانة لم تصل إليه بعد أرقى الأمم فى عصرنا الحاضر.

ففى مكان صامت موحش معزول عن مواكب العمران المائجة والحضارات الراقية والمدنيات الصاخبة فى هذا المكان الذى لم يكن قبل الإسلام شيئاً مذكورا بعث رسول الله محمد ﷺ ليضطلع بالرسالة التى ستحول العالم الذى شارف النهاية فى التأخر والضعف والاستغلال إلى مكانة السمو والرفعة والتقدم والحضارة.

ومن قلب جزيرة العرب خرجت موجات الفتح الإسلامى الرحيم على الدنيا فى إعداد محكم متتابع أخذ يمتد ويتسع حتى شمل المعمور من العالم يومئذ والعرب المنطلقون من صحرائهم لبثوا مع النبى محمد قرابة ربع قرن من الزمان لقنهم فيها دروس التربية الإلهية النازلة من السماء وأمدهم بطاقات فكرية ومعنوية جبارة ارتفعت بمستواهم المادى والأدبى حتى صاروا أعز جانباً وأسلم عقلاً وأصح تفكيراً وأطهر قلوباً من جماهير الفرس والروم ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح : 29) .

ونحن نلمح فى طبيعة هذا الفتح الإسلامى الرحيم ظواهر متعددة :

وأول هذه الظواهر : أنه فتح مثالى وجهاد نزيه جداً عن المطامع والأهواء فإن الرسالة التى أمرت به اشترطت أن يكون بعيداً عن غرور النفس ولا عجب والرياء والشهوات ومفاتن الدنيا فقد روى أبو داود عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضاً من الدنيا . فقال رسول الله : «**لا أجر له**» فأعظم ذلك الناس وقالوا للرجل : عد إلى رسول الله فلعلك لم تفهم فقال الرجل : يا رسول الله رجل يريد الجهاد وهو يبتغى عرضا من الدنيا قال : «**لا أجر له**» فأعظم ذلك الناس وقالوا : عد لرسول الله فقال له الثالثة : رجل يريد الجهاد وهو يبتغى عرضا من الدنيا فقال : «**لا أجر له**» وعن أبى موسى رضي الله عنه عن سؤال رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعه، ويقاتل حمية ويقاتل رياء ذلك فى سبيل الله؟ قال : «**من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**» .

هذه التعاليم السامية جعلت صلة الفاتحين المسلمين بالبلاد التى فتحوها منزهة عن نيات الإستغلال والظلم وأعمال السلب والنهب التى عرفت للفاتحين السابقين وصدرت عن المستعمرين فى العهد الحاضر .

وثانى هذه الظواهر : أن الفتح الإسلامى كان لدفع العدوان وتأمين الدعوة الإسلامية فإن المشركين وأعداء الإنسانية مردوا على الطغيان والجبروت ووقفوا فى طريق المسلمين وآذوهم وشردوهم وصادروا حرياتهم وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج : 39-40) ، ودفع العدوان أمر لابد منه لمن يريد الحياة الحرة الكريمة وقام المسلمون حسبما وجهتهم إليه الآية الكريمة : ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (البقرة : 194) .

وثالث الظواهر على الفتح الإسلامى أن المسلمين الفاتحين بذلوا جهوداً جبارة لرفع مستوى الشعوب إلى مستواهم المادى والمعنوى فقضوا على الملكيات الفاسدة

ونشروا العدل والمساواة بين الشعوب وتنسم الناس أنسام الحرية والكرامة والإخاء وبذلك كان الناس المسلمون رسل عدالة وبر وإصلاح فى كل مكان نزلوا به ، يقول صاحب كتاب «معالم تاريخ الإنسانية» عن الإسلام : كان مليئا بروح الرفق والسماحة والأخوة وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ، كان غريزة مجسدة تحوى عواطف الفروسية فى الصحراء وكان يستهوى الغرائز الغالبة فى الرجال المعتادين . . لم يكن الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام يهتمون إلا بشىء واحد هو أن ذلك الرب الذى يبشر به الرسول كان - بشهادة ضمائرهم - رب صلاح وبر وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه على أخوة عظيمة متزايدة من رجل جدير بالثقة وسط عالم مملوء بالتقلقل والخيانة والإنقسامات الخالية من التسامح .

وتحدث عن الفاتحين المسلمين فقال : التقوا بجيوش كبيرة منظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها ولم يحدث فى أى مكان ما يسمى بالمقاومة الشعبية» فإذا فاضل الناس بين البلاط الفارسى والعرب كان العرب أنظف الطرفين وأطهرهما ، كانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة» .

ولئن وصل المسلمون إلى هذه المبادىء القديمة التى أنطقت الكتاب الأجانب فإنما مرد ذلك إلى النصائح الغالية التى تعهدهم بها رسول الله ففى غزوة حنينحنق المسلمون على المشركين فقتلوهم حتى شرعوا فى قتل الذرية فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : «**ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغوا الذرية ألا لا تقتل الذرية**» فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين فقال : «**أوليس خياركم أولاد المشركين** » - يعنى إن خيار الصحابة من المهاجرين والأنصار كانوا أولاد المشركين - كل نسمة يولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها وأبواها يهودانها أو ينصرانها .

وكان يوصف بحسن معاملة الأسرى ومراعاة حالتهم النفسية فيقول ﷺ «**أحسنوا إسارهم وقيلوهم واسقوهم لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح**» وأرسل مرة جارية حديثة السن مع بلال إلى رحله بعد أن سباها فمر بها على القتلى فصاحت صياحاً شديداً فكره الرسول ما صنع بلال وقال : «**ذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى**» فقال : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك وأحببت

أن ترى مصارع قومها» ومن وصاياه للمسلمين إذا خرجوا للقتال: «**لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضريما (ضعيفا) ولا كبيراً فانياً ولا تحرقن نخلاً ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتا**» وكان ﷺ يحرص على أن لا يستغل سبى النساء فى خلط الأنساب والاستخفاف بالأعراض فنهى أن تؤتى المرأة من السبى حتى تستبرأ بحيضة وإن كانت حبلى حتى تضع الحمل وحين علم أن رجلاً وطىء امرأة من السبى وهى حبلى أنكر ذلك وثار عليه وقال: «**لقد هممت أن ألعنه لعنة تتبعه فى قبره**».

هذه مثل رفيعة قام بها المسلمون فى جهادهم عبر تاريخهم الطويل وكانوا وقافين عندها فعندما دخل الصليبيون بيت المقدس ذبحوا سبعين ألف من المسلمين وكتب بذلك قائدهم إلى المسئولين فى أوروبا يبشرهم بإن خيله تخوض بحراً من دماء المسلمين. . فلما استرد المسلمون المدينة بقيادة صلاح الدين الأيوبى أعلنوا عفواً عاماً لمن أساءوا إليهم وتركوهم يهاجرون موفورين وقد حفظت لنا دول أوروبا هذا الجميل وردته إلينا مضاعفاً أضعافاً كثيرة حيث استجلبت اليهود المشردين من جميع أنحاء الدنيا وأسكنتهم دور العرب فى فلسطين وتركوا ألوف الأسر فى العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء ويحصدهم الهوان والذل والمرض دون رحمة أو عدالة.

إن الغرب المستعمر لا ينظر إلينا إلا على أننا غنيمة باردة ولا يفهمنا إلا على أساس أننا قطيع من البقر يجب أن يسخر لصالح أسياده والويل لمن تحدثه نفسه من الأمم بالإنكار لهذه السياسة فالحرب والتضييق والكبت والحرمان والسجون والمعتقلات والإنقلابات السياسية وحرب الأعصاب والتجويع ونحن لا نتزيد على المستعمرين وإنما هو الواقع من أفعالهم والظاهر من أقوالهم.

يقول مونتسكيو «أحد كتاب الغرب ومفكريهم» إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً فإنى أقول: إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بداً من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها فى إستغلال هذه الأقطار الفسيحة كلها. . . . والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس وأنفها أفطس فطساً شنيعاً. . ويكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها فإنه لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه ـ وهو

ذو الحكمة السامية ـ قد وضع روحاً وعلى الأخص روحاً طيبة داخل جسم حالك السواد » .

فالبحث عن الثروة والأمجاد الخاصة أو بسط النفوذ المجرد على أوسع مساحة من الأرض والعمل على تحويل البلاد المستعمرة إلى مزارع غاصة بالعبيد المسخرين لتصدير المواد الخام ودعم الفساد الداخلى وتفتيت وحدة الأمة الواحدة كل ذلك مما يسعى إليه الاستعمار ويعمل له المستعمرون ولا عليهم أن يخوضوا فى سبيله بحراً من دماء البشرية وما يجرى فى الشرق الأوسط وأفريقيا وبقاع أخرى من العالم دليل على ما نقول .

ودع كلام المستعمرين ومفكريهم واصعد بنا إلى أفق بعيد ، فقد روى أن رستم قائد جيش الفرس بث إلى سعد بن أبى وقاص ـ عندما وصل ومعه المسلمون إلى بلاد الفرس لافتتاحها ـ يطلب منه رجلاً عاقلاً ليفاوضه فى مطالب العرب ، فبعث إليه المغيرة بن شعبة فلما قدم عليه قال له رستم : إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول فى بلادنا ، قال المغيرة : إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة عليهم ماداموا مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به إلا عز ، فقال له رستم : فما هو؟ فقال : أما عموده الذى لا يصلح إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله ، فقال : ما أحسن هذا . . وأى شيء أيضاً قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الرحمن ، قال : وحسن أيضاً وأى شيء بعد؟ قال : والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم ، قال : وحسن أيضا . ثم قال رستم : أرأيت إن دخلنا فى دينكم أترجعون عن بلادنا ، قال : أى والله ثم لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة» .

هذا هو جهادنا . . وذلك حربهم ، جهادنا مثل رائع للأخلاق الرفيعة ، وحربهم سبيل الاستغلال والجوع والفقر والحرمان ، جهادنا طريق الحياة الحرة الكريمة وباب الخلود والنعيم المقيم ، وحربهم طريق الدمار والخراب والعذاب الأليم وشهداؤنا فى الجنة وقتلاهم فى النار .

مؤامرات ضد العروبة والإسلام

هذه مؤامرة ضد العروبة والإسلام وما أكثر المؤامرات ضد العروبة والإسلام فما كادت القومية العربية تأخذ فى الظهور والبروز على المستوى العالمى وحملها الإسلام على جناحيه فى بداية القرن السابع الميلادى حتى واجهت مؤامرات من كل الطوائف والفئات واجهت مؤامرات المشركين وواجهت مؤامرات المنافقين وواجهت مؤامرات الصليبيين والتتار وأخيراً تواجه فى الأيام الحاضرة مؤامرات المستعمرين والصهيونيين وخرجت الأمة العربية من هذه المؤامرات كلها قوية صلبة الإرادة لم تؤثر فى عزيمتها قوى البغى والشرور والعدوان لأنها مؤمنة بحقها فى الحياة الحرة الكريمة والعزة والكرامة .

واجهت الأمة العربية مؤامرات المشركين فى شخص رسول الله ﷺ قبل الهجرة حينما اجتمعوا فى دار الندوة بمكة للتشاور فى شأن محمد وما عساهم أن يفعلوا فى شأنه فمن قائل نحبسه حتى يموت صبرا ومن قائل ننفيه من بلادنا ومن قائل نقتله حتى نستريح منه ولكن الله أبطل كيدهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال : 30) .

وبعد الهجرة حينما ذهب الرسول إلى بنى النضير اليهود يطلب منهم حصتهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى فمال بعضهم إلى بعض وقالوا : لن تجدوا محمد أقرب منه الآن فمن رجل يصعد على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن كعب : أنا ، فأتى رسول الله الخبر من السماء فانصرف عنهم فأنزل الله قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة : 11) ، وتسبب هذا الكيد منهم فى إجلائهم عن المدينة ونزلت سورة الحشر تقص خبر هذا الجلاء ﴿... هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ...﴾ (الحشر : 2) .

وواجهت هذه الأمة مؤامرة يهودية مشركة فبعد إجلاء بنى النضير ذهبوا إلى

يهود خيبر ومن هناك ذهب وفد من أشرافهم إلى مكة وألبوا أشراف قريش على حرب رسول الله والمسلمين وخرجت قريش عن بكرة أبيهم وانضم عدد كبير من العرب الضاربين فى الصحراء حتى صار عددهم عشرة آلاف وعلم الرسول بتجمع هؤلاء الأعداء فشاور أصحابه فرأوا أن يمكثوا فى المدينة ويحفروا حولها خندقاً يمنع وصول الأعداء إلى داخلها وتسابق المسلمون فى الحفر وكان عملاً مضنياً ليس لهم بمثله عهد وقد وجدوا فيه جهداً شديداً وزاد فى إجهادهم أن العدو جاءهم فى وقت قلت فيه المئونة واشتدت فيه البرودة وزادهم تعباً على تعب نقض بنى قريظة للعهد وانضمامهم إلى الأعداء فوقع المسلمون بين الأعداء من كل جانب مما جعلهم يقولون لرسول الله : ماذا نفعل وقد حضر ما ترى؟ فقال : قولوا : «**اللهم آمن روعاتنا واستر عوراتنا**» ويصور ربنا تبارك وتعالى هذه المؤامرة وحال المسلمين حيالها فيقول : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾**(الأحزاب : 9ـ11) ، ولكن الله كان مع المؤمنين بحفظه ورعايته وعنايته وتأييده . وصدق إذ يقول : **﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾**(الأحزاب : 25) ، وعاقب بنى قريظة على نقضهم للعهد والميثاق بينهم وبين النبى فمكن رسوله من رقابهم فنالوا عقابا لم ينله أحد من العالمين **﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** (آل عمران : 117) ، **﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾** (الأحزاب : 26ـ27) .

وواجهت هذه الأمة مؤامرات اليهود المتكررة من تشكيك فى العقيدة حينما أرادوا أن يدخلوا فى الدين أول النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب ثم يكفروا آخره بغية صرف المسلمين عنه وتشكيكهم فيه ولكن الله عصم عباده **﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** (آل عمران : 72) ، هذا إلى الوقيعة والدس بين الصفوف ومثل هذا الكيد «شاس بن

قيس اليهودى» ولولا فضل الله على المسلمين لعاد «الأوس والخزرج» إلى الجاهلية مرة أخرى وقد حاولوا صرف النبى عن الحق حتى يحكم بالهوى ولكن بين له وجه الحق وطريق الصواب ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة : 49ـ 50) .

وواجهت هذه الأمة وهى وليدةٌ ناشئةٌ مؤامرات المنافقين على سلامتها وأمنها واستقلالها فقد قام «أبو عامر الراهب» من أهل المدينة حقداً وحسداً على رسول الله لالتفاف الناس حوله وظهور أمره وعلو شأنه بتأليب كفار قريش على حرب المسلمين فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد وكان من أمر المسلمين ما كان ثم ذهب إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبى فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق فى المدينة وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء أوامره ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم لحرب النبى وأصحابه فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء وطلبوا من رسول الله أن يصلى فيه ليأخذ طابعاً دينياً شرعياً بهذه الصلاة فيه ولكن الله كشف سوءاتهم وفضح نياتهم وقال فى شأنهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة : 107ـ110) ، فأرسل رسول الله بعض أصحابه إلى هذا المسجد الذى ما أريد به وجه الله فهدموه وحرقوه وحفظ الله أحبابه من كيدهم .

وواجهت هذه الأمة مؤامرات الصليبيين حينما ظهرت لأول مرة فكرة الحروب الصليبية بحجة تطهير بيت المقدس من أيدى المسلمين الذى أساءوا للحجاج المسيحيين فى نوفمبر من عالم ألف وخمسة وتسعين من الميلاد ولم ينتهى الاجتماع الذى عقد من أجل ذلك حتى انتشر المتطوعون من الرهبان يبثون تلك الدعوة فى

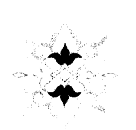
أنحاء أوروبا وأثمرت هذه الدعوة ثمرتها فحمل الصليبيون على الوطن العربى ثمانى حملات وارتكبوا فى هذه الحروب كثيراً من الجرائم والقتل ما تقشعر منه الأبدان فقد أفحشوا القتل فى المسلمين حتى هلك منهم عشرات الألوف وكانوا يكرهونهم على إلقاء أنفسهم من أى البروج والبيوت ويجعلونهم طعاماً للنيران ويخرجونهم من أعماق الأرض ويقتلونهم فوق جثث القتلى ودام الذبح فى المسلمين أسبوعاً كاملاً هلك فيه من المسليمن حسب إحصاء المؤرخين المنصفين سبعين ألفاً ولم تقتصر أعمالهم على قتل الناس بل تعداه إلى تخريب البيوت وهدم المنازل وقد أحرقوا دار الحكمة فى طرابلس وكان فيها من الكتب مائة ألف مجلد وتطاول بعض أمرائهم للذهاب إلى الحجاز ومهاجمة الأراضى المقدسة الإسلامية .

وكادت تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير نتيجة هذه الفوضى والهمجية لولا همة «صلاح الدين الأيوبى» وشجاعته وإيمانه بالعروبة والإسلام جعلاه ينهض لقتالهم وتطهير الشرق من كيدهم ورجسهم وبدأ أولاً بتوحيد الإمارات العربية وتقوية الجبهة الداخلية ولما تم له ذلك تقابل مع الصليبيين فى «حطين» وكانت معركة هائلة كبيرة كتب الله فيها النصر لصلاح الدين وجنوده والهزيمة والعار للصليبيين واسترد بيت المقدس منهم مرة أخرى ولم تقم لهم قائمة بعد هذه المعركة فكانت نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية .

وواجهت هذه الأمة مؤامرات التتار المتوحشين الذين جاءوا من آسيا كالسيل الجارف فاجتاحوا البلاد الإسلامية وقضوا على الحضارة العربية وأزالوا الخلافة العباسية من الوجود واستباحوا بغداد أربعين يوماً لم يتركوا فيها بيتاً إلا خربوه ولا مالاً إلا أخذوه ولا عرضاً إلا انتهكوه وكانت محنة قاسية تعرض لها العالم الإسلامى والأمة العربية وزاد من فداحة الأمر تحالف المغول والمسيحيين ضد الإسلام وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً إلى مصر ولا شك أن التتار تطلعوا بأنظارهم إليها وأرسل «هولاكو» رسالة تهديد إلى سلطانها يدعوه إلى الاستسلام ولكن «قطز» رفض هذه الرسالة بعنف وشدة قبل وصول «هولاكو» وجد فى المسير للقاء فى فلسطين وكان الله معه بالعون والتأييد والنصر ففى يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان من عام ستمائة وثمانية وخمسين للهجرة التقت جموع المغول مع المصريين بقيادة سيف الدين قطز فى «عين جالوت» ودارت معركة هائلة بين الطرفين

أسفرت عن هزيمة التتار لأول مرة فى تاريخهم هزيمة منكرة وتم النصر فيها للمسلمين وكانت العاقبة للمتقين.

واليوم تواجه هذه الأمة مؤامرات للصهيونيين والمستعمرين ولن نتغلب عليهم إلا بسلاح آبائنا وأجدادنا، سلاح الإيمان واليقين والوحدة والتضامن والأخلاق الفاضلة والبذل والتضحية والجهاد والكفاح وعندئذ يكون الله معنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: 7-8).



مع هلال شهر رجب

ثلاثة أشهر متواليات ما يكاد يقبل أولها حتى تنتبه العقول وتتهيأ القلوب وتستعد النفوس وتتوثب الأرواح تنتبه العقول النيرة التى أخلصها ربنا وصفاها وتتهيأ القلوب الطيبة التى طهرها الله واصطفاها، وتستعد النفوس الطاهرة التى تقبل بإخلاصها على مولاها وتتوثب الأرواح الخاشعة كى تشرف بضيافة ربها.

ما يكاد يقبل شهر رجب حتى يدرك الخاشعون من هذا البدء بداية الخير العميم ومقدم الفيض الإلهى الكريم ويعرف الصالحون أن أيام رمضان قد أوشكت وليالى العبادة قد قاربت وحانت.

ولئن كان الناس فى أيام الجاهلية الجهلاء وفى عصور الضلالة العمياء قد تنسموا أنسام الحرية والهدوء ونعموا باستقرار العيش الهانىء فى أربعة أشهر حرم من كل عام ورجب كان منها فإننا فى الإسلام قد وجدنا هذه المعانى كلها مضافاً إليها العبادة الخاشعة والأعمال الصالحة والدعاء المخبت المنيب على مدار العام كله ـ إذا انتفعنا بذكرياتنا الإسلامية العظيمة على وجهها الصحيح ـ فمن التهيؤ لرحلة العبادة فى شهر رمضان المبارك إلى التهيؤ لرحلة الحج إلى بيت الله الحرام فى شهور ثلاثة كذلك ومن التهيؤ لاستقبال شهر هجرة المصطفى ﷺ إلى التهيؤ لاستقبال شهر المولد النبوى الكريم وهكذا نعيش عامنا كله متنقلين بين أمجاد عظيمة سامية وأنوار ربانية ساطعة.

يأخذ شهر رجب موقعه بين شهور العام الهجرى بأنه كان رابع أربعة أشهر عظمتها العرب فى الجاهلية ـ كبقية بقيت لهم من شعائر الخليل إبراهيم عليه السلام ـ فحرموا فيها الحروب والقتال ومنعوا فيها المفاخرات والمنافرات وتنسموا فيها نسيم الهدوء واستقرار العيش الرغيد ووجدوا فيها الأمن على الدماء والأموال والأرواح وجاء الإسلام فأقرهم على ذلك، قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (التوبة: 36).

ومن هنا كان اسم هذا الشهر «رجب» من الترجيب ومعناه التنظيم إذ عظموه بترك القتال والغارات فيه وقد صادف فى هذا التعظيم فى الإسلام مكاناً كريماً فلما غير العرب وبدلوا فى وضع هذه الأشهر العربية ثم رجعت إلى وضعها الصحيح مرة ثانية عند حجة الوداع فى العام العاشر الهجرى فقد بينها رسول الله حتى لا يتعود الناس هذا التغيير والتبديل فيختلط بذلك حساب الأيام والعبادة وتضيع بذلك شهور رمضان والحج فجاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: فى خطبة الوداع **«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»**.

هذا وقد تعود الناس فيه مجموعة من العادات:

منها الصوم يوماً فى أوله أو ثلاثة أيام ولهم على ذلك أدلة يتناولونها ونحن نقول عن هذه الناحية: إن حكم الصيام المسنون فى الشريعة الإسلامية معروف فى كتب الفقه وكل الأيام تصلح لأن يتقرب فيها المسلمون إلى الله، فالصيام مسنون وعلى ذلك لا بأس فى أن يصوم الناس جرياً مع هذا الحكم ما شاء الله لهم أن يصوموا وحبذا لو صمت أيام الإثنين والخميس والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من هذا الشهر ومن غيره إذن لوافقنا سنة المصطفى ﷺ وأحيينا شعيرة من شعائر الدين وعملاً من أعمال السلف الصالح يوم أن كانوا يتقربون إلى الله بالنوافل.

أما أن يعتقد الناس أنه لابد من صيام اليوم الأول أو الأيام الثلاثة من أوله - ولابد - حتى صار هذا العمل عقيدة أصيلة عندهم فذلك ما لم ينقل عن النبى ولا عن أحد من أصحابه.

ففرق بين أن يكون الفعل عقيدة أمر بها الدين يعاقب المرء أو يعاتب على تركها وبين أن يعمل الإنسان عملاً بعيداً عن نصوص الشريعة وأهدافها فالأول دين والآخر عادة لا يأثم بتركها.

كذلك إن من عادة الناس فيه أن يقوم البعض بإقامة صلاة عرفت بصلاة الرغائب فى ليله أو جمعة من رجب وهذه العادة هى الأخرى ليست من شريعة

الإسلام فى شيء وكل ما عرف من أمر الصلاة أن صلاة الليل هى «التهجد» فى كل ليلة من الليالى على مدار العام حيث يطيب الوقوف للخاشعين بين يدى الله الواحد القهار والناس نيام وقد قال النبى ﷺ : «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين من قبلكم**» .

ومتى؟ فى كل ليلة وليس فى ليالى رجب فحسب فليصل الناس ما يحبون فى جوف الليل وليناجوا ربهم ما طابت لهم المناجاة وليعلموا أن صلاة الليل عبادة متقبلة حسنة بعيدة عن الشبهات والظنون فقد روى الجنيد ـ رحمه الله ـ بعد وفاته فقيل له : ما فعل الله بك يا جنيد قال : ضاعت تلك العلوم وذهبت تلك الرسوم ولم يبق لنا إلا ركيعات كنا نركعها فى وقت السحر » .

هذا ما يجب أن يفهمه الناس بهذه المناسبة أما ما عرف من صلاة رجب فذلك عمل لم يعرف من طريق صحيح عن صاحب الرسالة ﷺ ولا عن أحد من أصحابه والواجب علينا أن نقف فى أمور ديننا عند ما ورد على لسان الشرع الشريف .

وكلما جاء إلينا شهر رجب فإنه يذكرنا بأثر إسلامى كريم وعمل من أعمال البطولة والفداء ففيه أرسل رسول الله صاحبه عبد الله بن جحش ومعه رهط من المهاجرين فى سرية وكتب له كتاباً وأمره ألا يقرأ الكتاب إلا بعد يومين فسار عبد الله بمن معه يومين كاملين ثم فتح الكتاب فإذا فيه «**امض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم**» فقال عبد الله : سمعاً وطاعة وأطلع أصحابه على كتاب الرسول قائلاً : إنه نهانى أن أستكره أحداً منكم فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معى ومن كره ذلك فليرجع فلم يتخلف منهم أحد ومضى عبد الله ورفاقه حتى نزل أرض نخلة فمرت عير قريش فهاجمها عبد الله ومن معه فقتلوا من أفرادها رجلاً وأسروا رجلين ورجعوا بالعير والأسيرين إلى المدينة فقال لهم النبى ﷺ : «**إنى لم آمركم بقتال وأوقف قسمة العير حتى يقضى الله أمراً كان مفعول ا**» .

والظاهر أن هذا القتال وقع فى آخر يوم من أيام شهر رجب وهو اليوم الذى يشك الناس فيه : أهو من الشهر الحاضر أم من الشهر القادم؟ واهتبل المشركون هذه الفرصة وأشاعوا بين القبائل العربية : أن محمداً وأصحابه قد استباحوا حرمة الأشهر الحرم واستحلوا ما حرم الله وغير ذلك من الاتهامات فأسقط فى يد القوم ووقفوا حيارى ماذا يفعلون؟ وعيب عليهم فعلهم وعتب عليهم نبيهم .

ونحب أن نسائل هؤلاء المشركين عما فعلوا مع المسلمين فى مكة فقد صادروا

حرياتهم وأخذوا ثرواتهم واستولوا على ديارهم وتآمروا على قتل نبيهم ولم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة ولم يرعوا فى إيذائهم رحماً ولا قربة مثل ما تفعل إسرائيل تماما فى هذه الأيام تأخذ أرض العرب وتطردهم من ديارهم وتنهب أموالهم وتقتل الأطفال والشيوخ وتعتدى على القرى والمدن ثم تملأ الدنيا صياحاً وعويلاً : إسرائيل فى خطر، العرب يستعدون للمعركة لضرب إسرائيل، العرب يريدون الحرب ، العرب كيت وكيت وغير ذلك من الشعارات التى يملأون بها الدنيا شرقا وغربا فالهدف هو الهدف والغرض من فعل الأعداء فى كل وقت متشابه لا يختلف ولقد تحدث القرآن عن هذه القضية الزمنية المستمرة مع القرون والأجيال فقال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة : 217) .

عالج القرآن هذه القضية وشرحها شرحاً مستفيضاً مبيناً أبعادها فالقضية تستهدف الدين الحنيف والقضاء عليه فالأعداء ليست لهم حقوق اغتصبت وأخذت منهم فهم غاصبون من أجلها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ﴾ قل : ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (البقرة : 217)، هذا حق وصدق لا ريب فيه ولاشك معه ولكن اسمع ما هو اكبر منه وأعظم جرما وأقبح إثما من كل ما يدعون ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ ثم بين أن إيذاء المسلمين وإخراجهم من دينهم اكبر من كل هذا ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ .

ثم بين الهدف من كل هذه الأعمال وكان هو استئصال قوة الإسلام والمسلمين وضياع مجتمعهم من الوجود ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة : 217) .

ثم عطف على رجال السرية وتقبل توبتهم وعملهم وبين أنهم بعملهم هذا رجوا رحمه الله وثوابه ورضاه فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة : 218) .

هذه كلمة نقولها فى مطلع أيام الرحمات الإلهية ومع بداية النفحات الربانية وموسم الطاعة والخشوع، والعبادة والإحسان والصدقات المتقبلة .

مقدمات الإسراء والمعراج

أرسل الله نبيه محمد ﷺ رحمة للعالمين فقام بالدعوة إلى الله خير قيام وتحمل فى سبيلها الإيذاء والعنت والشدة وبدأ يدعو من يثق بهم سراً حتى نزل عليه قوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر : 94) ، فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ممتثلاً أمر ربه واثقاً من نصره ووعده ولما نزل عليه قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء : 214ـ216) ، جمع الأهل والعشيرة والأقارب وعرض عليهم الإسلام وقال لهم : **«إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا»** .

والناس عبيد الإلف منذ قديم فقد وقفت قريش فى طريق الدعوة وسخروا من النبى وصحبه فعاب آلهتهم وسفه أحلامهم ونال من عقولهم فثارت فى رءوسهم حمية الجاهلية غيرة منهم على أصنامهم وأوثانهم التى يعبدونها ويقدسونها من دون الله .

وذهبوا مرة إلى أبى طالب وشكوا إليه أمر رسول الله فردهم أبو طالب رداً جميلاً ولكنهم رأوا رسول الله ماضياً فى طريقه غير عابىء بهم فذهبوا إلى أبى طالب مرة ثانية وقالوا له : يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ومنزلة وإنا قد طلبنا إليك أن تكف عنا ابن أخيك فلم تفعل وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وتسفيه عقولنا وتكفير من مضى من آبائنا فإما أن تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبى طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له : يا ابن أخى إن القوم قالوا كذا وكذا فأبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق» فقال له الرسول ﷺ : تلك الكلمة التى لازالت تدوى فى أذن «الزمان» **«والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته**

حتى يظهره الله أو أهلك دونه» ثم بكى وولى . فقال له عمه : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا» .

ثم ذهبوا إلى أبى طالب مرة ثالثة فقالوا له : إنا نعطيك أحسن فتى فى قريش على أن تسلم إلينا محمدا نقلته فقال لهم أبو طالب : عجبا لكم تعطونى أبنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلون» .

عندئذ لجأوا إلى طريق آخر وهو طريق المفاوضات الجانبية بعيداً عن أبى طالب بينهم وبين الرسول علهم يجدون ما يثنى النبى عن هذه الدعوة فتشاوروا فيما بينهم فقال عتبة بن ربيعة «ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فى أمور عله يقبل منها بعضها ويكف عنا ؟ فقالوا له : قم يا أبا الوليد فكلمه .

فذهب إليه عتبة وهو يصلى بجوار الكعبة فقال له : يا محمد إنك منا حيث قد علمت حسبا ونسبا وإنك جئتنا بأمر عظيم فرقت به جماعتنا وسفهمت أحلامنا وعبت آلهتنا وكفرت من مضى من آبائنا وإنى أعرض عليك أموراً علك تقبل منا بعضها وتكف عنا .

فقال له : **قل يا أبا الوليد أسمع** فقال عتبة : يا ابن أخى إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه» فقال له رسول الله : «**أفرغت من كلامك يا أبا الوليد؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى فقرأ رسول الله ﷺ من أول سورة «فصلت» ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾** (فصلت : 1ـ8) ، . . . **واستمر يقرأ حتى وصل وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾** (فصلت : 13) ، فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك .

قام عتبة منصرفا فلما رجع إلى قومه سألوه فقال لهم: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه.. فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم» فقالوا: لقد سحرك محمد.

ولما لم تنفع هذه العروض لجأوا إلى حيلة أخرى فطلبوا منه أن يشاركهم فى عبادتهم يوما ويشاركونه فى عبادته يوما فنزل قول الله تعالى مبيناً ما يكون الرسول عليه وأصحابه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ (الكافرون).

ولما لم يجبهم إلى ذلك طلبوا منه أمر آخر أن ينزع من القرآن تلك الآيات التى تغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد على عبادتها من دون الله فيأتى بآيات أخرى أو يبدلها فأنزل الله قوله رداً عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: 15).

يأيس المشركون ورأوا أن المطالب والعروض التى عرضوها على الرسول لم تقبل منهم فأرادوا أن يسلكوا طريقاً آخر وهو تعجيز الرسول بطلب المعجزات الحسية فاجتمعوا وقالوا: يا محمداً إن كنت صادقا فى دعواك فأرنا آية نطلبها منك وما قصدوا بذلك إلا العناد والتعنت كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء: 90-94).

وإذا كان فى حياة كل رجل عظيم من وقف بجانبه يشد من أزره ويقوى من عزمه ويهون عليه الصعب فإن النبى كان له من ذلك فى حياته العامة عمه أبو طالب كما كان له فى حياته الخاصة زوجته صديقة النساء السيدة الطاهرة المطهرة «خديجة

بنت خويلد» ولن تتضح منزلتها ويعرف دورها فى الدعوة الإسلامية إلا إذا عرفنا أن بعض زوجات الرسل السابقين تمردن عليهم ولم تؤمن برسالتهم فصرن مثلاً سيئا للكفران والجحود قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم : 10) .

أما خديجة ـ رضى الله عنها ـ فكانت لرسول الله بمنزلة الأم الرءوم والأخت الحنون والزوجة المخلصة مسحت عنه ألم الدعوة ومشقتها وعنت قريش وأذاهم وكلامها غداة رجوع النبى من الغار حين فاجأه الملك بقوله : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق : 5) ، معروف ومشهور ومدون فى التاريخ ومسطور قال لها : **لقد خشيت على نفسى** قالت له : كلا واله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر» .

وأراد الله أن يمتحن رسوله فاختار إلى جواره أبا طالب ففقد الرسول بموته الدرع الواقى والرجولة الكاملة والمروءة النادرة ، والإخلاص الكبير ثم فجعه القدر مرة ثانية فماتت خديجة ففقد بموتها الحنان الغامر والوفاء الشامل والمودة الصافية وبذلك نكب الرسول بموتهما فى حياتيه العامة والخاصة حيث إن قريشا أصبحت لا تهاب فى محمد أحدا بعدهما .

ونظر الرسول فوجد مكة أصبحت خالية بعد وفاة العزيزين الراحلين وعز النصير فيها فأزمع الرحلة إلى الطائف عله يجد من ثقيف من يعينه على أداء الرسالة ولكن ثقيفا كان أخس نفسا مما ظن رسول الله فقابلوه أسوأ مقابلة وردوه أقبح رد وقالوا له : اخرج من بلدنا وأغروا به السفهاء والصبيان فحصبوه بالمدر وقذفوه بالحجر ومعه زيد بن حارثة يحاول أن يدفع عنه فنزل عليه جبريل وقال له : يا محمد إن الله أمرنى أن أكون طوع أمرك فى قومك لما صنعوه معك فإن أردت أن أهدم عليهم الأخشبين ـ الجبلين ـ فقال : «**لا يا أخى يا جبريل إنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**» فقال جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم» .

فى هذه الشدة الشديدة وفى هذا الوقت الصعب حدثت رحلة الإسراء والمعراج ونحن إذ نتحدث عن هذه المرحلة من حياة الرسول والدعوة الإسلامية التى سبقت الرحلة العظيمة فإننا نتوجه إلى الله فى شهر الإسراء والمعراج وفى تلكم اللحظة المباركة التى تخشع فيها النفوس، وتصفو القلوب أن يعيد إلينا قدسنا ومسجدنا الأقصى فقد حز فى نفسى عندما طلعت علينا مجلة الوعى الإسلامى فى شهر رجب من عام ١٣٨٩ هو شهر سبتمبر ٦٩ ومعها منظر لقبة الصخرة كتبت تحتها «أنقذها صلاح الدين فمن لها الآن؟ فقلت: نحن لها بإيماننا بقضيتنا وحقنا فى الحياة الحرة الكريمة نحن لها بتضامننا واتحادنا جيشاً وحكومة وشعبا، نحن لها نبذل فى سبيلها أعز ما نملك من نفس ومال والله معنا يؤيدنا وينصرنا على المستعمرين الظالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: 38).

من مدرسة الإسلام

عبد الرحمن بن عوف

إن أصحاب رسول الله ص قوم أنار الله بصائرهم وهذب نفوسهم ونقى أرواحهم وجعلهم الذادة عن الدين والحماة للإيمان والإسلام والمختارين لحمل رسالة الهدى والنور لما امتازوا به من إخلاص وصفاء وجبلوا عليه من رجولة ومضاء وطبعوا عليه من تضحية وفداء فكانوا نعم الجنود لأشرف رسالة وكانوا نعم الرجال لأعظم عمل وهذا حديث الله عنهم فقد قال الله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح : 9) ، ويقول النبى ﷺ عنهم : **«أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»** ولدينا فى يومنا هذا واحد من هؤلاء الأصحاب .

كان من السابقين الأولين وسيداً من سادات المسلمين صاحب الثراء الوفير والمال الكثير والتجارة الرابحة والأفكار المالية الراجحة أحد الرجال العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة ذلكم هو الصحابى القرشى الجليل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه .

« دخل رضي الله عنه فى الإسلام مع السابقين الأولين فكان من هؤلاء النفر الذين استجابوا لدعوة أبى بكر إلى الإسلام حين دعاهم إلى الذهاب إلى رسول الله والإيمان به قال ابن إسحاق : فجعل أبو بكر يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعائه فيما بلغنى عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا وكان ذلك قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم بن أبى الأرقم» .

وكما كان عبد الرحمن بن عوف من المسلمين السابقين فإنه ـ أيضاً ـ كان من المهاجرين الأولين فجمع الهجرتين جميعاً هاجر أولاً إلى أرض الحبشة ثم قدم منها

قبل الهجرة الكبري ثم هاجر ثانيا إلى المدينة وشهد مع الرسول غزوة بدر والغزوات كلها وآخى الرسول بينه وبين سعد بن الربيع فقال له سعد : أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه وتحتى امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها لك فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلونى على السوق فدلوه على سوق بنى قينقاع فتابع الذهاب والمجيء فاشترى وباع وربح وكثر بذلك خيره وربحه حتى حضر إلى الرسول ذات يوم وبه أثر زينة فقال له الرسول : **مهيم** - يسأله عن حاله - فقال عبد الرحمن : تزوجت امرأة من الأنصار فقال ﷺ : **فما أصدقتها؟** قال عبد الرحمن : وزن نواة من ذهب فقال رسول الله : «**أولِمْ ولو بشاة**» .

كان رضي الله عنه من أجل علماء الصحابة بما تلقى عن رسول الله قال ابن سعد فى الطبقات : كان عبد الرحمن بن عوف ممن يفتى فى عهد رسول الله وعهد أبى بكر وعهد عمر وعثمان بما سمع من رسول الله ﷺ وروى الطبرى : أن عمر خرج إلى الشام فلما بلغ أقرب مكان فيه أخبر أن وباء الطاعون قد نزل بأرض الشام فجمع عمر أصحاب رسول الله فاستشارهم فاختلفوا فوافق رأيه رأى القائلين بالرجوع وهم عمر بأن يرجع فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : إن عندى من هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إذا وقع الطاعون بأرض فلا تقبلوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه**» .

أوتى عبد الرحمن بن عوف ملكة واسعة فى التجارة وعبقرية فى الاستثمار فكان واسع الغنى مبسوط الرزق تاجر موفقا من هؤلاء التجار القلائل الذين يصحبهم الرزق الكثير حيثما حلوا أو رحلوا حتى عبر عن حالته هذه فقال : لقد رأيتنى ولو رفعت حجرا رجوت أن أجد تحته ذهبا أو فضة» وكان يقول عن المال : يا حبذا المال أصون به عرضى وأتقرب به إلى ربى» .

عاش الرجل حياته تاجراً يستثمر ماله وينمى تجارته وخيره يزيد ويكثر وتجارته تتسع وتعظم وثراؤه يمتد ويربو يتصدق على الفقراء وماله يكثر على الصدقه وينفق فى سبيل الله وغناه يمتد على الإنفاق فى سبيل الله روى المحب الطبرى أن قول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة :262) ,

نزل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وكان لعثمان صدقاته ونفقاته أما عبد الرحمن فقد جاء النبى ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة وقال : كان عندى ثمانية آلاف فأمسكت أربعة آلاف لنفسى وعيالى وأربعة آلاف أقرضها ربى عز وجل فقال النبى ﷺ : **«بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أنفقت»** .

وكان رضي الله عنه شديد البر والرعاية للفقراء والمساكين والسؤال عن أمهات المؤمنين وإكرامهن عن المسور بن مخرمة قال : باع عبد الرحمن بن عوف أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار فقسم ذلك المال فى بنى زهرة وفقراء المسلمين وأمهات المؤمنين وبعث إلى عائشة معى بمال من ذلك المال فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«لن يحنو عليكم بعدى إلا الصالحون سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة»** وفى الإصابة أن رسول الله ﷺ قال : **«الذى يحافظ على أزواجى من بعدى هو الصادق البار»** فكان عبد الرحمن بن عوف يخرج بهن ويحج معهن ويجعل على هوادجهن الطيالسة وينزل بهن فى الشعب الذى ليس له منفذ» هذا هو البر الصادق من عبد الرحمن ووفاؤه بأمهات المؤمنين .

سار عبد الرحمن بن عوف فى نفقة ماله على توجيه الإسلام فإذا كان للمال فتنته وغروره وكان له تأثيره على النفس وعلى المجتمع فإن الرجل كان ينفقه إنفاق الزاهد الراغب فيما عند الله يوم القيامة روى ابن عبد البر عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : دخل على عبد الرحمن بن عوف فقال : يا أمة قد خشيت أن تهلكنى كثرة مالى أنا أكثر قريش كلهم مالا قالت : يا بنى تصدق ـ وفى رواية أنفق ـ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه»** .

وعلى هذا رسم الرجل سياسته المالية فكان ينفق ويتصدق ويكثر من هذا وذاك وكان يزيده الله من فضله ويبسط له فى رزقه ويهب له البركة والنماء ومع النماء والبركة يزداد خوفه من هذا المال فربما يتحول إلى فتنة وغرور وبطر واستعلاء وبعد عن الله وانحراف عن طريقه ومنهجه روى عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال : **«إنى رأيت الليلة منازلكم فى الجنة ثم أقبل على أبى بكر وعرفه منزلته ثم أقبل على عمر وعرفه منزلته ثم أقبل على عثمان وعلى وطلحة والزبير وعرف كلا منهم منزلته ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف وقال : لقد أبطأوا بك عنا من بين**

أصحابى حتى خشيت أن تكون هلكت وعرقت عرقا شديدا فقلت لك : ما أبطأ بك ؟ فقتل : يا رسول الله من كثرة مالى مازلت موقوفا محاسبا أسأل عن مالى من أين اكتسبته وفيما أنفقته (فبكى عبد الرحمن وقال : يا رسول الله هذه مائة راحلة جاءتنى من تجارة مصر فإنى أشهدك أنها لفقراء أهل المدينة وأبنائهم لعل الله أن يخفف عنى ذلك اليوم) .

هذا هو مفتاح عمل الرجل الصالح «**لعل الله أن يخفف عنى ذلك اليوم**» ثم نرى جده الدائب وعمله المستمر للحصول على منازل الآخرة وعلى ذلك استجاب لعمل الخير والإنفاق فى سبيل الله ، روى ابن سعد فى الطبقات «أن عيراً سبعمائة راحلة قدمت المدينة من الشام فسمع لها بين أهل المدينة رجة فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ما هذه الزوجة؟ فقال الناس : هذه عير عبد الرحمن بن عوف سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام» وفى رواية تحمل من كل شىء . فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً** » فبلغ ذلك عبد الرحمن فأتاها فسألها عما بلغه فحدثته فقال : فإنى أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها فى سبيل الله عز وجل» وهذا قليل من كثير مما ورد من أخبار الرجل العظيم .

كان لعبد الرحمن بن عوف أفكار مالية رائعة وأعمال اقتصادية كبيرة تتضاءل أمامها أفكار الاقتصاديين فى العصور الحديثة عصور الحضارة والاقتصاد ويتضح ذلك حين سئل رضي الله عنه هذا السؤال : ما سبب يسارك وغناك؟ فقال : أسباب يسارى ثلاثة : ما رددت ربحاً قط ولا طلب منى حيوان فأخرت بيعه ولا بعت بنسيئة» ويقال : إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عقلها وباع كل عقال بدرهم فكأنه ربح فيها ألف درهم .

وإذا كان هناك من آيات الكتاب العزيز ما يصور فتنة النفوس بمتاع الدنيا من المال والنساء والذهب والفضة وغيرها من كل ما تستهويه النفوس فى مثل قوله تعالى : ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (آل عمران : 14) ، فإن عبد الرحمن بن عوف جعل همه الآخرة فقد زهد فى المال والمتاع وعزف عن الشهرة والجاه والمنصب .

عزف عن الجاه والشهرة وترفع على المنصب والخلافة وكان لها أهل حين طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسقط فى المسجد قال: أفى الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين هو ذا قال: تقدم فصل بالناس فصلى عبد الرحمن بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره ثم دعا عبد الرحمن فقال له: إنى أريد أن أعهد لك » قال عبد الرحمن: أتشير على بذلك؟< – أى أتأمرنى – قال عمر: اللهم لا قال عبد الرحمن « لا أدخل فيه أبداً» فعهد عمر بالخلافة إلى النفر الذى توفى رسول الله وهو عنهم راض ليختاروا الخليفة من بينهم وكانوا عثمان وعلياً وعبد الرحمن وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وجاء وقت الاختيار بعد وفاة عمر قال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلد تبعة الاختيار على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد فقال: فأنا أنخلع منها فقال عثمان: وأنا أول من رضى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أمين فى الأرض أمين فى السماء** » فقال القوم: رضينا » وعن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن قال لأصحاب الشورى: هل لكم أن أختار لكم وأنتفى منها فقال على: أنا أول من رضى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنت أمين فى أهل السماء وأمين فى أهل الأرض**» وعلى هذا تنازل عنها واختار لها غيره.

زهد فى متاع الدنيا وأقبل على الآخرة روى البخارى قال: أتى عبد الرحمن بطعام ـ وكان صائما ـ فقال: قتل مصعب بن عمير ـ وهو خير منى ـ فكفن فى بردة إن غطى رجلاه بدا رأسه وقتل حمزة وهو خير منى فلم يوجد ما يكفن له إلا برده ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام» وتكرر منه البكاء على الطعام قال نوفل بن إياس الهزلى: كان عبد الرحمن لنا جليسا وكان نعم الجليس وإنه مضى بنا حتى دخلنا بيته ودخل فاغتسل ثم خرج فجلس معنا ثم أتينا بصحفة فيها خبز ولحم فلما وضعت بكى عبد الرحمن فقلت له: يا أبا محمد ما يبكيك؟ قال: هلك رسول الله ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ولا أرانا أخرنا لما هو خير لنا».

وظل على هذه الحال من البكاء والزهد حتى لحق بربه رضي الله عنه .

الفصل الثاني

« من دروس السيرة النبوية »

1- من إرهاصات المولد النبوى .

2- نبى الهدى والنور

3- وإنك لعلى خلق عظيم .

4- الرسول الذي أنقذ الإنسانية .

5- محمد رسول الحياة .

6- الرسول معقد الكمالات الإنسانية .

7- ميراث النبوة .

8- من ثمرات الهجرة النبوية (1) .

9- من ثمرت الهجرة النبوية (2) .

10- دور الهجرة فى بناء دولة الإسلام .

11- الهجرة . . والجهاد .

12- صور من الهجرة .

13- مع الرسول فى الفتح الأعظم .

من إرهاصات المولد النبوى

حادث الفيل ونتائجه وإيحاءاته

ونحن نقترب ـ يوماً بعد يوم ـ من شهر الذكرى الكريمة شهر المولد النبوى الشريف يحسن بنا أن نقول : إن هذا المولد لم يكن بالمعنى المألوف فى ولادة ـ وليد يوم وليلة ـ وإنما مهدت له مقدمات وسبقته إرهاصات تؤذن بمقدمه وتعلن حضوره وتعلن على العالم كله شرقه وغربه وفى الأمة العربية على وجه الخصوص .

وكان حادث الفيل بداية تحول كبير فى حياة الأمة العربية وفى اتجاهها ودورها فى الأرض وأخذها لزمام القيادة من أمم أهلكتها عقائد فاسدة وعادات بالية .

وقد تلخص حادث الفيل فى أن قائد جيشاً كان فى أرض اليمن ولأسباب سياسية غلفت بغلاف دينى يطول شرحها أراد أن يهدم الكعبة بيت العرب ليصرف الحجاج منها إلى أرض اليمن فعبأ جيشه وساق فيلته وسار فى الصحراء حتى نزل قريباً من مكة موطن الكعبة ومهد العرب ثم أرسل إلى أهل مكة يقول لهم : «إنى لم آتى لحربكم وإنما جئت لأهدم البيت فإن لم تعرضوا دونه فلا حاجة لى بدمائكم» وأراد عبد المطلب سيد مكة وجد رسول الله ﷺ أن يفاوضه على أن تدفع له العرب من المال ما يريد ويرجع عن هدم البيت ولكنه أعرض عنه إعراضا وامتنع عن الرجوع امتناعا وتأبى عليه تأبيا .

وعاد عبد المطلب إلى قريش ليخبرهم بأن أبرهة مصمم على هدم البيت وأن جيشه قوى لا قبل لنا بحربه وفزع إلى الله أن يحفظ بيته وأن يدافع عن حماه وأشار على قريش أن يتحرزوا بشعب الجبال خوفا من معرة أهل الحبشة .

وأصبح صباح يوم من الأيام فأمر أبرهة جيشه بالدخول إلى مكة وساق الفيل أمامه كى يهدم الكعبة حجراً حجراً وبينما هم يعالجون أمر الفيل وهو يتأبى عليهم إذا جماعات من الطير قادمة من جهة البحر وحلقت فوق المعسكر وتساقطت من أرجلها ومناقيرها قطع صغيرة من الطين المتحجر فى حجم العدسة وما هى إلا لحظات حتى تفرق هذا الجيش المنظم القوى شذر مذر فى الصحراء لا يلوى أحدهم على شىء ، فقد أعملت فيهم هذه الحجارة معاول الإحراق والمرض والقتل والإبادة

ما لم تعمله أفتك الأسلحة وأعنف المدمرات حتى أبادتهم عن آخرهم وبهذا الوباء والإهلاك والإحراق الذى تفشى فى جيش أبرهة ارتد خاسراً مهزومًا وحفظ الله البيت الحرام ووقى قريشاً من السوء والمعرة .

هذا الطارىء الذى هد قوة الجيش الحبشى وحبس الفيل عن المسير نحو الكعبة كان حديث العرب كافة وكان آية من عناية الله بالكعبة وكان دليلا واضحاً وبرهاناً صادقا على أن قوة الله كانت فوق كل قوة وأن قدرته فوق كل قدرة وأن إرادته لا تغلبها أبداً إرادة وأنه يهب للضعيف من أسباب العون مالا يخطر ببال القوى وبعد هذا الحادث بأيام فوجئت مكة بحادث آخر كان له شأن خطير فى حياتها ودور كبير فى مستقبلها هذا الحادث الآخر كان ولادة النبى محمد ﷺ .

حادث الفيل لفت إلى مكة أنظار العرب وحادث ولادة النبى محمد لفت إلى مكة أنظار العالم كله فحادث الفيل كان أثره وقاية الكعبة من التخريب والهدم وحادث ولادة النبى محمد كان أثره تطهير الكعبة من الأصنام والأوثان حادث الفيل ابتدأ لقريش ذعرا وخوفا وهلعا وانتهى لها سلاما وأمنا وحادث ولادة النبى محمد ابتدأ لقريش وللعرب سرورا وبشرا وانتهى لهم عزة ومجدا .

فلا ريب أن يكون حادث الفيل إهاصا وتمهيدا وإيذانا بحادث خطير قريب الوقوع بمكة ولله حكمة بالغة وإرادة نافذة فى أن يكون حادث الفيل بمكة وأن تكون ولادة النبى محمد أيضاً بمكة وكلاهما فى عام واحد وبينهما أيام .

إن الله تبارك وتعالى أراد أن يثبت قلب النبى محمد ويطمئن فؤاده أن الله يحق الحق ويبطل الباطل وينصر الضعيف ويهزم القوى فلا تيأس بما يفعلون ولا تحزن بما يدبره قومك وما يكيدونك به فإن كيدهم فى ضلال وعاقبة أمرهم عاقبة أصحاب الفيل . قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل) .

إنه تماماً كما قال له : يشرح صدره ويطمئنه على سعيه - ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

﴿٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح) .

إن الله تبارك وتعالى أبطل كيد أصحاب الفيل ورده فى نحورهم وجعل تدبيرهم هواء . . . أرادوا هدم الكعبة فصرفهم الله عنها قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ (الطارق:15:17) ، وحاق بهم عاقبة المكر السيىء، قال تعالى : ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (غافر:25) .

إن الله ساق قصة أصحاب الفيل لتكون مثلاً حياً وعبرة صادقة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حرمات الله ومقدساته وإنه يملي للفجرة الطغاة حتى إذا أخذهم لم يفلتهم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:102) ، أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم ثمود ولوط وفرعون وهامان وقارون وأهلك أمما سادت وهدم حضارات قامت وكذلك فعل مع أصحاب الفيل لما طغوا وبغوا ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل:3:5) .

وهذا ـ من غير شك ـ مزيد من العناية الإلهية ببيته إذ أطلق على الأعداء أسراب الطير وجماعاته فرمتهم بالحصى من أفواهها ومن أرجلها حتى صيرتهم فى انحلال واضمحلال لا خير فيهم ولا غناء لهم وكذلك التقى مصير الطغاة البغاة بعضهم مع بعض قديماً وحديثاً على نظام واحد ونهاية واحدة ومصير واحد ـ قال تعالى : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:40) .

وهكذا أرسل الله جنوده الخفية على الطغاة والباغين إذا أراد إهلاكهم ومد كيدهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر:31) ، وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: 7) .

هذا هو حادث الفيل بنتائجه وآثاره وقد تحققت وآتت ثمارها ولكنه على الرغم من ذلك بقى ماثلاً في الأذهان والقلوب بايماءاته وأهدافه ودروسه وأول ماتوحى به هذه السورة إلى قلوبنا ونفوسنا أن الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يكل حماية بيته

إلى جماعة المشركين أهل مكة بالرغم من أنهم كانوا يعتزون به ويحمونه ويحتمون به فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة التى أرادت الاعتداء عليه أمام أبرهة وجنده ثم تدخلت القدرة الإلهية ساخرة عارية من كل اعتبار كى تدفع عن بيت الله الحرام حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة فى حمايته ولادفاع عنه بحميتهم الجاهلية ولعل هذا المعنى يرجح ترجيحاً قويا أن الأمر جرى فى إهلاك جيش إبرهة مجرى السنة الخارقة ـ لا السنة المألوفة المعهودة ـ جرى مجرى المعجزة الإلهية وليس على السنة البشرية .

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل الإلهى السافر لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش وتبادر العرب إلى الدخول فى دين الله حينما جاءهم الرسول ﷺ بهذا وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام وهذا هو التذكير لهم بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم والتعجيب من موقفهم العنيد قال تعالى ـ مبينا موقفهم العجيب للرسول ودعوته ـ ﴿**وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (القصص: 57) ، ويذكرهم بنعمة الأمن والعيش الرغيد : ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ (قريش) ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً من هذا كله .

وكذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنده ـ أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة حتى والشرك يدنسه والمشركون هم سدنته وخدامه ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين مصونا من كيد الكائدين» ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾ (آل عمران: 96-97) ، ولتبقى لعزة الأرض المقدسة حرمتها واستقلالها حتى تنبت فيها هذه العقيدة الجديدة . . عقيدة الإسلام ـ حرة من كل قيد طليقة من كل اعتبار لا يهيمن عليها سلطان ولا يطغى فيها طاغية ولا يهيمن أحد على هذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان كلها وعلى العباد أجمعين ويقود البشر لا يقاد» وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحداً أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام .

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمأن إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية ثم الصهيونية العالمية التي ولا تنى أو تهدأ فى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة فإن الله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون سيحفظه إن شاء الله ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين .

وكذلك توحى هذه الحادثة ـ حادثة أبرهة وجنده وفيله ـ بأن العرب لم يكن لهم دور فى الأرض فى الجزيرة العربية موطنهم بل لم يكن لهم كيان قبل الإسلام ولا عمل فى الحياة يعرفون به فكانوا فى اليمن تحت حكم الفرس المجوس عبدة النار من دون الله ، وكانت دولتهم حين تقوم فى الحيرة أو فى العراق لا تقوم إلا تحت حماية الفرس ورغايتهم ورضاهم وأما فى الشمال فكانت الشام كلها تحت حكم الرومان وسيطرتهم إما عن طريق مباشر ـ كما حدث فى أغلب فترات التاريخ ـ واما عن طريق غير مباشر وذلك بقيام حكومات عربية تحت حماية الروم نأتمر بأمرهم وتقف عند رأيهم وتقف فى وجه سطو القبائل العربية عليهم فهى ـ على كل حال أداة فى أيديهم ولا تملك من أمر نفسها شيئا .

ولم ينج من تحكم الأجانب المستعمرين ـ فرسا أو رومان ـ إلا قلب الجزيرة العربية ولكنه ظل فى حالة بداوة شديدة وقفر مفظع وفقر مدقع وصحراوية قاحلة وكذلك بقى فى حالة تفكك واضطراب وتناحر وتناكر وتقاتل وتنافر بحيث لا يجعل منه كل ذلك قوة حقيقية فى ميدان القوى العالمية قوة يحسب لها أو يجعل لها وزن أو يسمع لها صوت أو يكون لها رأى يرجع إليه ويؤخذ منه .

كان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل وتدوم أربعين سنة يفنى فيها العديد من الرجال ويزهق فيها الكثير من الأرواح ، ولكن لم تكن هذه القبائل على كثرتها مجتمعة ولا متفرقة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة وما حدث فى عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة التى كانت عليها القبائل العربية حين تتعرض لغزو أجنبى .

ثم جاء الإسلام وتحت راية هذا الدين الحنيف وفى ظلال هذه الرسالة الخالدة ولأول مرة فى تاريخ العرب فى شبه جزيرتهم صار لهم دور عالمى يؤدونه ويعرفه

الناس شرقاً وغرباً وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها فى المجتمع الدولى حساب وألف حساب قوة جارفة مدمرة تكتسح الممالك وتدمر الطغاة وتبيد الجبارين العتاة وتحطم العروش وتزيح من طريقها الأكاسرة والقياصرة ثم تتولى هى قيادة البشرية وتشرف بنفسها على خط سير الإنسانية بعد أن نحت القيادات الجاهلية الضالة المزيفة.

ولكن الذى هيأ للعرب هذا الدور ولأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب نسوا نعرة الجنس وعصبية العنصر ثم ذكروا أنهم مسلمون، ومسلمون ليس إلا ورفعوا راية الإسلام، وراية الإسلام وحدها، وحملوا عقيدة ضخمة قوية ورسالة رائدة سامية يهدونها للبشرية رحمة بها وبرا وسعادة للإنسانية وفلاحا وطمأنينة للدنيا وأمنا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الشورى: 52-53) وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۝٨٦ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (القصص: 86-87)، ويقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: 48-49).

لم يحمل العرب ـ فى انطلاقاتهم التى خرجوا بها على الناس ـ قومية ضعيفة محدودة ولا عنصرية حمراء أو بيضاء ولا عصبية قبلية من جنس ما كانوا عليه فى جاهليتهم بل كانوا وقافين عند قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)، ويقول جل شأنه فى آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1).

حمل المسلمون فى بداية أمرهم فكرة سماوية ورسالة دينية يعلمون الناس بها

لا مذهباً أرضياً أو مبدأ اجتماعياً يخضعون الناس لسلطانه وخرجوا من أرضهم جهاداً فى سبيل الله وحده ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون بخيراتها ويرتعون فى ظلها ويتأمرون تحت حمايتها ويشمخون بأنفهم استعلاء على الناس من أجلها ويخرجون الناس من حكم الرومان الطغاة ومن حكم الفرس العتاة إلى حكم العرب المتحكمين ولحكمهم أنفسهم قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: 1:3).

قام المسلمون ـ بدافع من رسالتهم ـ ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد الفارسى: إن الله تعالى ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عَدل الإسلام» ذلك ـ من غير شك ـ مصداقاً لقول الله العلى القدير: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 83-85).

فى هذه اللحظة كان للعرب وجود وكانت لهم قوة وكانت لهم قيادة ولكن هذه القوة وتلكم القيادة كانت كلها لله وفى سبيل الله وقد ظلت لهم قوتهم وقد ظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الصراط المستقيم وما عملوا بقول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن: 16)، وما حققوا أمر رسول الله فى قوله: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

ولما انحرفوا عن رسالتهم وذكروا عنصريتهم وعصبتهم وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم المجاورة لأن الله ـ وهو الحكم العدل ـ قد تركهم حينما تركوه ونسيهم حينما نسوه جزاء وفاقاً وعقاباً وقصاصاً فليس عنده محاباة ولا مجاملة وإنما عدل مطلق وحكم صائب وصدق الله ـ وهو يحذر من سوء هذا المصير فيقول: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: 19).

وما العرب بغير الإسلام؟ إنهم لم يكونوا شيئا مذكورا ما الفكرة التى قدموها للبشرية؟ أو يملكون تقديمها إذا هم تركوا الفكرة الإسلامية والحضارة الرائعة والمبادىء السامية التى طلعوا بها على العالم؟ .

وما قيمة أى أمة لا تقدم للبشرية فكرة؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة والأمم التى لم تكن تمثل فكرة - كالتتار - الذين اجتاحوا الشرق - والبرابرة - الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب - لم يستطيعوا الحياة طويلاً إنما ذابوا فى الأمم التى فتحوها ودخلوا إلى ديارها وعاشوا مع أبنائها فوق أرضها .

والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الإسلامية ورسالة الإيمان والعدل والمساواة والحرية والعزة والكرامة وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم فى الأرض وظيفة ولم يعد لهم فى التاريخ دور ولم يعد لهم فى العالم صوت ولا رأى ولم تعد تسمع لهم الدنيا كلمة .

فهل تفهم الأمة العربية دورها فى الحياة؟ وهل تعود إلى سالف مجدها؟ .

نبى الهدى والنور

دخل علينا شهر الربيع ولشهر الربيع هزة وطرب لدى النفوس المؤمنة والقلوب المطمئنة .

وكيف لا تهتز النفوس له وتطرب القلوب لمقدمه وفيه ولد منقذها ﷺ الذى أنقذها من الضلال وأرشدها من العمى . فلقد كان العالم قبيل ظهور النبى ﷺ مضطربا يعيش فى جهالة وضلالة غارقاً فى قذارة عقلية وأخرى نفسية وثالثة اجتماعية .

وكانت جهالة عقله فى تمسكه بهذه العقائد الوثنية الصبيانية وغير ذلك من العقائد التى كانت تشيع فى المجتمع آنذاك ، حسبكم أن تعرفوا ـ لتروا مقدار فساد العقيدة فى هذا الوقت ـ أن الرجل فى سفره كان يصنع له إلها من الحلوى أو من العجوة ويعبده من دون الله ويتسمر يناديه ويناجيه ويقدم له من فروض الولاء والطاعة ما يقدمه المؤمن لله رب العالمين حتى إذا جاع أكل هذا الإله الذى كان يعبده منذ لحظات .

وكانت ضلالة نفسه فى قيامه بهذه الأفعال الذميمة من السلب والنهب والطمع والجشع دون ما وازع من نفس أو رادع من ضمير وحسبكم أن تعرفوا ـ لتروا مقدار فساد النفس حينئذ ـ أن الرجل كان يقتل ابنته الصغيرة خشية الجوع والفقر كأنه هو الذى يرزقها وكأن الله خلقها ولن يرزقها قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: 58-59) .

وكان اضطراب المجتمع فيما يشيع فيه من الاضطراب الفوضى وعدم الاستقرار والهدوء وحسبكم أن تعرفوا ـ لتروا مقدار فساد المجتمع فى الجزيرة العربية من التفكك والإنهيار والتفرق والانقسام والحروب والغارات ـ أن الرجل كان يقتل أخاه لشىء تافه حقير وقد تقوم الحرب بين القبائل وتدوم سنين طويلة من أجل ناقة أو جمل .

كان هذا يحدث فى المجتمع العربى وقل مثل ذلك فى المجتمع الفارسى وفى المجتمع الرومانى وفى غيرهما من المجتمعات .

فى مجتمع الفرس كانت عبادة النار فاشيه يعبدونها ويقدسونها من دون الله ويقدمون لها القرابين وفى مجتمع الرومان كانت طبيعة الإستبداد والطغيان طاغية وانقسام المجتمع إلى طبقات تكيد كل منها للأخرى وأوروبا لم تكن شيئاً مذكورا كانت عبارة عن أناس يعيشون عيشة الهمل لا راعى لهم ولا صاحب .

هكذا كانت حال المجتمع قبيل المولد النبوى كان كما يقول بعض الكاتبين «عالماً خلاصة ما يقال فيه : أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام» فساد عريض استشرى فى جميع أنحاء الدنيا وعم جميع الأمكنة والجهات فلم تكن جهة أشرف من جهة ولا بقعة أطهر من بقعة .

وأراد الله بهذا العالم خيرا أراد بالإنسانية برا وإسعادا وبالبشرية رحمة وأمنا أراد الله تطهير هذه النفوس من ضلالاتها وجلاء هذه العقول من ظلامها وقوة هذه العقائد بعد أن أضعفتها عبادة الأصنام والأوثان ونقاء هذه الأرواح بعد أن طغت عليها الأجسام بالشهوات والأهواء وصفاء هذه القلوب بعد امتلائها بالحقد والبغضاء والكراهية فكان حادث المولد النبوى الشريف فاتصلت السماء بالأرض مرة أخرى بعد أن فصلت بينهما الشهوات والمآثم فكانت عطية ربانية ومنحة إلهية تجلت على الدنيا من جديد، قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (آل عمران: 164) .

لقد أذن الله للإنسانية بهذا المولد النبوى الكريم أن تخرج من فساد الرأى إلى هداية القلب ومن ظلمات الضلال والجهل إلى نور المعرفة والعلم ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً** ﴾ (الأحزاب: 45-47) ولقد سرى هذا النور وانساب فأضاء جوانب الدنيا كلها وأزاح كل ما فيها من ظلام وبغى ومسح كل أثر للشك والريبة ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: 15-16) .

لقد كان النبى محمد ﷺ نوراً ينير قلوب البشر أجمعين مثل ما تنير الشمس فى وسط السماء وان هذا النور يخامر الأفئدة الصادقة ويسرى إلى العقول النيرة ويختلط بالقلوب المؤمنة فيخلص المؤمنين من ظلمات الحيرة والطيش ومن ظلمات التخبط والشرك ومن ظلمات الرذيلة والجهل والضلال ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 257) .

لقد كان النبى محمد ﷺ نوراً فى نفسه وعقله نورا فى نبوته ورسالته نورا فى قوله وفعله نورا فى نور أو نورا على نور وكان يدعو الله أن يحوله إلى قطعة من نور لا تنطفىء أبدا فكان يقول ﷺ : «**اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا وعن يمينى نورا وخلفى نورا وفى عصبى نورا وفى لحمى نورا وفى دمى نورا وفى شعرى نورا وفى بشرى نورا**» إنه يحب نور العلم والمعرفة نور الإيمان والإسلام ويكره الظلام لا ظلام الليل ولكن ظلام الجاهلية ظلام النفاق والشرك ظلام الانقطاع عن الله والبعد عن ساحته .

والإسلام الذي جاء به النبى محمد ﷺ نور يستهدى به الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباين معرفتهم وطوائفهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: 174) ويقول الله تعالى : ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52) ، وقال عز شأنه فى آية أخرى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (التغابن: 8) .

ولقد قال النبى محمد ﷺ قبيل وفاته بعد أن أدى الرسالة وبلغ الأمانة وكشف الغمة وجاهد فى الله حق الجهاد : «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله وسنة رسوله**» وقال ﷺ : «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال**» فهل نحن قائمون بما أمر به الإسلام الذى جاء به الرسول ﷺ من عند ربه؟ وأغلب الظن . . لا!! .

إن الناس فى هذه الأيام أصبحت قلوبهم مغشوشة وضمائرهم خربة أتدرون ما غش القلوب؟ إنه الحقد والبغضاء والحسد والكراهية والعجب والكبرياء والملق والنفاق وهى أمراض نفسية كفيلة بأن تهلهل إيمان الإنسان وتمسخ دينه وتشوه إسلامه . . وتقضى على عقيدته .

وقد أردك النبى هذه الحالة وعرف ما يؤول إليه أمر المسلمين فى المستقبل من تأخر وانحطاط وذل وهوان وضياع نتيجة ابتعادهم عن أصول هذا الدين وهداه فقال : «**لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . .**» قيل : يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال : **فمن؟**» يريد أن يقول : ستبتعدون عن هذا الدين كما ابتعد اليهود والنصارى عن دينهم وستفعلون المنكرات كما فعلوا والحق : أننا كذلك فى هذا العصر فقد ابتعدنا كثيرا عن أصول ديننا وتعاليم نبينا وأصبحت هذه التعاليم غريبة علينا وصرنا بعداء عنها .

إن الإسلام الذى جاء به النبى محمد ﷺ نور ولست أدرى كيف ينتسب إليه شخص مطموس القلب مغلق الفؤاد مظلم النفس ردىء الفعال؟ إنه شخص لم يسطع عليه بعد جلال المعرفة ولم يبدد ظلام نفسه نور اليقين .

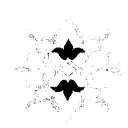
ولكن كيف نحتفل بهذه الذكري احتفالا يليق بعظمتها وجلالها؟

إنه ما يكاد يقبل شهر ربيع مع كل عام هجرى جديد حتى يهب الناس ثم يشرع كل منهم فيما يحسن من قول فهذا قد كتب مقالة فى صحيفة وهذا قد ألقى قصيدة فى حفل وهذا قد أقام حفلاً صاخباً وهذا قد أعد خطبة بليغة مؤثرة فإذا انتهت الذكرى عاد كل إلى نومه ورجع إلى غفلته وكأن لم يكن هناك شيء يستحق الانتباه .

وما هكذا تكون الذكرى العظمى لم تكن ذكري رسول الله محمد بن عبد الله لتجعل شارة فى حفل أو مقالة فى صحيفة أو كلمة فى قصيدة وإنما كانت لتهز القلوب وتحرك المشاعر الخامدة وتبعث النفوس الراقدة وتقضى على عوامل الضعف والخور فى المجتمع وتأخذ النفوس إلى طريق الحرية والعزة والكرامة والاستقلال وتحلق بهم فى مستوى رفيع من العلم والتقدم والإيمان والمعرفة والعقائد السامية والمبادىء العليا .

إن قصة رسول الله ليست مسلاة يقتل بها الفارغون أوقات فراغهم وإنما كانت دستوراً للحياة ونظاماً للمعيشة وأساساً للعلم وأسلوبا للدولة وقواماً للأمة وإصلاحاً للدنيا .

هذه هي رسالة رسول الله وهذه كانت حياته «**كان خلقه القرآن**» وذلك ما ينبغي أن يتعلمه الناس من هذه المناسبة فهل يعود الناس إليها يأخذون منها العبرة ويستمدون منها القوة والعزة والمجد والسؤدد ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب: 21) .



وإنك لعلى خلق عظيم

منح الله نبينا محمد ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه أحدا من قبله ولا بعده، وحباه من خصال الجلال والكمال ما هو طبيعى ضرورى دنيوى وما هو مكتسب دينى ربانى وآتاه من صفات الجمال الجسمانى والكمال النفسانى ما أناف على الغاية وبلغ فيه النهاية وإن شئت فقل: أوتى رسول الله كمال الخلقة والخلق.

ولقد كان النبى محمد ﷺ كامل الخلقة جميل الصورة قوى العقل صحيح الفهم فصيح اللسان قوى الحواس والأعضاء معتدل الحركات شريف النسب قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس فى وجهه وإذا ضحك يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر» وقال الإمام على رضي الله عنه فى وصف رسول الله: من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

ولئن كان الناس فى العصور الحديثة يهتمون بالنظافة ويخصصون لها أسابيع معينة أو أوقاتاً من السنة ويطلقون عليها اسم «يوم أو أسبوع» النظافة فإن النبى ﷺ قال: «**بنى الدين على النظافة**» وكانت النظافة من أحب الأشياء إليه قال أنس خادمه: «ما شممت عبيرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله» وعن جابر بن عبد الله: أنه ﷺ مسح خده بيده قال: فوجدت ليده بردا وريحا كأنما أخرجها من جؤنه عطار» ـ مجمع المسك عنده ـ.

ولئن كانت النفس البشرية بطبيعتها ميالة إلى الإكثار من طيبات الدنيا وشهواتها من الطعام والمال والشراب فإن النبى قد فطم هذه النفس وألزمها الجادة فى كل شىء حتى استقام أمرها ورقت حواشيها وأصبح كلامه كلام المربى الرحيم والطبيب الحكيم واسمعوا قوله فى هذه الناحية وهو يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاء قط شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**» وقالت عائشة: «لم يمتلىء جوف النبى ﷺ شبعاً قط وأنه كان فى أهله لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب» وقد زهد فى حطام هذه الدنيا وشهواتها فروى أنه قال لجبريل ذات يوم: «**والذى بعثك**

بالحق ما أمسى لآل محمد سنة من دقيق ولا كف من سويق فأنزل الله أحد ملائكته يقول له: يا محمد إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرني أن أعرض عليك أن أسير إليك جبال تهامة ذهبا وفضة وزمردا وياقوتا فإن شئت كنت نبيا ملكا وإن شئت كنت رسولا عبدا فقال رسول الله: بل نبيا عبدا» .

ولقد آثر ذلك واختاره ولم يزل ضجيج المشركين يدوى حوله طالبين إليه أن يكون ملكا غنيا ومستكثرين عليه أن يكون رسولا نبيا ﴿**وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا**﴾ (الفرقان: 7 - 8) .

أما الأخلاق العلية الندية من العلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والعفو والعفة والصلاح والإخلاص والتواضع والجود والشجاعة والحياء والمروءة والتؤدة وحسن الأدب والمعاشرة والوفاء والرحمة فحدث عنها ولا حرج فقد حازها رسول الله من كل نواحيها وضمت إليه من أطرافها وحواشيها ويضيق بنا المقام عن استعراض هذه الشمائل المحمدية وحسبنا من البحر قطرة، وسنقف عندعلم رسول الله وحلمه وحسن معاشرته وأمانته لنعلم أنه قد بلغ فيها النهاية فقد كانت تجيء إليه وفود العرب فيخوض معهم فى أحاديث شتى فى أمور الدين والدنيا وحوله أصحابه يجلسون ما يفهمون شيئا مما يقول: قال الإمام عليٌّ يا رسول الله إنا بنو أب واحد وعشيرة واحدة وأراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم فمن أدبك؟ قال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**» .

وكلامه بلغ الذروة العليا فى الفصاحة والبلاغة وهو دستور جامع لمسائل الدنيا والآخرة ولا بأس من عرض طائفة من هذا الكلام النبوى قال: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**» وقال: «**الناس كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**» وقال: «**رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم**» وقال: «**إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون**» وقال: فى هذا التضرع المخبت المنيب ـ «**اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتصلح بها دغائبي وتزكي بها عملي**

وتلهمني بها رشدى وترد بها ألفتى وتعصمين بها من كل سوء اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء ومنزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء» وغير ذلك من الأحاديث التى حفلت بها الأسفار الكبار وليس لنا من حديث عن العلم النبوى إلا أنه هبة الله العليم الخبير لحبيبه ومصطفاه من خلقه ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ (النساء: 113) .

وأما الحلم فلم يكن يجار فيه رسول الله أحدٌ فحينما بعث بالرسالة ووقفت قريش فى طريقه وسخروا منه ومن دعوته وقالوا: معلم مجنون وتطاولوا عليه وآذوه واضطهدوا أصحابه وتتبعوهم فى كل واد أراد أن يخرج إلى الطائف موطن ثقيف عله يجد فيهم نصيرا يعينه على أداء رسالته بعد أن فقد النصير فى مكة وما كاد يعرض عليهم الدعوة حتى هبوا فى وجهه وقابلوه أسوأ مقابلة وقالوا له: اخرج من بلدنا وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل أغروا به السفهاء والصبيان فقذفوه بالحجارة حتى ادموا قدميه فاهتز العرش ورجفت السماء نتيجة تضرعه ودعائه «**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمين أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى غير أن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**» ونزل عليه ملك الجبال فى هذه اللحظة وقال له: يا محمد إن الله أمرنى أن أكون طوع أمرك فى قومك لما صنعوه معك فإن شئت هدمت عليهم الأخشبين» فقال: « **لا إنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**» فقال: صدق من سماك الرءوف الرحيم» .

ولما فتح الله عليه مكة وأذعنت له قريش بعد كفاح وحروب دامت عشرين عاما ووقفوا بين يديه أذلة صاغرين قال لهم: يا معشر قريش «**ما تظنون إنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء**» .

وبذلك سن مبدأ قويما فى العفو عند المقدرة لم يكن موجوداً من قبل وكان بهذا المبدأ فريداً بين الفاتحين السابقين منهم والآخرين الأولين منهم واللاحقين حيث

كانوا يقتلون أعداءهم ويأسرونهم ويأخذون أموالهم ويحرقون ديارهم بعد أن يتمكنوا منهم.

جاء إليه أعرابى ـ ذات يوم ـ وقال له: يا محمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك وجذبه من برده جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى عنقه فسكت رسول الله ثم قال: «**المال مال الله وأنا عبد الله ورسوله ولكن يقاد منك يا أعرابى فقال: لا!! فقال رسول الله: ولم؟ فقال الأعرابى: لأنك لا تجزى السيئة بالسيئة ولكنك تقابل السيئة بالحسنة وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** » (التوبة: 128)، وصدق رسول الله إذ يقول عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداة**».

وأما الشجاعة والنجدة فليس لنا من حديث عنها سوى شهادة رجلين من أصحابه قال على بن أبى طالب ﷺ: كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» وروى أنس بن مالك ﷺ كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً قد سبقهم إليه واستبرأ الخير على فرس عرى لأبى طلحة والسيف فى عنقه وهو يقول: **لن تراعوا**...

والمعروف من شمائله أنه كان سمحا لا يبخل بشىء أبدا شجاعاً لا ينكص عن حق أبدا عدلاً لا يجور فى حكم أبدا صدوقا أمينا فى أطوار حياته كلها.

وكان دائم البشر سهل الطبع لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عتاب ولا مداح قالت عائشة: ما كان أحداً أحسن خلقا من رسول الله ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لبيك».

هذا غيض من فيض من أخلاق رسول الله نضعها أمام الناس فى العصور الحديثة علهم يعودون إليها بعد طول غيبة ويقبلون عليها بعد طول جفوة ويعرفون أن فيها عزتهم وكرامتهم وحريتهم واستقلالهم، وصدق الله حيث يقول: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** (الأحزاب: 21).

فى ذكرى المولد النبوى

الرسول الذى أنقذ الإنسانية

الاحتفال بالزعماء والعظماء نظام معروف عند الأمم والشعوب عرفته كل أمة وقام به كل شعب حتى صار أمراً مقرراً عند العام والخاص.

وعلى ذلك تقوم فى العالم الإنسانى اليوم ذكريات كثيرة واحتفالات كبيرة لأناس عظماء ونابهين يعرف الناس عنهم أنهم مدينون لهم بقاعدة رياضية فلسفية أو بعقيدة دينية اصلاحية أو بنظرية سياسية اجتماعية أو بحقيقة علمية خلقية أو بتجديد فى أى ناحية من نواحى الحياة الإنسانية ولم نجد رجلاً واحداً من هؤلاء الزعماء النابهين ولم نعلم أن عظيما من هؤلاء العظماء جمع بين شأنين أو ثلاثة من هذه الشئون الإنسانية إلا النبى محمد ﷺ فقد جمع بينها جميعاً فهو رسول الديانة العامة الجامعة وهو نبى الرسالة الدائمة الخالدة التى وسعت الأمم والشعوب والجماعات وهو الداعية التى ستبقى دعوته إلى قيام الساعة وهو معلم الحكمة والكتاب ومصلح الأفكار والمذاهب وهو الذى وضع أكمل الأساليب العلمية وأفضل الخطط العملية واعظم نظم السياسة وهو الذى جدد كل الأمور التى تهم الإنسانية مما جعل فيه بحق (منقذ الانسانية) ونحن نقولها بعد أن رأينا تحولا واضحاً للدنيا كلها بعد مجيئه ﷺ برسالة ووجدنا العالم ينتقل من ظلمات الغى والجهالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ....﴾ (المائدة: 15).

فقد أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية يوم وقف على باب الكعبة المشرفة بعد أن أتم الله عليه فتح مكة وأمكنه من رقاب المشركين وسقطت المعارضة القرشية الوثنية بعد عشرين عاما من الكفاح والجلاد والحروب وانتظر الناس ما يفعل بهم هذا المنتصر بعد أن تمكن منهم فاشرأبت إليه الأعناق ونظرت العيون ووجفت القلوب ولم يدم هذا المشهد طويلاً بل قطع حبل الصمت رسول الله حين قال لهم فى تواضع ورحمة وخشوع لله على هذه النعمة: **«يا معشر قريش يا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا ـ فى ذلة وانكسار وخوف وهلع ـ خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال: أقول لكم كما قال يوسف لأخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

وكان الرسول بهذا العمل العظيم الذى اتصف بالرحمة والرأفة والشفقة والتسامح والعفو عند المقدرة على خلاف ما كان يحدث من الملوك الفاتحين حيث كانوا يتبعون ما تمليه عليهم سياسة القوة الغاشمة الطاغية ونظام القهر والإذلال والجبروت فيدكون عمران المدن التى يستولون عليها ويسلبون أموالها ويستذلون أهلها ويبيدون خضراءها ويأخذون ثرواتها ويتركونها خرابا بلقعا تلك كانت سنة الفاتحين ونظام المتغلبين من قبل النبى محمد وهو الأمر الذى قالت عنه ملكة سبأ حين وصل اليها كتاب سليمان يأمرها فيه بالدخول فى الاسلام كما حكى القرآن عنها فى قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾(النمل :34) أماالنبى محمد فلم يكن ملكا وانما كان رسولا نبيا ولم يكن جباراً بل كان رحمة للعالمين ولم يكن فاتحاً بل كان مبشراً ونذيرا ولم يكن مشعل حروب بل داعية سلم وزمان ونبى رحمة وهداية .

وقد أنقذ النبى محمد الإنسانية حين أعلن مبدأ المساواة والعدل بين الناس جميعاً فلا فرق بين غنى وفقير ولا بين أبيض وأسود ولا بين عربى وأعجمى فقد روى أنه قال فى خطبة الوداع : «**ايها الناس إن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب** » وبذلك قضى على الطبقية والفوضى وأجهز عليهما .

وكان الرسول بهذا العمل العظيم فريداً بين المصلحين والمفكرين فلقد تعارف الناس على الطبقية حتى صارت عندهم عرف مألوفا ونظاما معروفا .

عرف الناس الفوارق بين الطبقات على عهد اليونان فكانت طبقة الفلاسفة والمفكرين ولها كل شىء من الجاه والامتيازات وسمو المكانة والدرجة وطبقة الجنود وفى يدها مقاليد الحكم والسلطان والسيطرة والطبقة الدنيا من عمال وخدم وليس لهم شىء سوى أن يكونوا ـ هكذا ـ عمالا وخدما .

وكذلك عرف الناس الطبقية فى الدولة الرومانية فكانت طبقة الحكام ومنهم كل أمر وعنهم يصدر كل نهى ولهم الطاعة والسلطان . وطبقة الأعيان والتجار ومعهم

المال والثراء والغنى ووسائل الحياة المترفة وطبقة الشعب والكادحين وليس لهم من وسائل الحياة غير الفقر والحرمان.

كما وجدت الطبقية عند اليهود - وهم كما يزعمون أهل كتاب - فقالوا: إنهم شعب الله المختار وما عداهم «جوييم» عبيد وخدم لهم وليس لهؤلاء العبيد والخدم من شعوب الأرض من وسائل الحياة إلا أن يظلوا هكذا عبيداً وخدماً.

وقد سرت هذه الآفة (الطبقية) إلى المجتمع العربى فقال العرب عن غيرهم «أعاجم» أما هم فدم عربى وجنس أصيل لا يصح أن يختلط بغيره وحرموا زواج العربية بالعجمى وحكاية كسرى ملك الفرس مع النعمان بن المنذر معروفه ومشهورة فى كتب الأدب فقد طلب كسرى من النعمان أن يزوجه ابنته فرفض النعمان هذا الطلب بحجة أنه عربى أصيل وكسرى من الأعاجم وليس لها بأهل وعلى الرغم من أن كسرى قتل النعمان من أجل ذلك إلا أنه لم يستطع أن ينتصر على الإرادة العربية فى حرب طاحنة.

جاء الإسلام فأعلنها صيحة عالية وكلمة صريحة مدوية حرباً على الطبقية جلجل بها صوت الداعى الأمين لأول مرة فى تاريخ الدنيا **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات: 13). وكان من أثر هذه التعاليم التى نادى بها الإسلام أن رأينا عبدا حبشيا أسود «بلال بن رباح» يسمو به إسلامه حتى يجعل منه المؤذن الأول فى الإسلام.

وقد أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية حين أبطل التعاظم بالآباء والتفاخر بالأحساب والأنساب وقال لأهله: «**لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم**» وقال ﷺ: «**إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء**».

وصار هذا المبدأ نظاما عاما يهتدى به الناس على اختلاف أجناسهم فلم يعرف بين المسلمين تفاخر بالآباء كما عرف فى الجاهلية ولما جلس بعض الصحابة - وكان معهم سلمان - وصاروا يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم وقال أحدهم لسلمان: ابن من أنت يا سلمان؟ فقال: أنا ابن الإسلام» وعلم عمر بن الخطاب بذلك فبكى

وقال: وعمر - أيضا - ابن الإسلام» وصار يكررها والدمع ينهمر من عينيه» وعلى هذا الأساس يحترم الناس بعضهم بعضا ولا يحقر شعب شعبا ولا فرد فردا.

وقد أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية عندما أعلن مبدأ احترام الأنفس والأموال والأعراض حتى لا يبغى أحد على أحد ولا تأخذ أمة حق أمة أخرى وقال: «**أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه**».

وهذا المبدأ طالما تطلعت إليه الإنسانية منذ زمن طويل حيث كانت الأموال هدفا لكل طامع قوى وكانت الأعراض نهبا لكل مستبد وكانت الأنفس سلبا لكل حاكم فاتح، أما فى شريعة الإسلام فصينت من كل عابث أما فى رسالة محمد فحفظت من الضياع والإعتداء وحبذا لو فهم الناس هذا المبدأ العظيم إذن لذهب من حياة العالم صور الجشع والطمع والاستغلال والرشوة والربا وأكل مال اليتيم وضياع الحقوق.

وقد أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية حين قرر مبدأ الشورى مبدأ للحكم ونظاما للإدارة حتى يتساوى الناس جميعاً فى الحقوق والواجبات وحتى لا ينهضم حق ضعيف لضعفه ولا يأخذ قوى أكثر من حقه قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾(آل عمران:159)، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ (الشورى:38).

أعلن الرسول هذا المبدأ قبل أن تعرفه الدنيا بقرون طويلة فإذا جاءت الأمم الغربية فى الأزمنة الأخيرة ونادت بالديمقراطية الصحيحة وحاولت أن تنفذها بحق وصدق فإن الإسلام قد سبقها فى هذا المضمار سبقا طويلا وقامت الأمة الإسلامية على أساسها خير قيام وإنك لواجد من الشورى الإسلامية ما تطمئن إليه النفوس المخلصة والأذواق السليمة حيث أخذ على أيدى الحكام والولاة ليمنع استغلال نفوسهم واستغلال أموال الناس.

وهذا هو الفرق بين الشورى الإسلامية وما تنادى به أمم الغرب من ديمقراطية . فإن الديمقراطية لم تصل بعد إلى مثل هذه الدرجة من محاسبة الولاة وإنما هى شعار يتشدق به الساسة الأجانب حتى صارت لفظا لا مفهوم له فى المجتمع الدولى أما الذى حدث فى الشورى الإسلامية فهو ما قد رواه البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ استعمل ابن اللتبية على صدقات بنى سليم فلما جاء إلى النبى ﷺ قال : هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت إلى فقال رسول الله : «**فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً**» وفى بقية الحديث أنه قام فخطب الناس ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه .

وقد أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية عندما قرر للمرأة حقوقاً كانت محرومة منها فى الحضارات السابقة وفى المجتمعات القديمة فاعترف بإنسانيتها وأنها مكلفة مثل الرجل وكانت من قبل كالسائمة تورث كما يورث المتاع فكانت فى الإسلام هى والرجل أساس الأسرة البشرية ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ (النساء:١) ، وبهذا رد الإسلام للمرأة اعتبارها وأعطى لنصف المجتمع كيانه ووقفت المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى الثواب والعقاب والتكاليف الشرعية ﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (غافر:40) ، وجعلها فى الميراث على النصف من الرجل بعد أن كانت محرومة منه تماما ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**﴾ (النساء: 7) ، وحفظ عليها إنسانيتها وكرامتها وشخصيتها حيث كانت من سقط المتاع كما قلنا تورث كما يورث ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾ (آل عمران:195) وهكذا سلك الإسلام المسلك الطيب مع المرأة فى هذا الواجب وحبذا لو فهمت المرأة هذا المسلك على وجهه الصحيح ووقفت عنده إذن لكان خيراً مما تردت إليه فإن مما جاء به كان المبدأ القويم والمسلك الصالح الحسن الذى تطلعت إليه الإنسانية منذ أمد طويل فجاء به رسول الله بعد شوق وانتظار .

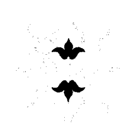
وقد أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية حين أعلن بالقول وبين بالفعل أن العمل

طريق الحياة السعيدة والمعيشة الراضية وأن السعى والكفاح من أجل الرزق باب العزة والرفاهية وطريق التوكل على الله ومن أجل هذا كان يستعيذ بالله من العجز والكسل والفقر فيقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**» ويقول ﷺ: «**التمسوا الرزق فى خبايا الأرض**» ونعى على الكسالى والمتواكلين والمتسولين فليس لهم نصيب فى صفوف العاملين وليس لهم سهم مع المجاهدين وإنما هم عبء على أفراد المجتمع ولذلك كان ﷺ يوجه أصحابه إلى العمل الصالح فى شتى مظاهره وأشكاله وصوره.

وبهذا المبدأ جعل الإنسان يقف أمام الحياة ومتطلباتها وجهاً لوجه يسخرها لحياته ويستخرج مواردها لمعيشته ويعرف أسرارها كى ينتفع بها فى كل ناحية فليس فى الحياة سلبية وليس هناك عزلة وفرار من الحياة والناس وإنما جد واجتهاد وسعى وكفاح وعمل دائم وحركة متصلة وقد ظهر أثر هذا المبدأ العظيم فى حياة المسلمين بسرعة حيرت ألباب الأعداء فما هى إلا فترة قصيرة حتى نشر الإسلام ألويته ورسالته على الجزيرة العربية ودولتى الفرس والروم.

وأخيراً: أنقذ النبى محمد هذه الإنسانية برحمته الشاملة ومحبته السابغة التى وسعت الأحياء جميعاً فبسطت رداءها على الإنسان والحيوان وقصة الرجل الذى سقى الكلب بخفه فغفر الله له معروفه وحين «قالوا له: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال: «**فى كل ذات كبد رطبة أجر**».

هذه جملة من المبادىء التى أنقذ النبى بها الإنسانية والتى كانت الدنيا فى حاجة إليها فهل يعود الناس إليها بعد هذه الجفرة الطويلة، نرجو أن يكون ذلك قريبا بإذن الله.



محمد رسول الحياة

ظهرت أجمل وردة فى حديقة الدنيا وفاح شذاها على أرجاء العالمين وطلعت شمس السعادة فى نواحى الحياة فأشرق رسول الله ﷺ بالنور على الكون الذى امتلأ بالشرور والبغى والعدوان والكبرياء والجبروت كى يخرجه من الظلمات إلى النور وينقذه مما وصل إليه من تخلف وانحدار ويأخذ بيده إلى نور المعرفة والخير والهداية والكمال والسعادة.

فاستقبلت الدنيا بهذا المولد وجهاً جديداً يفيض بنور ربانى أضاء الله به جوانب الحياة ورأى الناس فيه السعادة والهناء حيث دلهم على الخير والطمأنينة.

منذ ذلك اليوم سلك الناس طريقا غير الذى كانوا عليه واتخذوا سبيلاً غير الذى ساروا فيه فارتقت نظم الحياة واستقامت سنن الشرائع وصلحت أوضاع المجتمع مما جعلنا نقول: إن النبى محمدا هو رسول الحياة حقاً وصدقاً.

فإن الذى يمس حياة الناس بالخير والمودة ويتعهدها بالتثقيف والرعاية ويكنفها بالمحبة والهداية ويرسم لها طريقا إلى الرخاء والسعادة كما فعل رسول الله ﷺ لهو أعظم الناس على الإطلاق وهو رسول الله إلى الحياة روحاً ومعنى.

وستظل حياة محمد رسول الله مورداً صافياً ومنبعاً فياضاً لكل مفكر أصيل وكاتب بليغ وخطيب فصيح وستظل سيرته كذلك فياضة عطرة أبداً لأنها هداية الله للعالمين ورحمته للخلائق أجمعين.

وأساس الحياة فى نظر رسول الله هو «هذا الإنسان» وقد يظهر هذا القول غريبا على بعض الأذهان ولكن الغرابة سوف تزول إذا عرف أن هذا الإنسان جعله الله خليفة عنه على ظهر هذه الأرض وسخر له من أجل ذلك كل شىء فيها وكان عالم الملائكة أمناء على هذا الإنسان وكذلك الكون وبما فيه من أفلاك ونجوم وشمس وقمر فسخر له وأيضاً صارت الأرض وما عليها من حيوان وزرع مهد طيب له وذلك مصداق قول ربنا تبارك وتعالى ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: 30).

وتبدأ الحياة فى نظر رسول الله يوم يبدأ الإنسان يفكر فى الزواج ويبحث عن شريكة الحياة عندئذ يوجه إليه هذا الإرشاد النبوى الكريم «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

ويحذره أن يختار بدون عناية ودراية ومعرفة بالأنساب والأحساب فيقول ﷺ: «**إياكم وخضراء الدمن**» قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «**المرأة الحسناء فى المنبت السوء**» وهذا من أجل أن يختار الرجل زوجة صالحة عاقلة أصيلة تحفظه فى نفسه وماله وترعى له أولاده وماله.

ثم يكون الزواج فينشأ الحياة فى الجنين وعندئذ يتعهده الرسول بالرحمة الحانية والعناية الشديدة والرعاية القوية فيطلب من الأم أن تعنى عناية كاملة بجنينها وأن تسهر على راحته وأن تبتعد عن كل ما يؤذيه من العادات السيئة والأعمال الضارة فخفف عنها كثيراً من أعباء العبادات المفروضة فأباح لها الفطر فى رمضان إذا كان الصيام سيشق عليها خوفا على الجنين من الضعف والهزال وتولد الحياة طفلاً رضيعاً فيستقبله الرسول ﷺ بخير ماتستقبل به نعمة من النعم العظيمة التى أنعم الله بها على عباده بالبشر والسرور فيعد له منهجاً قويماً يبتدىء بالأذان فى الأذن اليمنى والإقامة فى الأذن اليسرى كأذان الصلاة وإقامتها تماماً كى يعرف أن هذا المولود لله وعلى طريق الله، يعيش على منهج الله وينشر رسالته بين خلقه ثم العقيقة عنه فى يوم سابعه يذبح عنه أبوه من النعم ما يشكر به ربه على ما وهب من نعمة وأفاء من فضل وقد فعل النبى ﷺ ذلك لما ولدت بنته الزهراء ولدها الحسن بن على ثم بعد ذلك الاسم الحسن وكان هذا من فعل رسول الله يختار من الأسماء أحسنها للأبناء ولأصحابه فعبد الله وعبد الرحمن ومحمد وأحمد وجاء فى ذلك قوله ﷺ: «**إنكم تدعون يوم يوم القيامة بأسمائكم فحسنوا أسماءكم**».

وهذا نص القرآن على الذين ييئسون بمقدم البنت ولا يفرحون بها كفرحهم لمقدم الولد قال تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ (النحل: 58-59).

وهكذا يقرر فى صراحة قوية لا تقبل الجدل ولا الغموض أن الحياة فى حاجة

إلى البنت والولد على السواء فالحياة ذكرٌ وأنثى وأن العدل بينهما واجب كما ورد فى الحديث الشريف : «**اعدلوا بين أولادكم ولو بشق تمرة** » وقد خص البنت بمزيد من العناية حرصا عليها وقياما بحقها لما لها من دور فى الحياة قال ﷺ : «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة**» وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منها تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التى تريد أن تأكلها بينهما فأعجبنى شأنها وذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : «**إن الله أوجب لها بهما الجنة أو أعتقها بهما من النار**»

وتنمو الحياة وتكبر وتشب وترعرع فإذا أساسها الفتى والفتاة واذا ركنها الركين الذكر والأنثى وإذا عمادها الجسم القوى والسواعد المفتولة التى جرى فيها دماء القوة والنماء والفتاة التى تمد هذا بالحنان والعاطفة النبيلة وهذا رسول الله يرسم الطريق الأقوم لهذه الحياة فيقول : «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ولا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**» .

فالقوة فى الجسم والقوة فى الفكر والقوة فى العلم والقوة فى العقل كل هذه القوى قصد إليها رسول الله فى حديثه وكانت قوة الفكر وسعة العلم هى المقصود الأسمى فى الاسلام بعد قوة الايمان بالله ورسوله ومن أجل ذلك شجع العلم وحث عليه . كما قال فى حديث آخر : «**من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**»

والناس أمام الحياة رجل متبرم بالحياة كاره لها ساخط عليها منعزل عنها لا ينظر إليها إلا من خلف منظار أسود قاتم ولا يراها إلا بعين البرم بها والكراهية والشكوى منها ولا يعرفها إلا دار غم وعناء ولحظات هم وشقاء ونصب وابتلاء فهو ممسك عن نعيمها عازف عن ملذاتها مبتعد عن طيباتها وربما زعم أنه بهذا الفهم الخاطىء من جملة الزهاد ومن عداد أهل التقشف .

ورجل آخر مقبل على الحياة غارق فى لذاتها هاجم على متاعها متمتع بكل شهوة من شهواتها غير مميز بين حلالها وحرامها وقد يفهم أنه بذلك مستمتع بالحياة التى خلقها الله .

ومن أسف أن كلا الطرفين قد جانب الصواب وليس لواحد منهما أن يدعى أنه أصاب هدف الحياة أو نعم بها لأن كلا منهما قد جانب الصواب وابتعد عن الطريق القويم فلم تخلق الحياة لواحد من الفريقين وإنما خلقت لتكون طريقاً وسطا بين الإفراط والتفريط ووجدت لتكون غاية تنتهى إلى عمل طيب وأخلاق فاضلة وعيشة راضية يجنى صاحبها من ورائها متعة النفس وطمأنينة القلب ورضا الله والفلاح فى الآخرة .

وقد رسم القرآن طريقة مثلى للحياة الطيبة قال الله تعالى : **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** (الأعراف : 31-33) .

فليعش الإنسان فى حياته عيشة الرضا والهناء والسعادة والنعيم فى حدود التوسط والاعتدال كما أمر الله تعالى فإن الحياة إنما كانت من أجل تكون نعمة يحمد الله عليها وليست مدعاة للغرور والبطر والكبرياء .

إن الحياة فى نظر رسول الله حركة ونشاط جد وكفاح جهاد وجلاء سعى وعمل ذهاب ومجىء فى رحمة ورفق فى روية وبصر فى فكر وتؤدة وهى حقل واسع التجربة موفور الخصب والنماء نباته يؤتى الثمرات الشهية وزرعه أخضر بهيج والناس قائمون على هذا الحقل غافلون فى هذا الميدان فالذكى الأريب من قام على واجبه وسهر على سعيه وتعهد عمله بالدقة والإتقان حتى يكون لدنياه وآخرته أما الكسول الضائع الذى يقتل وقته فى اللهو والعبث ولا ينتفع بوقت الفراغ فقد نعى عليه رسول الله ﷺ بقوله : «**إن الله يكره الرجل الفارغ لا فى عمل ودنياه ولا فى عمل آخرته**» .

هذه هي الحياة التى عرفها النبى محمد ورعاها وكنفها بوعيه وتولاها منذ كانت نطفة صغيرة فى ظلمات الأرحام إلى أن دبت على الأرض وسعت على ظهرها وسخرت كل شيء فوقها فاستخرجت منها كنوزها وطارت فى هوائها وجرت فى السفن عائمة على سطح الماء عندئذ صارت الحياة شيئا عظيما لا يصح الإعتداء عليه ولا يجوز المساس به ولا يحل التخلص منه قال ﷺ : «**من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدته فى يده يجأ بها بطنه فى نار جهنم خالداًمخلداً فيها أبدا**» .

فالحياة ليست ملكاً مباحاً لأحد يتصرف فيها حسب ما يراه هواه وترسمه له شهواته وميوله بل صارت الحياة بهذا التوجيه النبوى الكريم ملكاً للأمة التى عاش على أرضها ونما وترعرع فيها والانتحار مهما كانت الأسباب التى دفعت إليه جريمة لا تغتفر وذنب لا يعد له إلا الجحيم يعيش فيه وبئس القرار وركن الحياة ذكر وأنثى وأساسها رجل وامرأة ولن يقوم هذا البناء الشامخ إلا بالمحبة والوئام ولن تستقيم إلا بالتقابل دون التشابه وأخذ كل من الزوجين حقه من المتعة الطيبة وعرف كل منهما واجبه نحو الآخر ومن هنا وجه الرسول إليهما من الآداب والنصائح ما يحفظ حبهما نقياً صافياً وسعادتهما راضية هانئة ثم خص المرأة بمزيد من العناية والرعاية لأنها متعة الروح وبهجة النفس والأساس المكين الذى تنهض به الطفولة ويقوم عليه المجتمع فقال ﷺ : «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى**» وكانت ـ ومازالت ـ هى وأولادها زينة الحياة الدنيا وفى هذا يقول الرسول أيضاً : «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**» فهى خير متاع فى الدنيا وأفضل نعمة فى الحياة دونها المال الكثير وغيره من متاع الحياة ففى الحديث الشريف «**تبا للذهب تبا للفضة**» قالوا : فماذا نتخذ يا رسول الله؟ قال : «**بحسب أحدكم زوجة صالحة تعينه على أمر دنيه ودنياه**» .

هذه هى المرأة فى نظر رسول الله محمد نعمة من نعم الحياة ومتعة طيبة ونصف المجتمع ومكملة للرجل معينة له على رسالته ومن أجل ذلك أعطاها الإسلام من الحقوق المدنية والواجبات الدينية ما ظلت محرومة منه فى الأزمان السابقة وفى الحضارات القديمة حيث كانت تباع وتشترى مثل السلعة وتورث كما يورث المتاع

وتحرم من التعليم والميراث وتمنع من كل تصرف مدنى واجتماعى وهى تحت سيطرة أبيها قبل الزواج وتظل تحت سيادة الزوج بعده .

هذا ما كان يمليه وضع المرأة قبل الاسلام فلم تكن فى أمة خير منها فى أمة أخرى ففى نظام الأمة اليونانية القديمة كانت تحرم من التعليم والميراث وتمنع من الحقوق المدنية وحصل مثل ذلك عند الرومان وفى القانون الرومانى وفى شريعة اليهود بل لقد حدث منذ عهد غير بعيد أن بعض المؤتمرات قد أقيم من أجل أن يبحثوا فى آدمية المرأة من عدمها ومن الغريب أنهم توصلوا أخيراً أنها ليست بإنسان .

ومازلنا نسمع فى العصر الحديث أن بعض القوانين فى بلاد المدنية والحضارة يمنع المرأة من الميراث ويجعله للولد الأكبر فى الأسرة وبعضها الآخر يمنعها من أن تتصرف تصرفا أهليا دون الرجوع إلى الأب أو الزوج إذا كانت متزوجة هكذا كان الوضع شائنا فحكم على نصف المجتمع بالجمود وعدم الاهتمام بشأنه فعاش المجتمع برئة واحدة لا تستطيع أن تمده بالحياة القوية .

وجاء الإسلام فجاء بالخير العميم فأحيا نصف المجتمع من موات ونشطه من جمود ودفعه إلى الخير يؤدى واجبه المنوط به فجعل المرأة على قدم المساواة فى الحقوق المدنية والواجبات الدينية مع الرجل واستمعت البشرية لأول مرة فى تاريخها هذا النداء يهب بها أن تنضوى تحت لواء الدين الحنيف وتنصاع إلى أمر الله الكريم **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات: 13) ، وصارت المرأة والرجل متساويين فى الثواب والعقاب عند الله **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (النحل: 97) ، وقال تعالى : **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾** (آل عمران: 195) .

ولا يغض من هذه المساواة ما اختص به الرجل ببعض الأمور كالقوامة على أمر الأسرة والتميز فى الميراث والشهادة فكان الرجل مثل امرأتين فيهما وجعل الطلاق فى يده حيث إن ذلك كان لخصائص فى الرجل وليست فى المرأة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

الرسول مَعقِدُ الكمالات الإنسانية

الكلام عن أى شيء فى الوجود يصل بعد حين إلى درجة النهاية أو التشبع ويصبح بعد هذه الدرجة لغوًا ثم فجاً ومملا ثم يصير أثرًا بعد عين .

أما الكلام عن الرسول ﷺ صاحب الرسالة العظمى فإنه قديم حديث لا تمله القلوب والأرواح ولا تنصرف عنه الآذان والنفوس ولا تتحول عنه أفئدة المؤمنين ولا تبتعد عنه عقول المهتدين .

وسيظل الحديث عن رسول الله هكذا قديماً حديثاً طالما بقى إيمان بالله ورسالاته وطالما بقى على الأرض مؤمنون يعرفون مقام هذا الرسول الذى أنقذهم من الضلالة وأرشدهم من العمى .

ولقد كان النبى محمد ﷺ معقد الكمالات الانسانية فى كل ناحية من نواحى الإنسان فتجسد الكمال فيه من كل نواحيه فكان مستكملاً لكل الصفات العالية التى لا غنى عنها فى تبليغ كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ كانت له فصاحة اللسان واللغة وكانت له القدرة الفائقة على تأليف الأتباع وجمع الأصحاب وكانت له قوة الإيمان بدعوته والغيرة على نجاحها .

كانت له الفصاحة فى كلامه وكانت له الفصاحة فى هيئة نطقه بكلامه وكانت له الفصاحة فى موضوع كلامه فكان أعرب العرب على الإطلاق وكان أفصح الناس أجمعين وصدق ﷺ إذ يقول عن نفسه «**أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر**» فلم يكن يسرد الكلام سردا وإنما كان يضع الكلمة فى موضعها من الحديث ولم يكن يطلق الكلام على عواهنه وإنما كان عنده لكل مقام مقال وكان يعلم أتباعه المعنى الذى يفهمونه وهذا ما جعل السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ تقول عن ذلك «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بَيّن فصل يحفظه من جلس إليه» مما دفع الإمام عليا ـ ذات يوم أن يقول له : يا رسول الله إنا بنو أب واحد وربينا فى بيت واحد وأراك تلكم وفود العرب بما لا نفهم فمن أدبك؟ قال : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» .

وكان لرسول الله القدرة الفائقة على جمع القلوب حوله فكان له من أجل ذلك

صباحة المحيا ودماثة الخلق ورقة الطبع والحاسه فجمع حوله الأقوياء والضعفاء والشرفاء والوضعاء والأغنياء والفقراء والعرب والعجم وكل مجمع على حبه والغيرة على دعوته فكنت ترى فى مجلسه الغنى والفقير والقوى والضعيف والشريف وغير الشريف أحبهم وأحبوه وعاشرهم وعاشروه وصادقهم وصادقوه وصاحبهم وصاحبوه وقدموا فى سبيله المهج الغالية وبذلوا فى سبيل دعوته الأموال الطائلة . ومن أمثلة هذه المحبة (التى حظى بها فى قلوب أصحابه) ما فعله رجلان منهم أحدهما زيد بن حارثة والآخر ميسرة مولى خديجة فأما زيد فخطف من أهله وهو صبى صغير وبيع فى سوق الرقيق بمكة . وانتهى به الطواف إلى بيت رسول الله فوجد فيه المحبة الصافية والمودة الخالصة وذات يوم دخل على رسول الله والد زيد وعمه وقالا لرسول الله : يا ابن سيد قومه اردد علينا إبننا زيدا ولك فداؤه فقال : **هل لكما فى خير من هذا ؟** فقالا : ما هو فقال : **أخيره فإن اختاركما فهو لكما بدون فداء وإن اختارنى فما أنا بالذى يأخذ فداء من اختاره»** فقالا : أنصف وخيره الرسول بين الرجوع مع والده والبقاء فاختار زيد البقاء مع رسول الله فقال له والده : يازيد أتختار حياة العبودية والرق على حياة الحرية والإنطلاق؟ فقال لهما : انطلقا فوالله ما رأيت من هذا الرجل إلا خيراً» .

وأما ميسرة ترسله مولاته خديجة مع الرسول فى شبابه بالتجارة إلى الشام فيرجع ميسرة ليحدث مولاته خديجة حديثاً عجبا عن الرسول وعما ساقه الله على يديه من الربح الوفير والخير الكثير (وعما رآه حول الرسول من علامات لا تظهر من الرجل العادى) وكان الأحرى بميسرة أن يكره هذا الرجل الذى ينافسه فى قلب مولاته وتقديرها ، كان الأحرى بميسرة أن يكره الرجل الذى أدار التجارة خيراً منه ولكنها محبة الله يضعها فى قلوب عباده المؤمنين تكريماً لنبيه وحبيبه محمد ﷺ .

ولا تسل عن محبة الأقوياء له فقد كان من أصحابه رجال أصحاب مواهب وأفكار لو وزن الواحد منهم بشعب كامل لرجحت كفته فالتفوا حوله وفهم كل واحد منهم من محبة الرسول له أنه يؤثره بالحب على ن سواه هكذا فهم كل واحد منهم .

أحبه أبو بكر وعمر وبينهما من الاختلاف فى المزاج والطبع وتكوين الشخصية

ما بين الهدوء واللين وما بين الحدة والغلظة وأحبه خالد بن الوليد وحسان بن ثابت وبين الإثنين من الإختلاف فى الميول ما بين الجرأة والإقدام وما بين الخوف وضعف القلب وأحبه المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص وبين الرجلين من اختلاف الطباع ما بين السياسة والدهاء والإدارة السديدة وهكذا فتح الله له القلوب وجمع عليه الأصحاب وصدق الله العظيم حيث يقول: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (الأنفال: 63).

وكان لرسول الله من صفات الخير صفتان: وهما المحبة والرحمة، المحبة التى جعلته يحب الناس ويحرص على سعادتهم وهدايتهم وانتشالهم من هذه القبائح والشرور إلى الهداية والنور. كما جعله يحب الله أكثر من أى شىء فى الوجود.

ظهرت آثار هذه المحبة فى حبه لله فى عبادته وتقواه وورعة وخشيته وطول صلاته فكان يقول لبلال عن الصلاة مثلاً: «**أرحنا بها يا بلال**» ولم يقل أرحنا منها وكان يصلى بالليل والناس نيام حتى تورمت قدماه وقالت السيدة عائشة تفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال لها: «**يا عائشة إنى أحب أن أكون عبدا شكورا**».

وظهرت آثار محبته للناس فى دفع المشقة والأذى عنهم وفى إبعاد العنت والشدة عن مجتمعهم فلم يكلفهم من الأعمال مالا يطيقون وأصبحت تعاليمه سهلة وميسورة يفهمها كل فرد دون غباء فلما سافر إلى مكة عام الفتح وهو صائم أمر الناس بالفطر حتى لا يجمع عليهم بين مشقة السفر ومشقة الصيام وأفطر أمامهم وقال لهم: «**ليس من البر الصيام فى السفر**» ونهى الناس عن التشدد فى الدين وروى من كلامه فى هذا المعنى «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى**» وأمر أتباعه على التيسير «**يسروا ولا تعسروا ..وبشروا ولا تنفروا**» وأدرك سآمة النفس وتعب الجسم نتيجة التشدد فى العبادة فنهى عن ذلك خشية العجز عن الآداة«**فإن لبدنك عليك حقاً ولزوجك عليك حقا ولأهلك عليك حقا**» ونعى على المتشددين فروى البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر قا أحدهم:

أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا وقال آخر : أما أنا فسأصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا فسأعتزل النساء فلا أتزوج أبداً جاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى**» .

وكان يطلب من الناس أن يشيعوا المحبة بينهم وأن يعيشوا عليها «**والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**» ويهدد قساة القلوب الذين لا يرقون للناس ولا يعطفون عليهم «**من أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك محقا كان ذلك أومبطلا فإن لم يفعل لم يرد على الحوض**» وشرار الخلق فى نظره «هم الذين لا يقيلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنبا» .

وتمكن المحبة من قلب الرسول الكريم جعله يأخذ بعض النفوس الخشنة ليصل بها إلى الخير من أيسر طريق «جاء أعرابى وسأله عن عمل يقربه من الجنة ويباعده من النار فقال له رسول الله : «**تقول العدل وتعطى الفضل**» فقال الأعرابى : والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة ولا أستطيع أن أعطى الفضل فقال له الرسول : «**فتطعم الطعام وتفشى السلام** » وقال : وهذه أيضاً شديدة فسكت رسول الله ثم قال : «**هل لك إبل؟**» قال : نعم . قال : «**فانظر إلى إبل من إبلك وسقاء ثم اعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غَبًّا ـ نادرا ـ فاسقهم فلعلك لا يهلك بعيرك ولا يتحرق سقاؤك حتى تدخل الجنة**» .

وإذا كان ثمن الجنة قد تحول فى إرشاد الرسول وحبه إلى جمل وقربة يدخل إليها الإنسان قبل أن يموت البعير وتنخرق القربة فأهْون به من ثمن أيها الأعرابى ولكنها محبة النبى لصاحبه حرصت على ألا يكون طعمَة للنار فأخذه إلى الجنة من أيسر طريق وأسهل عمل .

ولا تسأل عن الرحمة التى شملت الأحياء كلها شملت الإنسان كما شملت الحيوان وكما شملت الجماد . قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنبياء : 107) ، فرحم اليتيم والمسكين والأرملة ورحم المصاب ولئن كانت دول

الغرب تفخر بإنشاء جمعيات الرفق بالحيوان فإننا نقول لهم : على رسلكم فإن ذلك بعض ما عندنا فالحديث عن الرفق بالحيوان ورد منذ أربعة عشر قرناً من الزمان وتجدون فى حجج الوقف القديمة أوقافاً حبسها أصحابها للصرف على الحيوانات الضعيفة والضالة فكانت صدى واضحاً لأحاديث الرسول عن الرفق بالحيوان وحديث المغفرة للرجل الذى سقى الكلب الذى كان يأكل الثرى من شدة العطش معروف ومشهور وحديث المرأة التى حبست الهرة حتى ماتت معزوف ومشهور وحديث الجمل الذى جاء إليه يذرف الدمع ووضع رأسه بين يديه وقال فى شأنه : **من رب هذا الجمل** ؟ فقال فتى من الأنصار : هو لى يارسول الله . فقال له : «**أما تتقى الله فى هذه البهيمة إنه شكا إلىَّ أنك تجيعه وأنك تدئبه**» معروف كذلك ومشهور وحديث الوزعة الذى يقول فيه : «**من قتل وزعته فى أول ضربة كتبت له مائة حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك**» انه يحرص على قتل الحشرة السامة من أول ضربة حتى لا تتألم رحمة بها وشفقة عليها . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : كنت عند ابن عمر فمروا بفتية - أو نفر - نصبوا دجاجة يرمونها - جعلوها هدفا يتعلمون فيها الرمى - فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها فقال ابن عمر : ما هذا؟ وروى أحمد «من مثل بذى روح ثم لم يتب مثل الله به يوم القيامة» وورد فى صحيح مسلم «لعن رسول الله ﷺ **من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا**» أى هدفا يصوب إليه الرمى .

وكان لرسول الله ﷺ من خصال الخير العدل والسمو، العدل فى أدق معانيه والعدل فى أعمق ألوانه وأشكاله، العدل من نفسه فأخذ للناس من نفسه وألزم به أهله وذوى قرابته وأن يغضب غضبا شديدا حينما يرى أن الظلم واقعاً على أحد الناس وهذا حديثه الذى يتحدث فيه العدل «**من كنت أخذت له مالا فهذا مالى وليأخذ منه ومن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتد منه**» وفى غزوة بدر وقف يصف الصفوف بقضيب فى يده فخرج سواد بن غزية الأنصارى عن الصف بعض الشىء فقال له بالقضيب فى بطنه «**استر يا سواد**» فقال له سواد : آه أوجعتنى يا رسول الله وقد بعثت بالعدل فخذ لى من نفسك فكشف عن بطنه وقال : «**اقتص منى يا سواد**»، فأقبل سواد وقبل بطنه فقال له : «**ما الذى حملك على هذا يا سواد ؟**» فقال : يا رسول الله لقد حضر ما ترى وأحب أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن يمس جلدى جلدك» .

والسمو فى أبسط معانيه أن ينتصر الإنسان على ضعفه وأن يتفوق على نفسه وأن يرقى إلى أحسن الأعمال ويتخلق بأطيب الأخلاق وقد وصل النبى فى هذه الناحية إلى نهاية النهاية وأناف به على الغاية وبلغ فيه أعلى الدرجات وكان شعاره فى ذلك «**إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها**» ولنسمع إليه وهو يناجى ربه يسأله العون على نفسه «**اللهم آت نفسى تقواها زكها أنت خير من زكاها**» وكان يدعو الله أن يعينه على الإرتفاع فوق المقابح وأنواع الضعف فيقول «**اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**» .

ترى هل وقف بهذا السمو عند نفسه ؟كلا بل ألزم به أصحابه ورباهم عليه فطلعوا على العالم أطهارا فوصلوا القلوب بالله والأرواح بالملأ الأعلى وبم تعهدهم؟ تعهدهم بالسلوك القويم والمزاولة الحسنة والقدوة الطيبة والتربية الحكيمة «جاء إليه أحد الناس وطلب إليه فى جرأة العرب وشجاعته أن يبيح له الزنا لأنه لا يستطيع أن يغالب ميله إلى النساء ولا يستطيع البعد عنهن فاستدنى إليه هذا الرجل حتى وضع يده على كتفه وقال له : والضياء يملأ وجهه وإشراقة الأمل والنور تنبعث من عينيه : «**أترضى الزنا لأمك ؟**» قال الرجل : لا قال : «**أترضاه لزوجك؟**» قال الرجل : لا . قال : «**أترضاه لأختك ؟**» قال الرجل : لا ، قال : «**أترضاه لبنتك ؟**» قال الرجل : لا فقال له رسول الله : «**كذلك الناس يا أخا العرب لا يرضونه لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم**» ثم مسح بيده على صدره وقال : «**اللهم حَبِّبْ إليه العفاف وطهر فرجه من الفواحش**» .

إنه لم يقبل أن يترك الرجل يعبث بالأعراض ولم يقبل أن يدعه نهبًا لوساوس الشيطان وألاعيبه فأخذ بيده إلى الخير بعد أن علمه وهذبه وكانت هذه هى طريقته فى التربية يضيق مسالك الشيطان إلى الناس ويقلل من سقطات الفرد ويفتح باب الأمل فى رحمة الله أمام الجميع حتى لا ييأسوا منها فلما جاء إليه أحد أصحابه وقال له : يا رسول الله : ألممت بسوء فقال له : «**هل شهدت معنا صلاة العصر ؟**» قال : نعم ، قال : «**هى كفارة لك**» فقيل : أله خاصة؟ قال : «**لا بل للمؤمنين عامة**» ونزل فى ذلك

قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: 114) .

رجل فى مثل هذه الدرجة من النبل والطهر والعفاف والعدل والسمو والرحمة حرى أن يحول الدنيا بأسرها من حال إلى حال وأن ينقلها من مكان الضعة والخمول إلى مكانة الابتكار والحضارة وهذا ما فعله النبى محمد ﷺ فقد قضى على الوثنية العامة التى رانت على العقول وطمست على القلوب وأحل محلها الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: 81) . وقال تعالى : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ (الأنفال: 37) .

وقضى على رذائل الجاهلية ونقائصها التى قطعت الصلات وأوهت العلاقات وفصمت الأواصر وجعلت من العرب قبائل متناحرة وطرائف متنافرة وأقام مقامها الفضائل والمكارم والآداب التى نهضت بهم وارتفعت بمستواهم ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

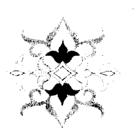
(الأنعام: 151:153)

وأقام الدين الحق الذى رسم للناس طريق الكمال والخير فى الدنيا والآخرة فلا استغلال ولا بغى ولا نشوز ولا كفر ولا كبرياء ولا غرور ولكن حق وعدالة واستقامة وإنصاف وصار أمل المسلم تحت ظلال هذا الدين دعاءه لله ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة) .

وأحدث ثورة كبرى حولت مجرى الحياة ونظامها فى الجزيرة العربية وغيرت الأوضاع السائدة حينذاك وفجرت ينابيع المعرفة والعلم والفكر أمام القلوب

والعـقـول ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: 101) ، وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: 21) .

جعل من الأمة العربية التى توزعت أشتاتا وأحزابا دولة تحت راية القرآن تقول كلمتها فى الشرق فيأتمر بأمرها من فى الغرب، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: 21) .



ميراث النبوة

فى لحظات التعارف وفى أوقات التفاخر يعمد الناس إلى ذكر المفاخر والمآثر وحصر العقارات والأموال وحساب المناصب والجاه وأقيمت المجالس الحسبية فى كل ناحية من نواحى البلاد الإسلامية لحصر التركات بغية الحفاظ عليها لصالح اليتامى وما من ميت يموت حتى يكون السؤال التقليدى: كم ترك؟ وكم خلف؟ويكون الجواب تقليديا كذلك: ترك أموالا كذا وعمارات كذا وذكورًا كذا وإناثاً كذا وهى كما تعلمون أعراض تروح وتجيء ولكن النفوس الضعيفة تستهويها زخارف الدنيا وشهواتها وأصبح الناس ينظرون إلى أصحاب الأموال والعقارات نظرة التمجيد والتقديس والاحترام والإكبار قال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (آل عمران: 14).

ومن جانب آخر أصبحت نظرة الناس إلى الفقر والفقراء تتسم بالهزء والسخرية والاحتقار والزراية دون نظر إلى ما وراء ذلك من قيم أدبية ونفوس صافية وعقول ناضجة وأعمال كريمة نافعة وحلم وعلم، وهذا ما قصد إليه رسول الله فقد روى البخارى عن سهل بن سعد الساعدى ﷺ قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: « **ما تقولون فى هذا؟** » قالوا: حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع لقوله قال: فسكت. ثم مر رجل آخر فقال: «**ما تقولون فى هذا؟** » قالوا: رجل من فقراء المسلمين حرى إن خطب ألا ينكح وإن شفع لا يشفع وإن قال ألا يستمع له فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**».

إن رسول الله ﷺ نظر إلى الأمر من جانب آخر غير ما تواضع الناس عليه قديما وحديثا فقد تعود الناس أن يقيسوا مقادير الرجال بما يحوزون من أموال ويزنوا معادنهم بما يحتوشون من ثروة أما النبى محمد فبين لهم أن مقادير الرجال تكمن فى إخلاصهم ويقينهم وأعمالهم الطيبة وأقوالهم الحكيمة وسهرهم على راحة الناس والتضحية فى سبيلهم وصح عنه أنه قال فى هذا المعنى «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» وقال ما معناه: «**من أكل طيبا وعمل فى سنة وأمن الناس من شره فقد استكمل الإيمان**»

إنه لو قيست مقادير الرجال ووزنت معادنهم على هذا النحو المعكوس الذى ألفه الناس دون نظر إلى الآداب السامية لما كان للأنبياء والمرسلين شأن يذكر ولما كان للعلماء والمصلحين دور فى هذه الحياة وأضحى رجل كالنبى محمد صفرا من كل شىء ومجرداً من كل حلية وخلواً من كل فضل مع أنه راودته الجبال الشم أن تكون له ذهب أو فضة وزمردًا وياقوتا فأبى ورضى أن يكون رسولا زاهدا وآثر حياة الكفاف والخشونة ففى رواية أن أبا بكر وعمر قالا: يا رسول الله ما يؤذيك خشونة ما ترى من فراشك وسريرك؟ وهذا كسرى وقيصر على فراش الحرير والديباج فقال: «**لا تقولوا هذا فإن فراش كسرى وقيصر إلى النار وإن فراشى وسريرى هذا عاقبته إلى الجنة**».

ولقد ألزم نفسه وأهله بهذا العيش الخشن فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت لعروة: يا ابن أختى إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار « فقلت ياخالة: وما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانهم فيسقينا».

نقول: لو أن الرجولة تقاس بمقاييس الثروات الضخمة لخرج منها رسول الله والمرسلون من قبله وحرم منها المصلحون من بعده ولم يأخذوا منها كثيرا ولا قليلا وظفر بها لكع ابن لكع وتصدر ركب الإنسانية من لا يحسن قولاً ولا فعلاً ولكن الحياة لا تسير إلا بحكمة الحكماء ونبوة الأنبياء وعلم العلماء الصالحين.

ونظرة عجلى إلى ميراث الأنبياء فنجدهم لم يتركوا شيئا وراءهم من حطام الدنيا الفانى لم يورثوا درهمًا ولا ديناراً بل إن النبى محمدا ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودى ولكنه ترك ميراثا ضخماً تفنى الحياة ولا يفنى وتنتهى الدنيا ولا ينتهى وتنوء بحمله الجبال الراسيات وتعجز المجالس الحسبية عن عده وحصره.

ترك النبى محمد ﷺ دولة فتية وترك أمة قوية وترك شريعة ربانية وترك ديانة سماوية وخبرنى بربك هل بقى بعد هذه التركة شىء فى الحياة يذكر؟ وهل بقى شىء من العظمة فات النبى محمد ﷺ.

ترك النبى محمد ﷺ أمة عالمية لم ينظر فى قيامها إلى ما كان معروفاً فى قيام الأمم من وحدة الجنس واللغة والبيئة فهى أمة مبادىء وأصول ومقاصد عامة وليست أمة جنس أو لسان أو وطن رباطها فى الفضيلة الخالصة وأساسها فى الأصول الأدبية ورقيها على المبادىء الخلقية فلم تعرف فيها روح القوميات ولا امتياز الجنسيات ولا فروق اللغات. ومن أجل ذلك كانت عالمية.

جعل الله لهذه الأمة طابعًا إلهيًا خاصًا وسمة ربانية صافية فأمرها أن تقوم على خلافته فى الأرض ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: 165)، كما جعل لها السيطرة على الناس كلهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: 143).

وقد قامت هذه الأمة بالواجب الذى نيط بها فرفعت علم الأخوة العالمية وسادت بين الناس جميعاً أمام نداء الوحى الأمين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: 13).

وبهذا المبدأ قادت الإنسانية كلها إلى العدل والمساواة والوفاء بالعهد والانصاف والتسامح والرقى والحضارة والسعادة ومكافحة الشهوات والآثام والرذيلة والخضوع لسلطان العقل المؤمن والبعد عن نزغات الهوى المدمر والسعى لإحقاق الحق حتى يعلو وإزهاق الباطل حتى يندحر.

أمر الله هذه الأمة بتطهير الأرض من جبروت المتحكمين المتكبرين وطغيان الظالمين وسيئات المفسدين وعصيان العابثين وأن تقيم على هذا الركام دعوة الخير والهدى قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران: 104)، فاستحقت من أجل ذلك تشريف الله لها ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران: 104)، كما استحقت وراثة الأمم السابقة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دينَهُمُ الَّذى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنى لا يُشْرِكُونَ بى شَيْئًا ﴾ (النور: 55) ، وبهذه المبادىء والأسس بلغت الأمة فى سنين معدودة من سعادة الوجود وأمن الحياة وكرامة المجد والسؤدد ما لم تبلغه أمة قبلها ولا بعدها وتركت آثاراً حسنة لايزال العالم يذكرها بها إلى اليوم ولم يزل أمامها الفضل لو أنها سارت إليه وأخذت بزمامه .

وترك النبى محمد ﷺ دولة فتية كانت بمفهوم العصر «ديمقراطية دستورية» فكانت شعبية بمعنى الكلمة ومن أجل ذلك محيت فيها كل فروق الطوائف فلا امتياز فيها لطائفة دون طائفة ولا فضل فيها لأحد على الآخر وصارت التكاليف فيها للشعب كله ووزعت فيها الحقوق والواجبات على الأفراد وفتحت الباب للمتسابقين إلى المكرمات وحادثة سرقة المرأة القرشية المخزومية وإقامة الحد عليها معروفة ومشهورة رغم شفاعة أسامة بن زيد لها فقد قال له النبى ﷺ : «**أتشفع يا أسامة فى حد من حدود الله إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» فلم تعرف الدولة الإسلامية شريفاً لشرفه ولا فقيراً لفقره ألم يول الرسول بلالاً الحبشى على المدينة فى إحدى غزواته وفيها كبار المهاجرين والأنصار من أهل مكة والمدينة ألم يول مهران الفارسى ولاية اليمن ولما مات أسندها إلى ابنه ألم يقل فى شأن سلمان : «**سلمان منا أهل البيت**» وهو فارسى أيضاً وكانت العجمة تَعتَور لسانه بين آن وآخر .

وكانت هذه الدولة مقيدة بدستور تحتكم إليه هو «كتاب الله» : ﴿**لا يَأْتيه الْبَاطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلا مِنْ خَلْفِه تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصلت: 42) ، وقد حقق هذا الكتاب الربانى كل أغراض الحكومة الدستورية لأنه جعل الحكم شورى وألغى الامتيازات ومحا ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات فلا فرق بين حاكم ومحكوم كان عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ يسير ذات ليلة فأبصر رجلاً وامرأة على فاحشة فقال فى المجلس : ما رأيكم لو أن أمير المؤمنين رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فقال الإمام على : يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء على صحة قوله وإلا أقمنا عليه حد القذف» وبهذا سارت الدولة فى خطاها المؤمنة يؤيدها الله مصداقاً

لقوله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: 18) .

مهد الإسلام لهذه الدولة بإصلاح العقلية الإنسانية وتطهير النفس وتربية القلب وإفساح الطريق أمامها كى تقوم على الحق وتسهر على الفضيلة وتهدم العقائد الضالة والعادات الباطلة والتقاليد البالية والشهوات الحيوانية وبذلك سارت دولة الهدى والحق تقوم عليه وتسهر على مبادئه مسترشدة بهذا الكلام الإلهى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 170) وظهر أثر ذلك واضحًا فى حياة المسلمين فكان الواحد منهم حارسًا للحق مناهضًا للباطل محققًا للعدالة فى كافة صورها وأشكالها .

وترك النبى محمد ﷺ شريعة ربانية حققت أعظم ما تصبو إليه النفوس البشرية من عدالة ومساواة وحقوق وواجبات وهو الأمر الذى أذهل أبناء الأمم الأخرى فدخلت فى الإسلام راضية ولم يمض وقت طويل حتى كان فيهم الحافظ للغة مثل أبى عبيدة وسيبويه والخليل بن أحمد وغيرهم ممن سمت بهم مواهبهم فارتفعوا إلى مكان الصدارة فى الأمة ولم يكن ذلك موجوداً من قبل عند الأمم الأخرى فقد كانت الأمة تنقسم إلى طبقات لكل طبقة حقوق تمتاز بها على من دونها حتى ينتهى الأمر إلى العامة وهم الغالبية العظمى من الأمة فكانوا يعتبرون فى حكم الحيوانات حتى كان أصحاب الأملاك يبيعون أملاكهم بمن عليها من العمال والفلاحين ، كان ذلك فى شريعة اليونان وقانون الرومان .

قامت شريعة النبى محمد على الحقوق المطلوبة لكل فرد وابتعدت عن الأمور التى تمليها المصالح المادية وتدفع إليها الأهواء الشخصية وتلح عليها العوامل النفسية وبهذا بلغت أرقى ما يدركه العقل من معنى العدل وما تطمئن إليه النفس من نعمة المساواة وما تتطلبه طبيعة الناس من الحرية الكاملة والعزة والكرامة .

وساوت هذه الشريعة التى قامت على العدل والمساواة بين الأغنياء والفقراء والشرفاء والوضعاء والعلماء والجهلاء وأيضاً بين المؤمنين والكافرين لا يظلم فيها ضعيف لضعفه ولا يحابى فيها مؤمن لإيمانه فسارت بين الجميع بعدلها ، قال الله

تعالى: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: 135)، وقال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: 8).

وترك النبى محمد ﷺ ديانة عامة للناس جميعًا دائمة إلى يوم القيامة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وكانت هذه الديانة طلبة الروح وأمنية الفؤاد وأمل النفس وغاية الفلاح والرقى ونهاية الحضارة والإصلاح فلا غرابة أن يختم الله بها الرسالات وينهى بها النبوات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: 174).

هذه هى تركة النبى ﷺ التى تركها للناس من بعده، هذه هى مواريث النبوة جلت عن الوصف وكثرت على العد وعظمت على الحصر وضخمت على الحساب وتعالت على التدوين وكيف لا تكون كذلك وهى ميراث الروح وغذاء القلب ونقاء العقل وشفاء النفس وسمو الفؤاد ولندع فى النهاية الإمام عليا كى يروى لنا وصف هذه الرسالة العظيمة قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «**المعرفة رأس مالى، والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة وثمرة فؤادى فى ذكره وغمى لأجل أمتى وشوقى إلى ربى**»

إن العالم فى عهده الحاضر لفى حاجة شديدة إلى ميراث النبى محمد ﷺ وإن الدنيا لن تجد لها طمأنينة واستقرار إلا فى الرجوع إلى هذه الرسالة وإن الشعوب لن تتفيأ ظلال الحرية والأمان فى الداخل والخارج إلا إذا عادت مرة أخرى إلى شريعة محمد وإن الأفراد لن يجدوا سكينة وراحة إلا إذا عادوا إلى دستور محمد ﷺ من جديد.



من ثمرات الهجرة النبوية (1)

تكوين الدولة الإسلامية

حين نقلب صفحات تاريخنا الإسلامى فى الفترة الراشدة من حياة المسلمين تطالعنا الأحداث الجليلة والعظيمة فى آن واحد وكان لكل حادث منها أثر واضح فى تحول الجماعة المسلمة من حال الضعف إلى حال القوة كما كان لها ثمارها اليانعة الدانية على مر العصور والأجيال.

ونحن مازلنا نعيش فى شهر الهجرة فهذا الحدث الكبير الذى فجر طاقات الجماعة المسلمة فآتت أكلها أضعافا كثيرة سوف تبقى على الزمان آثاره وثماره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وإذا كان لكل حدث من أحداثنا الإسلامية آثاره وثماره التى خلدت مع الزمن وصارت معلمًا من معالم الإنسانية الكاملة وعملاً من أعمال الإنسان المهذب الراشد فإن الهجرة النبوية التى حدثت منذ أربعة عشر قرنا من الزمان مازالت تظللنا بظلها الظليل وتذكرنا بأعمال رسولنا الأمين ﷺ وصحبه الأخيار وما الأمة الإسلامية التى تعيش الآن وتملأ فجاج الأرض إلا أثر من آثارها ومعلم من معالمها وغرس أثمر وآتى أكله أضعافًا كثيرة.

عملت الهجرة النبوية على تكوين الدولة الإسلامية فقامت أصلب ما تكون وعملت أعظم وأعدل وأكرم وأنبل ما عرفت الدنيا من مبادىء وكانت الإسلام قولاً وعملا وشريعة ودستوراً ونظاما وتطبيقًا، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110)، وقال عز شأنه فى آية أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143).

قامت الدولة الإسلامية ـ أول ما قامت ـ فى المدينة على أركان وطيدة وأسس ثابتة هى قوام الأمم والدول فاتفقت بها مع سنن الاجتماع ومبادىء العمران وتوفرت لها العناصر التى لابد منها لقيام الدولة وهى: -

الأرض التى عاشت على الدولة الجديدة التى سوف تحمل رسالة العدل إلى

شرق الدنيا وغربها والشعب الذى سوف يأخذ مكانه تحت الشمس ويثبت وجوده بين شعوب العالم والحكومة التى سوف تقول كلمتها فى الشرق فيسمعها من فى الغرب كما أنها سوف تدير سياسة الدنيا وفق مبادئها وشريعتها ثم القانون الذى حفظ الأرض ودافع عنها ورعاها ونظم الشعب ورباه ووجه الحكومة إلى أقوم المبادىء وأشرف الغايات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: 9) وقال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (الكهف: 2,1) .

أصبحت المدينة المنورة قاعدة الدولة الإسلامية إبان قيامها وهاجر المسلمون سراعا إليها بل كانت الهجرة فى حينها نوعًا من العبادة لله وصار واجباً على كل مسلم قادر أن يسارع إلى الهجرة وبناء الوطن الجديد كما صار ترك المدينة بعد الهجرة إليها إعراضًا عن تكاليف الحق ونكوصًا عن نصرة الله ورسوله ذلك أن الحياة بها دين حيث أن قيام الدين يعتمد على إعزازها . قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 9) ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: 72) .

ويحض النبى ﷺ على سكنى المدينة دار الإسلام الجديدة وفى هذا ما يدل على أن المدينة كانت قاعدة الإسلام منها ينتشر ويقوى ويصل إلى أنحاء الدنيا ، فعن عمر رضي الله عنه قال : «غلا السعر فاشتد الجهد » فقال الرسول ﷺ : **«اصبروا وأبشروا فإنى قد باركت على حياتكم ومدكم وكلوا ولا تتفرقوا فإن طعام الواحد يكفى الإثنين وطعام الإثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الخمسة والستة وإن البركة فى الجماعة ومن صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة ومن خرج عنها رغبة عما فيها أبدل الله**

من هو خير منه فيها ومن أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يصبر على لأوائها - شدة الضيق بها - وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا».

وأما الشعب فقد ذكر مع قائده رسول الله ﷺ ذكروا في قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: 120)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 75،74)، فكان المؤمنون في عصر النبي ﷺ أربعة أصناف: الأول: هؤلاء المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر وأما الطائفة الثانية: فهم الأنصار أهل المدينة الأصليين أصحاب الزرع والدار وأما الطائفة الثالثة: فهم المؤمنون الذين لم يهاجروا وأما الطائفة الرابعة: فهم المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية

وكان الصنف الأول: أفضل وأكمل من سواهم ولذلك وصفهم الله بالإيمان ووصفهم بالمهاجرة كما وصفهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وناهيك بسبق هؤلاء إلى كل هذه الصفات الكاملة. وكان معهم في هذه الدرجة السامية في الفضل هؤلاء الذين آووا رسول الله ونصروه هو ومن هاجر إليهم من الصحابة الذين سبقوهم بالإيمان ولولا ذلك لم تحصل لهم فائدة الهجرة ولم يكن لهم مبدأ القوة والسيادة وكانت يثرب ملجأ ومأوى للمهاجرين شاركهم أهلها في أموالهم وآثروهم على أنفسهم وكانوا أنصار الرسول يقاتلون من قاتله ويعادون من عاداه ولذلك جعل الله حكمهم وحكم المهاجرين واحداً في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال: 72)، بعدهم الصنف الثالث من المؤمنين: وهم المقيمون في دار الشرك وتحت سلطان المشركين وحكمهم وحكم هؤلاء أنه لا يثبت لهم من ولاية

المؤمنين إلا فى حالة واحدة هى ما أشار إليها القول الكريم : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: 72) وبقيت الطائفة الأخيرة وهم الذين تأخرت هجرتهم عن الهجرة الأولى كما تأخر إيمانهم عنهم وحكمهم على كل حال أنهم يلحقون بالمهاجرين والأنصار ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ (الأنفال: 75) .

وأما القانون الذى حكم هذه الدولة فلم يكن غير كتاب الله وسنة رسول الله وكان نعم القانون والنظام حقق ما تصبوا إليه الدولة الجديدة من هدوء واستقرار وعدالة ومساواة وحرية وأمن، قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: 42,41) .

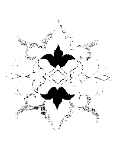
احتكم المسلمون إلى هذا الكتاب فى جميع الأمور الدينية والدنيوية فسادوا وشادوا وانتصروا فى كل ميدان وحطموا عروش كسرى وقيصر ، عروش الظلم والطغيان والجبروت وأقاموا على أنقاضها دولة الهدى والسلام قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء: 105) ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنى قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه» ،

وصار المسلمون مع هذا القانون السماوى يرجعون إليه ويأخذون منه ويردون كل أمر من الأمور إلى هديه وإرشاده مصداقا لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: 59) .

وهذه آية من آياته تبين فى وضوح أن القرآن خير منهاج تحتكم إليه البشرية ولن يكون الهدى إلا فيه ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا

أنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: 50:48) .

وأما الحاكم الذى نظم أمور الدولة الجديدة فكان رسول الله ﷺ باعتباره مؤسسًا للدولة الإسلامية ثم إنه مختار من قبل الله لهذا العمل وأمر المسلمين بطاعته والتسليم له قال تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء: 80) ، وقال سبحانه : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(آل عمران: 31) ، فالقول قوله والتوجيه من ربه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (آل عمران: 31) ، ومن هنا كان لابد من الاحتكام إلى شرعة وإلى سننه : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: 65) .



من ثمرات الهجرة النبوية (2)

نظام الدولة الإسلامية

كان للهجرة النبوية من مكة إلى المدينة ثمرات دانية ونتائج سامية وآثار خلدت على الزمن وجعلت من هذا الحدث الكبير معلمًا من معالم العقيدة القوية والتضحية الرائعة التى لا نظير لها.

وكان من ثمرات الهجرة النبوية وجود بيئة صالحة يزدهر فيها الإسلام وينتشر منها إلى أنحاء الدنيا وعلى أثر انتقال النبى محمد ﷺ من مكة إلى المدينة وجد المكان الصالح للعمل بالإسلام ونشره وأصبح المسلمون أحرارا فى مزاولة الشعائر الإسلامية كما صاروا قادرين على تطبيق أحكام الدين وتعاليمه وقد أنزلت على النبى فى المدينة جميع التشريعات التى تحتاج إليها الدولة الإسلامية الجديدة، نزل فى المدينة أحكام القتال والجهاد وآيات الصيام والوصية وآيات الربا والدين والخمر والطلاق والنكاح والرضاعة والمتعة وغير ذلك من آيات التشريعات الفرعية كانت المدينة منطلق الرسول والمسلمين لنشر الدعوة إلى جميع الآفاق وصاروا يعملون على نشر الدعوة إلى كل مكان بعد أن استقر بهم المقام فى الوطن الجديد واستطاع الرسول أن يرسل الكتب إلى كل الملوك فى الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام كما أنه استطاع أن يرسل الدعاة إلى كل مكان من أرض الجزيرة العربية.

كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر فقال له: **بسم الله الرحمن من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»** وهذا كتاب كسرى وجهه النبى ﷺ إليه مع عبد الله بن حذافة السهمى وفيه يقول: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك وأن محمدا عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس**».

وقال ابن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة (قبيلتان) فقالوا: يا رسول الله إن بيننا إسلاما فابعث نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا شرائع الإسلام فبعث رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه وأمر عليهم مرثد بن مرثد الفنوى فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية الحجاز) غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف وقد غشوهم».

وكان من ثمرات الهجرة النبوية وجود القوة المؤمنة التى تحمى الاسلام واستطاع النبى محمد ﷺ بعد أن وصل إلى المدينة وعاش فيها أن يعد جيشا مؤمنا بالمبادىء العالية ليدفع به عن الإسلام هؤلاء الأعداء واستطاع بهذا الجيش أن يؤمن طريق الدعوة الإسلامية وكان ذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى فى قوله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ (الأنفال: 60).

وفى المدينة فرض الجهاد على المسلمين دفاعًا عن العقيدة والنفس قال تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحج: 40,39)، قال الضحاك: وهى أول آية نزلت فى القتال قال ابن عباس: نزلت عند هجرة الرسول إلى المدينة وروى النسائى والترمذى عن ابن عباس قال: لما أخرج الرسول ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** ﴾ قال ابن العربى: كان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحل له الدماء إنما يؤمر له بالدعاء والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام لإقامة حجة الله عليهم ووفاء لوعده الذى امتن به بفضله فى قوله ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ (الإسراء: 15)، فاستمر الناس فى الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم فمنهم من فر إلى

أرض الحبشة ومنهم من خرج إلى المدينة ومنهم من صبر على الأذى فلما عتت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا نبيه ﷺ وعذبوا من آمن به ووحده وعبده وصدق نبيه واعتصم بدينه أذن الله لرسوله فى القتال والامتناع والإنتصار ممن ظلمهم وأنزل﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** ﴾(الحج: 39) إلى قوله ﴿ **عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ (الحج: 41) .

وفى المدينة جاءت وفود العرب إلى رسول الله ﷺ لتبايعه على الإسلام فقدم وفد مرة حين رجع من غزوة تبوك فى العام التاسع الهجرى وعلى رأسهم الحارث ابن عوف فقالوا: يا رسول انا قومك وعشريتك ونحن قوم من بنى لؤى بن غالب فتبسم الرسول ثم قال: أين تركت أهلك قال: بسلاح وما والاها. قال: وكيف البلاد؟ قال: والله إنا لمستنون (أصابنا قحط) فادع الله لنا فقال الرسول: اللهم اسقهم الغيث. وأمر بلالاً أن يجيزهم (يعطيهم أعطية) فأجازهم بعشر أواق وفضل الحارث بن عوف أعطاه اثنتى عشرة أوقية ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مطرت فى اليوم الذى دعا لهم الرسول فيه.

وقدم وفد ثعلبة وقت قدومه من الجعرانة فى العام الثامن الهجرى فقالوا: يا رسول الله نحن رسل من خلفنا من قومنا وعن قوم يقرون بالإسلام فأمر لهم الرسول بضيافة وأقاموا أياما ثم جاءوا ليودعوهم فقال لبلال: أجزهم كما تجيز الوفد فجاء بنقر من فضة وأعطى كل رجل منهم خمس أواق ثم انصرفوا إلى بلادهم» وهذه هى رواية ابن سعد فى الطبقات.

وكان من ثمرات الهجرة وجود أعدل حكم وأصلح حاكمين من الناس ولم تشهد الدنيا حكاما رفعوا راية العدل فى أدق معانيه وأوضح صوره ومراميه مثل ما رأته من الرسول وأصحابه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة فقال رسول الله: «**لم تشفع فى حد من حدود الله؟**» ثم قام رسول الله ﷺ فاختطب فقال: «**إنما أهلك الذى من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

وعن سالم بن عبد الله بن عمر قال: كان عمر رضي الله عنه إذا نهى الناس عن أمر دعا

أهله فقال: إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإنما ينظر الناس إليكم نظر الطير للحم فإن وقعتم وقع الناس وإن هبتم هاب الناس وإنه والله لا يقع أحد منكم فى شىء نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه منى».

ولقد قام أبو بكر رضي الله عنه بعد توليته الخلافة فخطب الناس خطبته أبان فيها ما اعتزم على سلوكه فى سياسة الأمة بيانا لا ابهام فيه فقال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخير منكم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة القوى فيكم ضعيف عندى حت آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه إن شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» وعن ميسرة عن شريح القاضى قال: لما توجه على رضي الله عنه إلى صفين افتقد درعا له فلما انقضت الحرب ورجع إلى الكوفة وجد الدرع فى يد يهودى فقال لليهودى: الدرع درعى ولم أبع ولم أهب فقال اليهودى: درعى وفى يدى فقال على نسير إلى القاضى فدخلا على شريح القاضى فقال شريح: قل يا أمير المؤمنين فقال: نعم هذه الدرع التى فى يد هذا اليهودى درعى ولم أبع ولم أهب فقال شريح: ما تقول يا يهودى؟ فقال اليهودى: درعى وفى يدى فقال شريح: ألك بينة يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى فقال شريح: شهادة الإبن لا تجوز للأب ثم قضى بالدرع لليهودى فقال اليهودى: أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضية وقضى عليه أشهد أن هذا هو الحق وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين.

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت له: تكلم أنت يا أمير المؤمنين فقال: إن الله بعث محمدا ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك الناس شربهم سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملهما ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان بن عبد الملك حتى أفضى الأمر إلىَّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو

أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه قالت له : إن بنى أمية يقولون كذا وكذا فلما قال لها هذا الكلام قالت له : إنهم يحذرونك يوما من أيامهم فغضب وقال : كل يوم أخافه إلا يوم القيامة فلا آمن شره فرجعت إليهم فأخبرتهم وقالت : أنتم فعلت هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا .

ولئن كانت الهجرة قد انتهت كيوم من أيام التاريخ إلا أنها مازالت تلح على الأذهان بدروسها وعبرها وهى باقية بهذه الدروس والعبر إلى يوم القيامة وأول ما توحى به إلى الأذهان والعقول الهجرة فى سبيل المبدأ والعقيدة ولو أدى هذا إلى ترك الوطن العزيز الغالى الذى عاش الإنسان فوق أرضه وارتوى بمائه وارتبط بتراثه وترابه . قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ (النساء: 97) وكذلك توحى الهجرة إلى الأذهان والعقول من الدروس والعبر فإن الهجرة الدائمة الباقية إلى يوم القيامة أن يهجر الإنسان حياة العصيان والطغيان والفسق والفجور وقد صح عن النبى ﷺ قوله : «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» .



دور الهجرة فى بناء دولة الإسلام

كانت هجرة المسلمين مع رسول الله من مكة إليالمدينة بداية خير عميم وفتح عظيم وعمل كريم ومعجزة إلهية كبرى تجلت على الإنسانية كلها وغيرت معالم المجتمع العربى تغييراً شاملاً فى كل ناحية من نواحى الحياة فى الأخلاق والعقائد فى المال والاقتصاد فى السياسة والعسكرية فى العلم والمعرفة وحسبك أن تنظر إلى وضع الأمة العربية قبل الهجرة وبعدها فسوف تجد فرقا كبيراً وبونا واسعا بين الحالين.

هذه يثرب يقطنها العرب واليهود فرقتان متناحرتان تكيد كل واحدة منهما للأخرى وتتربص بها الدوائر وهكذا كان يعيش الأوس والخزرج بينما اليهود يتمتعون بخيرات المنطقة وثمراتها وتنتشر فيها مستعمراتهم.

هيأ الإسلام هؤلاء العرب فجعل من المتقاتلين إخوة ومن المتخاصمين أنصاراً لرسول الله قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 63).

وهذه مكة يعكف أهلها على وثنية حمقاء وجاهلية عمياء يدفعون عنها ويذودون عن حماها ويقولون فى شأنها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: 22).

هو ـ إذن ـ مجتمع متخلف ومختلف تختلف قبائله وتتناحر وتتقاطع وتتقاتل مجتمع لا تهتم بشأنه الأمم المجاورة، ولا تجعل له وزنا ولا تحس به الدنيا فكان لابد له من تغيير ويشمل الحياة كلها وتربية أصيلة تربى أبناءه على الترابط والتعاون وعقيدة طيبة صالحة أصيلة تجعله يقتحم الغمرات ويقدم التضحيات.

وجاءت الهجرة بخيرها وبركتها ويمنها وإسعادها فجعلت من الموت حياة ومن الضعف قوة ومن الخوف شجاعة وإقداما، ومن الشقاء سعادة وأمنا وعزة ومجدا ومن التخلف حضارة ومن التأخر علما وقيادة ومن الشر والرذيلة صدقا ويقينا وفضيلة حتى صار الوثنى مؤمنا والمشرك مسلما قال جعفر بن أبى طالب: للنجاشى ملك الحبشة ـ أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش

ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئا ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وأمرنا بالصلاة والصيام فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحل لنا فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا عن عبادة الأوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك» .

ومن هنا كانت الهجرة إلى المدينة سببا لتغيير شامل شمل كل نواحى الحياة فى المجتمع البشرى والجزيرة العربية بوجه خاص ولم تكن بالأمر الهين على نفوس المسلمين أن يخرجوا من ديارهم وأموالهم لولا العقيدة القوية الراسخة التى رباهم عليها رسول الله فقد حفظ لنا التاريخ صور طيبة ونماذج مؤمنة من صور الحنين لمكة ومن نماذج اليقين لحب الوطن عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : لولا الهجرة لسكنت مكة فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة» وقال عبد الله بن أم مكتوم : - وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله حين كان يطوف بالبيت العتيق : -

يا حبذا مكة من وادى ... أرض بها أهلى وعوادى
أرض بها ترسخ أوتادى ... أرض بها أمشى بلا هادى

وهذا رسول الله ﷺ ينظر إلى مكة بعينه ويقول وهو فى طريقة إلى المدينة : **«والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله وأكرمها على الله تعالى ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت»** .

كانت الهجرة لعمل أنبل وأكرم لأن ينتصر هذا الدين الحنيف وكانت لهدف أعظم لأن تصبح الحياة ربانية الغاية والقصد ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ (البقرة: 138) ، وتحمل عبء هذا العمل الجليل وخرجوا سراعا إلى الموطن الجديد لبناء الدولة الجديدة التى سوف تحمل رسالة الخير والنور والهداية

ففازوا بسعادة الدنيا وفلاح الآخرة قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: 74) .

إن العمل في هذه الفترة من تاريخ الإسلام ـ التي كانت من الهجرة إلى الفتح ـ من أعظم الأعمال وأفضل القربات عند الله قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد: 10) .

غيرت الهجرة معالم المجتمع العربي في الجانب الإجتماعي والخلقي فرأينا القبائل العربية تتسابق إلى البذل والتضحية والنداء والترابط والتعاون والصدق والإخلاص وظهر الإيثار ـ لأول مرة في تاريخ الدنيا ـ فكان من أعظم الأخلاق أثراً في حياة الجماعة المسلمة والذي برهن على مكانة الإسلام وقوة أثره في نفوس المسلمين .

إن المرء ليستطيع أن يكون صادقا أمينا حليما عفيفا شجاعا مقداما لو أنه شاء لأن ذلك لا يكلفه شيئا وقد يستطيع أن يعفو عن المسيء وأن يكون ذا مروءة ونجدة لو أنه أراد لأنه لا يحتاج إلى عناء كبير .

أما أن يتنازل عن ماله وهو أحب الأشياء إليه وإلى كل نفس ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ (آل عمران: 14) .

أما أن يضحي بزوجته فيطلقها كي يتزوجها غيره ـ وهو عليها حريص ـ ويتنازل عن صاحبته لآخر كي تقترن به ـ وهو بها بخيل ضنين وهو في كل ذلك مطمئن بهذه التضحية راض عنها فهذا ما لم نجده في أمة أخرى غير أمة الإسلام .

لذا لا نبالغ إذا قلنا : إن ما فعله الأنصار مع المهاجرين لا يوجد له مثيل في تاريخ الشعوب والجماعات لأنه فوق احتمال الناس لا يقوم به إلا من عاش في نور

الإسلام وتعاليم رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 9) ، وقد ورد فى السنة صور رائعة من هذا الإيثار .

وغيرت الهجرة معالم المجتمع العربى فى الناحية الإقتصادية وطرق المواصلات فى الجزيرة العربية كلها .

فما كاد المسلمون ينتقلون إلى الموطن الجديد حتى استطاعوا أن يحرروا اقتصاد المدينة من استغلال اليهود واحتكارهم وصار الأمر فى أيدى المسلمين وأبطل الإسلام كل أنواع الاستغلال والربا والاحتكار الذى كانوا يتعاملون على أساسه ورأى المجتمع نوعا جديدا من الاقتصاد والمعاملات عماده التعاون والمرحمة والحب والإخاء فلا استغلال ولا ربا قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: 130) .

قطع القرآن دابر هذا النوع الخسيس من التعامل بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: 275) .

وأمر بتركه أمراً لا يقبل شكاً ولا جدالاً قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 278) ، وأخرج مسلم وأحمد عن جابر رضي الله عنه قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال : **هم سواء»** .

وعاش الاقتصاد فى ظل الإسلام يؤدى دوره البناء فى حياة الناس مما يبطل مزاعم المضللين قديما وحديثا من أن الربا يرتبط ارتباطا وثيقا بتقدم الدول وتأخرها فى الناحية الإقتصادية فلم يعرف المجتمع البطالة ولم ير وجهها الكئيب وإنما أدرك كل فرد أنه حامل رسالة وعليه واجب لابد من أدائه مؤمنا بقول الله تعالى : ﴿إِنَّا لا

نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الكهف: 30) وقوله عز شأنه : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: 105) ، وقول رسول الله ﷺ : «**من بات كالا من عمله بات مغفورا له**» .

وجعل السعى للحصول على نعم الحياة من خير ما يتقرب به الإنسان إلى ربه وفى الحديث : «**من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره لقى الله عز وجل ـ يوم القيامة ـ ووجهه كالقمر ليلة البدر**» .

وغيرت الهجرة معالم المجتمع العربى فى نظام الحكم والإدارة والسياسة فرأينا نمطا فريداً فى الإدارة ونظاما جديدا فى الحكم والسياسة ولونا طيبا من العلاقة بين الحاكم والمحكوم أساسه الحب والتفاهم والتعاون والتشاور بعد الذى رأينا من استبداد رؤساء القبائل وبعد الذى وجدناه من طغيان الأباطرة والطغاة المستبدين وبذلك انتقل العالم إلى درجة عالية من الحرية والمساواة إذ قام الحكم الإسلامى على العدل والشورى وأمر الله رسوله الكريم أن يستشير أصحابه فى كل أمر يتصل بحياتهم تأصيلا لهذا المبدأ فى مجتمعهم وقياما بواجب التربية التى تنفعهم قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: 158) .

ومدحهم الله حين حققوا هذا الغرض العظيم فى حياتهم وسلوكه فى جملة من الأمور الحسنة التى تتحلى بها النفوس المؤمنة وتتزين به الجماعة المخلصة قال تعالى : ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى: 37) فكان أمرا عظيما تحدثت عنه الآيات مع جملة من الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة .

وعلى أساس الشورى والعدل قام الحكم فى المجتمع الإسلامى عندما قام فى بداية الأمر فصار على الحاكم واجبات تجاه المحكومين ووجب على الحكام واجبات يؤدونها للمحكومين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ (النساء: 58) .

وقد جلس الرسول بين أصحابه كى يأخذ رأيهم فيما جد من مشكلات

فاستشارهم فى حرب بدر وفى أسراها واستشارهم فى الخروج إلى أحد واستشارهم فى أمر الأحزاب وفى كل مرة منها يدور بينهم الحوار فإما قبلوا رأيه وإما رفضوه دون بأس أو حرج طالما كان الأمر بعيداً عن توجيهات الوحى .

وظل رسول الله على هذه الحال طيلة حياته فى الرسالة وقام بالأمر من بعده أبو بكر ثم عمر فسار كل منهما على هذا المبدأ بل طلبا من جمهور المسلمين أن يصححوا أخطاءهما إ ن صدر منهما خطأ دون غضاضة أو كبرياء فإن الكمال لله وحده والعصمة ليست إلا لرسوله .

وغيرت الهجرة معالم المجتمع العربى فإنه على أثرها انتقلت القوة فى جزيرة العرب إلى أيدى المسلمين وتحولت القوة من القبائل المتفرقة إلى هذه الجماعة الناشئة وصارت تنمو على الأيام فبينما كانت قوة المسلمين فى مكة لا تذكر وليس لهم شأن صارت فى غزوة بدر ثلاثمائة فى العام الثانى الهجرى وارتفعت إلى ثلاثين ألفا عند الخروج إلى تبوك فى العام التاسع الهجرى وتسابق المسلمون إلى الكفاح والجهاد لكى ينشروا رسالة الله ويحققوا العدالة لبنى الإنسان .

وبهذه الآثار التى ترتبت على الهجرة النبوية تحولت أنشطة المجتمع إلى الإسلام وبرز دور الهجرة فى بناء الدولة الإسلامية ثم ارتفعت راية الدين الحنيف فكانت عطية ربانية لهذه الجماعة التى صدقت فى دعوتها وأخلصت فى القيام برسالتها قال تعالى : ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (الأنفال: 26) . وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ (آل عمران: 123) .

ولم يمض وقت طويل حتى كانت دولة الإسلام شامخة الذرا تقول كلمتها فى الشرق فيسمعها من فى الغرب وحيث الدولتين الكبرتين فارس فى الشرق والروم فى الغرب مصداقا لقوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء : 105-107) .

كونت الهجرة النبوية الدولة الإسلامية فجاءت طبق موافقات القدر وقامت

على أسس مواصفات الدول فكانت نور الحياة وأمن الدنيا وإنقاذًا للشعوب المغلوبة من براثن الاستبداد وأثرا خالدا على الأيام، مما جعل من هذه الهجرة فاصلا بين عهدين عهد الضعف والتضييق والقهر والتعذيب فى مكة وعهد القوة والانطلاق والحرية والتنظيم والعمل فى المدنية ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وإذا كان هناك من كلمة نقولها لمسلمى العهد الحاضر بهذه المناسبة الطيبة فهى : -

أولا: يجب على المسلمين أن يقرأوا هذه الصفحات المشرقة من تاريخ الإسلام فى مصادرها الأولى القديمة قبل أن تلوثها الكتابات المغرضة فيقرأوا سيرة الرسول الأمين فى منابعها الأولى وتاريخ الصحابة والتابعين فإننا - معشر المسلمين - فى العهد الحاضر نعانى أمية دينية تاريخية وكثير منا لا يعرف شيئاً يذكر من تاريخ أمته فوجب أن يكون على ذكر كبير عميق بمآثر الأولين وتضحيتهم ولن يكون ذلك إلا عن طريق الاطلاع على مآثر الأمة الإسلامية وأمجادها .

ثانيا: تردد فى المجتمع الدولى فى هذا العصر نظرية تقسيم الدول إلى نوعين النوع الأول دول متقدمة غنية والنوع الثانى دول نامية وإذا أريد المعنى الحقيقى لكلمة نامية فسوف يكون المعنى إنها دولة متخلفة والنظرية - لاشك - نزعة استعمارية .

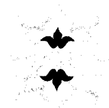
أقول : إن من المدون فى سيرة الرسول الأمين ﷺ أنه أرسل فى العام التاسع الهجرى جملة من الرسائل إلى ملوك الدول المجاورة فى الفرس والروم والحبشة ورؤساء القبائل العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام .

فهل فى استطاعة ملك أو رئيس فى العالم الإسلامى اليوم أن يرسل إلى رئيس دولة كبرى فى عالمنا المعاصر يدعوه فيها إلى مبدأ من المبادىء أو رأى من الآراء؟ والجواب : لا ونقولها لا بملء فمنا لأنه لا يستطيع أن يفعل والسبب فى ذلك واضح كل الوضوح فإن مجموعة الدول الإسلامية تقع كلها فى محيط الدول النامية التى لا تمثل تقدما أو حضارة، وليس عندها الآن غنى أو ثراء وبالتالى فهى لا تمثل مبدأ ولا رأيا ولا تحمل رسالة أو دعوة وهب أنه أراد أن يدعو فإلى أى شىء يدعو، أيدعو إلى الاشتراكية أو الشيوعية فهم أساتذتها وهم الذين صدروها إلينا؟ أم يدعو إلى الرأسمالية فهم أغنياء ونحن فقراء رغم ما يوجد فى بلادنا من مصادر الغنى والثروة

فلم يبق إلا الإسلام يدعوه إليه ونبادر فنقول: إن فاقد الشيء لا يعطيه فكيف يدعو إلى الإسلام والدول الإسلامية لا تحتكم إلى الإسلام ولا تعمل به.

إن الرسول كان فى دولة لو قيست بمصطلح العصر الحاضر لسلكت عداد الدول النامية فلم يكن قد مضى على قيام دولته تسع سنوات ولكنه كان يمثل رسالة ويحمل دعوة فليبلغها إلى الناس وليسمع الآذان صوتها وليقدم فى سبيلها أعز ما يملك فليعد المسلمون إلى الله وليحملوا رسالتهم من جديد وليعرفوا موقعهم بين أمم العالم ودوله وليقرأوا تاريخهم وليفهموا أنهم خير أمة أخرجت للناس.

ثالثا: وكلمة أخيرة لابد أن نقولها للملوك ورؤساء الدول الإسلامية إنكم تقودون أعظم أمة حملت أعظم رسالة لو عرفتم. وكان لهذه الأمة دور فعال فى حياة الأمم والشعوب وإنكم تمثلون تاريخًا لم يشهد العالم له نظيرًا من قبل وتستطيعون أن تصلوا بهذه الأمة إلى آفاق النجوم لو أردتم فليكن لكم من ماضى أمتكم وتاريخها أمل الحاضر وعدة المستقبل واعملوا ما وسعكم الجهد على جمع شمل الأمة وتنمية مواهبها وإخراج كنوزها من أرضها ورد العدو عنها، وطرد المستعمر الدخيل من أرضها فإن فعلتم فلكم عز الدنيا وفلاح الآخرة.



الهجرة والجهاد

الهجرة من أعظم الذكريات الإسلامية أثرًا فى حياة الأمة وأجلها خطرًا وأبقاها على الزمان خلودا وفخرا ذكرى هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة بعد أن تآمرت عليه قوى الشرك والبغى والعدوان والطغيان لا لشىء إلا أنه أراد بدعوته أن يسمو بتفكيرهم وعقولهم من العقائد الصبيانية إلى العقيدة السامية الإلهية التى خلقهم الله عليها والتى كرم البشر على غيرهم من أجلها فإن الله خلق الناس على الإيمان ولكنهم يطمسون معانى هذا الإيمان فى النفس بما يقترفونه من آثام وبما يفعلون من شرور وقبائح فكانت الرسالات لعودة الناس إلى صفاء الروح وهذا ما تتحدث عنه الآية الكريمة ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ (الروم: 30) ، ولكن أكثر الناس لا يقدرون ذلك . وقد تآمروا عليه حين قرروا مصادرة الدعوة بالتشويش على القرآن حتى لا يتمكن من إسماع صوته إلى غيرهم ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ (فصلت: 26)

وتآمروا عليه حينما أرادوا له أن يمكث فى بيته فلا يصلى بجوار البيت الحرام وقام شيطان القوم «أبو جهل» وقال له مرة بعد أن رآه يصلى : ألم أنهك عن هذا؟ وحينما رد عليه رسول الله وأغلظ له فى القول وهدده قال له : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا؟ فأنزل الله تهديدا له فى آخرة سورة أقرأ ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب**﴾(العلق: 19:9)

ثم تآمروا عليه وهو يصلى ذات يوم فقال بعضهم لبعض : أيكم يقوم إلى سلا جزور فلان ـ فرث جمل ـ فيضعه بين كتفى محمد إذا سجد فانبعث شقى القوم «عقبة بن أبى معيط» فأخذه فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ولم يزل ﷺ ساجدًا حتى جاءته فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته فلما انتهى من صلاته دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال : **اللهم**

عليك بالملأ من قريش وسمى قواماً بأسمائهم . قال ابن مسعود : فوالذى بعث محمدًا بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر» .

واستمر التآمر حتى وصل مداه وبلغ الحقد الوثنى ذروته وهاهم أولاء يجتمعون فى دار الندوة ليتشاوروا فيما عساهم أن يفعلوا فى شأنه وأصبح الأمر متردداً بين النفى أو الحبس أو القتل واستقر فى النهاية على القتل بطريقة تهدر دمه وتفرق أمره فى القبائل كلها ولكن تدبير الله كان فوق تدبيرهم فأمر رسوله بالهجرة من بينهم قال تعالى : **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** (الأنفال: 30) ، وعلى هذا خرج رسول الله وأصحابه مهاجرين إلى المدينة تاركين مكة وديارهم وأموالهم .

فهل كانت الهجرة ضربا من لقاء الموت أو فرارا من الأذى أو خوفا من الطغاة المستبدين؟ كلا! لأن هؤلاء المهاجرين الأولين وفى مقدمتهم رسول الله كانوا رضاه يبتغون فضل الله وكانوا وقود المعارك والغزوات الكبرى التى دارت رحاها بين الفريقين لهدم كل الطواغيت المتكبرة والسلطات المستبدة ولم يعرف عن واحد منهم أنه تردد فى موطن الموت لحظة والبذل ساعة ويقدم إلى الاستشهاد وعلى لسانه قول أخيه :

ولســـت أبالى حين أقتل مـــسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

إذن فلم كانت الهجرة؟ كانت الهجرة تصميما على الكفاح فى موطن آخر واستمرارا للتضحية بعيداً عن ضغط قريش وأذاها وتصعيدًا لمراحل الجهاد المسلح فى سبيل العقيدة وفى سبيل قيام الأمة الناشئة بعد أن يتكون جمعها ويلم شملها كانت الهجرة لأن الإسلام يفرض على أتباعه فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخه أن يعيشوا من أجله حتى يؤسسوا الدولة الفتية ويقيموا له الأمة القوية فإذا صارت للإسلام أمة ودولة فلا عليهم بعد أن يبذلوا دماءهم فداء لها ويقدموا أرواحهم دفاعا عنها فما كانت الهجرة فرارا وإنما كانت انتصارا وكذلك سماها الإسلام **﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ**

اللَّه هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 40) .

كانت الهجرة لينظم المسلمون صفوفهم لحمل راية الكفاح والجهاد ضد الوثنية الطاغية بعد أن قضوا ثلاثة عشر عاما فى مكة أعيتهم فيها الحيلة والموعظة الحسنة .

كات الهجرة بعد أن ظل رسول الله وأصحابه طوال عهدهم فى مكة معذبين مضطهدين وليت الحمقى المشركين تركوهم يعرضون دعوتهم على الناس فإما قبلوها عن طواعية واختيار أو رفضوها بعد أن محصتها قلوبهم ولكنهم اعترضوا سبيل الدعوة وآلوا على أنفسهم أن يطفئوا نورها ويقضوا عليها فى مهدها فلم يكن من بُدٌّ الهجرة بعيدا عن هذه القرية الظالم أهلها وأخذ الأهبة للدفاع عن النفس لأنهم لابد واجدون من المشركين مناوأة شديدة فى مستقبل أيامهم والقضاء على جماعتهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: 40,39) .

ومن هنا كانت الهجرة بابا من أبواب الجهاد والفداء وعملا من أعمال التضحية والبذل وسبيلاً من سبل الصراع الدموى الرهيب وميداناً اصطرعت فيه قوى الإيمان والعقائد الإلهية مع أرباب الشرك والباطن ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبأ: 49,48) فلم تكن الهجرة إخلاءًا إلى الراحة والنعيم وركونا إلى الهدوء والسكينة وإنما هيأت المسلمين للنضال الشاق المضنى بالنفس والمال والوالد والولد وغير ذلك من كل ما يحبه الإنسان ويعشقه :
﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: 24) .

هذه كلمة عن الجهاد نأخذها من الهجرة فى عيد الهجرة لتكون ضياء للمسلمين فى عهدهم الحاضر وحفزًا لهم كى يقفوا أمام أعدائهم الذين تآمروا عليهم وعلى مقدساتهم وأوطانهم فحرى بهم أن يأخذوا من دروس الهجرة عبرة الماضى وأمل الحاضر وعدة المستقبل كما فعل الأولون من أصحاب رسول الله حينما خرجوا من مكة ليقابلوا أعداءهم وهم أقوى نفسا وأشد حزما وعزما .

إن الهجرة فتحت طريق الجهاد أمام المسلمين فعبأت قواهم الروحية والمادية والمعنوية مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (النساء: 75.74) وفى آيات أخرى من القرآن نلمس دعوة قوية دافعة إلى الجهاد فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف: 13:10) وسبب نزولها كما يقول ابن عباس : أن الصحابة كانوا يقولون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه ونجد فيها أكثر من معنى وأكثر من شارة إلى الفضل الإلهى يسبغه الله على المجاهدين فى سبيله كما غمر به المهاجر العظيم ﷺ فى هجرته وقد قدمت بدعوة إلهية إلى الجهاد فهى التجارة الرابحة والسعادة الدائمة والنصر المؤزر على الأعداء فى الدنيا ومغفرة الذنوب ودخول الجنة فى الآخرة .

فجدير بالمسلمين أن يفقهوا رحلة الهجرة على ضوء الكفاح والنضال وليعلموا أن رسول الله لم يدع العمل المضنى وأخذ الأهبة لرحلته ولم يترك للصدفة أن تسيرة فى هجرته بل أعد العدة للأعداء شأن المجاهدين فى كل عصر ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: 60) وقد أوحت الهجرة إلى المسلمين بالجهاد وفتحت أمامهم باب الصراع ضد الشرك والوثنية والطغيان والاستبداد فرأينا الشهداء يتساقطون صرعى فى ميدان الشرف والاستشهاد فى سبيل المبادىء السامية والعقائد السليمة فحفظوا بهذا مصير الإسلام فى الأرض . وهذه مثل فريدة فى تاريخ البطولة فروى أن أبا خيثمة قدم ابنه فى غزوة بدر فجاء إلى رسول الله فى غزوة أحد وقال له : لقد أخطأتنى وقفة بدر وكنت ـ والله ـ عليها حريصاً حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج فى القرعة سهمه فرزق الشهادة وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة

وأنهارها يقول: الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا. ثم قال: وقد أصبحت يا رسول الله مشتاق إلى مرافقته وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة خيثمة فى الجنة فدعا له الرسول فقتل بأحد شهيدا.

وثمت مثل آخر: كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله فلما توجه الرسول إلى أحد أراد أن يخرج معه فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو رسول الله فقال: إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله: «**أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**» وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة** » فخرج مع رسول الله فقتل يوم أحد شهيدا.

وقال نعيم بن مالك - يوم أحد -: يا نبى الله لا تحرمنا الجنة - وذلك قبل نشوب القتال - فوالذى نفسى بيده لأدخلنها فقال له رسول الله: بم؟ قال: بأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف فقال له رسول الله « صدقت واستشهد يومئذ».

هذه مثل رائدة للرجولة الفارعة قام بها الآباء والأجداد ذودًا عن الحمى ودفاعًا عن العقيدة رباهم عليها رسول الله طيلة مقامهم فى مكة وفجرت ينابيعها هجرته الكريمة فلما اصطدمت بالشرك زلزلته عن مكانه وجعلت الأرض تميد تحت قدميه ثم لم يلبث أن أخذ فى التدهور والتلاشى ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (الأنعام: 115).

فهل يعرف المسلمون فى عهدهم الحاضر موقفهم من أعدائهم والصهيونيين كما عرف آباؤهم من قبل فيأخذوا بطريق الجهاد والبذل ويحملوا السلاح لقتال هؤلاء الأعداء ويوحدوا صفوفهم وينبذوا خلافاتهم ويعتصموا بحبل الله ويسيروا على هدى رسول الله؟!!.

صور من الهجرة

إننا إذا تحدثنا عن حوادث الهجرة فى شهر الهجرة فإنما لنكشف صفحة مشرقة وضاءة من صفحات العزة والإباء والمجد والفخار والحرية والاستقلال سجلها المهاجرون الرعيل الأول من أبناء هذه الأمة وقاموا بها خفاقًا سراعًا إلى مرضاة الله ومحبة فى رسول الله .

ولم يكن هذا العمل العظيم والشاق فى وقت واحد وتمخض عن ترك المال والدار والأهل والعشيرة والوطن بالأمر الهين ولكنها العقيدة الفاضلة المثلى التى آمنوا بها وذادوا عن حماها كما لم يكن بدعا من أعمال أصحاب الدعوات الإسلامية والرسالات الإلهية فقد جرت سنة الحياة أن ينتقل صاحب العقيدة والمبدأ من موطنه الذى تنكر لعقيدته ومبدئه إلى مكان آخر يجد فيه الحرية والنصر والصديق المعين .

فقد هاجر نوح عليه السلام من موطنه الأصلى الذى ولد فيه ونما وترعرع فوق أرضه وتحت سمائه بعد أن دعا قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك معبوداتهم الباطلة فجحدوا به ونفروا منه وقال تعالى : ﴿**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾ (هود: 27) ، وبعد أن حاجهم بالحجج الواضحة وعاملهم بالحسنى فلم يذعنوا وسخروا من قوله واستعجلوا العذاب الذى حدثهم عنه وهددهم به ﴿ **يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (هود: 32) ، وبدأت هجرته بصنع السفينة حسب أمر الله تعالى وفى الوقت الذى وقته ربنا وحدده صدر الأمر الإلهى الكريم له ولمن معه ﴿**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**﴾ (هود: 42,41) .

وهجرة خليل الرحمن وخليل الإنسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام من وطنه فى جنوب العراق إلى الشام فـفلسطين ثم مصر وأوبته بعد ذلك معروفة كذلك ومشهورة

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71،68) .

وهجرة لوط عليه السلام حينما كفر به قومه وفعلوا الفاحشة التي لم يسبقهم أحد بها من العالمين تحدث عنها ربنا فقال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ (الحجر: 65) .

وموسى عليه السلام قد هاجر من مصر إلى مدين ولم يتم الخروج هكذا عشوائيا بل كان بتدبير من الله فالمعروف أن المكان الجديد «مدين» لم يكن خاضعا في هذه الأثناء للسيادة المصرية ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: 21،20) ، ونجاه الله من كيد فرعون وقومه .

وهاجر مرة ثانية إلى فلسطين ومعه بنو إسرائيل حين كفر به فرعون ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ (الشعراء: 55:52)، وهكذا تمضى الآيات لتبين أن فرعون تبع بني إسرائيل ومعه الجنود كي يرجعهم مرة ثانية إلى مصر ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: 62،61) ، وحصل ما حدثنا عنه كتاب الله من نجاه موسى وقومه وإخراج فرعون .

وعلى هذه السنة هاجر أصحاب رسول الله ﷺ معه وقبله وبعده من مكة إلى المدينة تاركين فيها كل ما يملكون من غال ورخيص لأنها كانت لله وفي الله ومن أجل ذلك أثنى الله بها عليهم ففي مقام الامتنان عليهم يقول الله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: 26) ، ومدح المهاجرين بأنهم في الدرجة العليا من الفضل والشرف الكبير ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ

وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(الحشر: 8) وقال فى آية أخرى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التوبة: 22،21) .

وأنحى باللائمة على المتخلفين عنها ونص عليهم فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: 97) .

على أساس من هذا الفهم الأصيل لكلام الله العزيز وعلى وعى كامل بسنة الحياة وتطورها انطلق أصحاب رسول الله المهاجرين من مكة إلى المدينة يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينشدون مكاناً أهدأ ومجتمعاً فاضلاً وتسابق إلى ذلك الصغار والكبار والرجال والنساء والشيوخ والشباب .

فحينما خرج صهيب مهاجراً اتبعه نفر من المشركين فنزل عن راحلته ونثل ما كان فى كنانته وقال: والله لا تصلون إلىّ حتى أرمى بكل سهم معى ثم أضربكم بسيفى هذا ما بقى منه شىء فى يدى وإن شئتم دللتكم على مال لى دفنته فى مكة وخليتم سبيلى قالوا: دلنا، ففعل فلما قدم على رسول الله ﷺ تبسم له وقال: **ربح البيع صهيب.. ربح البيع صهيب** ونزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: 207) .

وعلى الرغم من أن الله تعالى عذر فى الهجرة من لا يستطيع مشقتها وتكاليفها من الشيوخ والعجزة والمرضى بقوله تعالى ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: 98) .

لكن شيخاً كبيراًمن بنى ليث حدثته قوة الإيمان فى قلبه أنه أهل للهجرة فقال: والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل وإنى لأجد حيلة ولى من المال ما يبلغنى المدينة

وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة ثم قال لأولاده: أخرجونى فخرجوا يحملونه على سرير حتى جاوزوا به قريبا من مكة فبرحت به العلة وحضره الموت فضرب بيمينه على شماله - كهيئة المبايعة - ثم قال: اللهم هذه لك وضرب مرة أخرى وقال: وهذه لرسولك أبايعك على ما بايع رسولك ثم مات.

وبلغ خبره أصحاب رسول الله فى المدينة فتمنوا لو أن الرجل وافى المدينة ليحظى بشرف الهجرة ويكتب له ثوابها فنزلت هذه الآية فى حقه ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: 100).

وصورة أخرى نأخذها من هجرة زوج وزوجة أما الزوج فأبو سلمة وأما الزوجة فأم سلمة فلما أجمع أبو سلمة على الهجرة من مكة إلى المدينة قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد وأخذوا منه زوجته فغضب آل أبو سلمة لرجلهم وقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعرا يده وذهبوا به وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة فكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل صباح إلى الأبطح تبكى حتى تمسى نحو سنة فرق لها أحد ذويها وقال: ألا ترحمون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها: الحقى بزوجك إن شئت فاسترجعت ابنها من عصبته وهاجرت إلى المدينة.

ودخل أبو قحافة غداة الهجرة على حفيدته عائشة بنت أبى بكر وكانت فتاة صغيرة فقال لها: أظن أن أباكم قد فجعكم فى ماله كما فجعكم فى نفسه... والمعروف أن أبا بكر حمل معه كل ماله فى الهجرة - واستطاعت عائشة أن تغرر على جدها الشيخ الضرير فجمعت حصى صغيرا ووضعته فى كوة بداخل الحجرة ووضعت فوقه خرقة وقالت له: كلا لقد ترك لنا مالاً كثيراً وأخذت يده ووضعته على المال الموهوم فهدأ الشيخ واستراح باله.

هذه صور من الهجرة جلاها كتاب ربنا وسنة رسولنا... هذه أمثلة من أمثلة الإيمان واليقين يظهر منها أن الأمة كلها قد تحولت إلى أمة مبادىء ومثل أمة، بطولة ورجولة، أمة تضحية وكفاح.

مع الرسول فى الفتح الأعظم

نعيش مع الرسول العظيم يوم الفتح الأعظم فى مكة وسقوط الوثنية الطاغية إلى غير رجعة .

وحوادث هذه الغزوة تتلخص فى أن الرسول ﷺ رجع بعد صلح الحديبية من غير زيارة ولا طواف بعد أن أملت قريش عليه شروطها وكانت مجحفة بحق المسلمين ـ وكذلك فهموا منها ذلك فى هذه الأثناء ـ وكان منها أن من أراد أن يدخل فى حلف مع قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل مع محمد فى حلف دخل فيه فدخلت مع قريش قبيلة بنى بكر ودخل مع الرسول قبيلة خزاعة .

وكانت مدة الهدنة فرصة طيبة تنسم الناس فيها أنسام الطمأنينة والأمن والحرية بعيداً عن حياة الحروب والقتال ونظر كثير من الناس إلى الإسلام عن قرب ولمست تعاليمه شغاف قلوبهم فمال إلى هذه التعاليم خلق كثير مؤمنين بصلاحيتها لنظام الحياة، قال أبو بكر : «ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد» .

ولم تمض سنتان حتى وقع ما لم يكن فى الحسبان فقد اعتدت قبيلة بنى بكر حلفاء قريش على قبيلة خزاعة أصدقاء رسول الله وقتلوا منهم عشرين رجلاً وليت قريشا وقفت حياديا بل انحازت إلى حلفائها بنى بكر وأمدوهم بالمال والرجال ورأى رسول الله أن يثأر لأصدقائه من ظالميهم فعبأ أصحابه وحثهم على السرعة والبداء وأعلمهم أنه خارج إلى مكة وأمر بكتم الأسرار حتى يأخذ قريشا على غرة ودعا ربه قائلا : **«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها»** وحقق الله دعاءه ووصل إلى مكة ودخلها بدون حرب متواضعاً شاكراً نعماءه وأذعنت له قريش واستسلمت بعد قتال وخصام دام عشرين عاما وسقطت الوثنية الطاغية التى طالما عصت الله تعالى وتمردت على تعاليمه وطهرت الكعبة من الأصنام التى كانت حولها وصار يكسرها بقوس فى يده وهو يقول مرددًا قوله تعالى : **«جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»** (الإسراء: 81) .

هذه هي غزوة الفتح في كلمات ولئن كانت قد انتهت كيوم من أيام شهر رمضان في العام الثامن الهجري إلا أنها لازالت تلح على النفوس والقلوب بدروسها وعبرها ففيها أكثر من درس وفيها أكثر من عبرة ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ (ق: 37).

نأخذ من هذه الغزوة

أولاً: محبة الوطن والدفاع عنه وعدم الركون إلى أعدائه فإن وطن المسلم أمانة في يده يدفع عنه ويزود وقد حدث والرسول خارج إلى مكة أن حاطب بن أبي بلتعة صاحب رسول الله ـ وهو من نعلم سابقته في الإسلام وجهادا ضد أعداء الله والدين ـ كتب كتاباً بعث به سرا إلى قريش يخبرهم فيه بخروج رسول الله إليهم وكانت عناية الله برسوله حاضرة فقد أخبره بما فعل حاطب فانتدب طائفة من أصحابه فلحقوا بالعجوز حاملة الخطاب وأخذوه منها فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله فقال: **يا حاطب ما هذا؟** فقال: يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا قريش ـ كنت حليفا لها ولم أكن من صميمها ـ وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون فيهم أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله: **أما إنه قد صدقكم** فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وانتهت الحادثة عند هذا الحد ولكن بقي للسماء أن تقول كلمتها وأنزل الله تعليما للناس وإرشادا إلى محبة الوطن وحفظ الأسرار وعدم اللجوء إلى الأعداء مهما أظهروا من محبة عليهم وعطف عليهم ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِن**

يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الممتحنة: 3،2،1) .

ثم أخذت الآيات تترى مبينة أنه ينبغى لهم أخذ الأسوة من سيرة الخليل إبراهيم عليه السلام فقد خاصم أباه وقومه فى ذات الله ولم يرضَ أبدا أن يهادنهم طالما هم عاصون لله ومتمردون على دينه ثم بينت الطريق الأمثل للصداقة البريئة لمن لم يحاربوهم أو يساعدوا العدو عليهم ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: 9،8) ، فتقررت بذلك محبة الوطن والحفاظ عليه وعلى أسراره وعدم البوح بها للأعداء مهما أظهروا من نية حسنة ومن مودة للشعوب وعطف عليها .

ونأخذ منها **ثانيا**: أن للطغيان نهاية مهما بلغت قوته وعظم سلطانه وقويت شوكته وأن أصحاب الحق مهما أوذوا وأهينوا لابد واصلون فى يوم من الأيام إلى النجاح فى دعوتهم والنصر المؤزر على أعدائهم والقوة التى لا تدفع والعزة التى لا تغلب، فهذه قريش قد انكسرت شوكتها وانحسر حدها وذلت بعد كبرياء وطأطأت رأسها بعد طول إباء ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: 17) .

ومن هنا وجب على أصحاب العقائد وحملة الدعوات أن يتمسكوا بمبادئهم ويقوموا بأعمالهم غير هيابين ولا وجلين والله سبحانه وتعالى يؤيد خطاهم وينصرهم على أعدائهم، وقد قام أصحاب رسول الله بالدعوة الإسلامية خير قيام فكانوا يأخذون من النبى ما يثبت فؤادهم ويقوى عقيدتهم ويجعلهم يسيرون على هدى وتقوى فتحملوا العنت والمشقة وأوذوا فى سبيل الله وأهينوا فما ضعفوا وما استكانوا وانطلقوا يواجهون أعداء الحياة وعلى لسانهم قول المؤمنين الأولين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: 147)

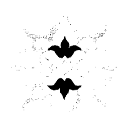
ونأخذ منها **ثالثا:** درساً من أعظم الدروس وعبرة من أقوم العبر وتوجيهاً من التوجيهات السديدة وخلقًا من الأخلاق الكريمة هو العفو عند المقدرة وقد ظهر العفو النبوى فى هذه الغزوة أعظم ما يكون فى عفو المصطفى ﷺ عن قريش فقد أنقذ الإنسانية كلها بهذا العفو يوم وقف على باب الكعبة المشرفة بعد أن فتح الله عليه مكة وأمكنه من رقاب قريش وسقطت الوثنية بعد عشرين عاماً من الكفاح والجلاد والعناد وانتظر الناس ماذا يفعل بهم هذا المنتصر؟ بعد أن تمكن منهم فاشرأبت الأعناق وشخصت إليه العيون ووجفت القلوب وهو واقف بينهم ولم يطل المشهد بل قال لهم فى تواضع ورحمة وخشوع ورأفة وشكر لله على هذه النعمة: «**يا معشر قريش يا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**فإنى أقول لكم كما قال يوسف لأخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

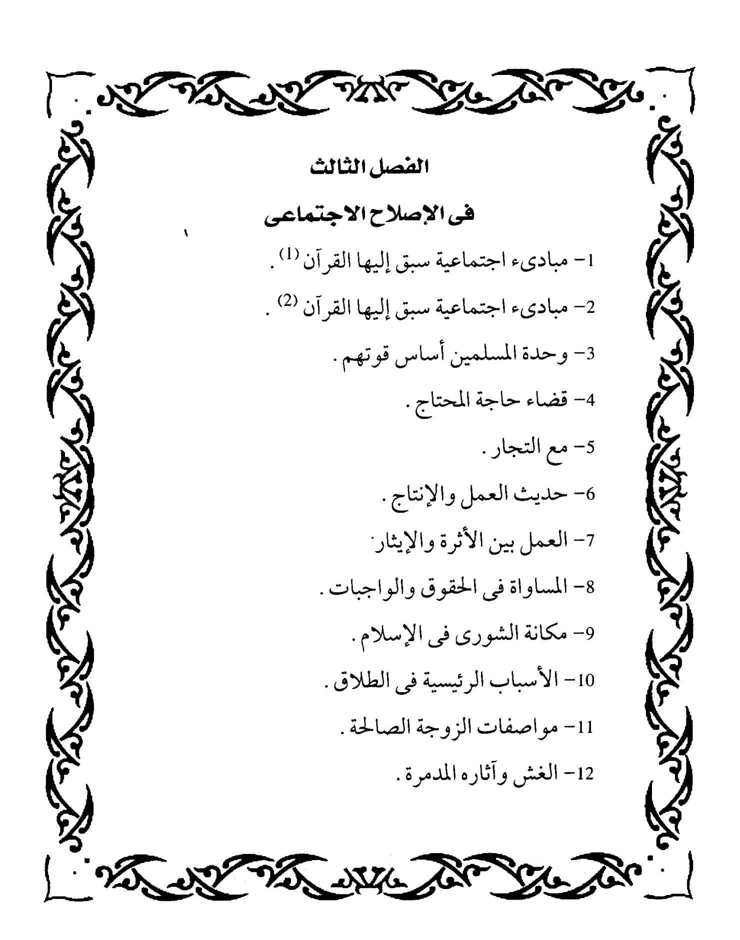
وكان الرسول بهذا العمل العظيم الذى اتسم بالرحمة والرأفة والمحبة والتسامح والصفح والعفو عند المقدرة على خلاف ما كان يحصل من الملوك الفاتحين حيث كانوا يتبعون ما تمليه عليهم سياسة القوة الغاشمة ونظام القهر والإذلال والجبروت فيدكون عمران المدن التى يستولون عليها ويسلبون أموالها ويستذلون أهلها ويبيدون خضراءها ويتركونها خرابا بلقعا تلك كانت سنة الفاتحين من قبل النبى محمد وهو الأمر الذى قالت عنه ملكة سبأ حين أتاها كتاب سليمان كما حكاه القرآن عنها فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴾ (النمل: 34) ، أما النبى محمد فلم يكن ملكًا بل كان رسولاً نبيًا ولم يكن جباراً بل كان رحمة للعالمين ولم يكن فاتحًا بل كان مبشراً ونذيرا ولم يكن مسعر حروب بل كان داعية سلم وأمان.

ونأخذ منها **رابعا:** أنه ليس من الضرورى أن يشهد كل صاحب دعوة وكل جندى نتائج الكفاح والنضال فى معارك الشرف والعقيدة والحق فقد ينتهى أجله قبل أن يصل إلى أمله فيذهب إلى من لا تضيع عنده الأجور والثواب سبحانه وتعالى.

وفى يوم الفتح العظيم تعود بنا الذكريات إلى الرجال المؤمنين الذين لم يشهدوا هذا النصر المبين ولم يسمعوا صوت المؤذن وهو ينطلق بشعار التوحيد من فوق ظهر

الكعبة المشرفة زادها الله تشريفًا وتعظيمًا والقرآن الكريم ينبه أصحاب الدعوات إلى أن المعول عليه فى الثواب على الدار الآخرة لا على الدار الدنيا فهناك الثواب والعقاب للمؤمنين والكافرين جميعا ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** ﴾(غافر: 77) ، وصدق رسول الله وهو يبين منزلة الفتح فيقول: «ا **لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**» .





الفصل الثالث

فى الإصلاح الاجتماعى

القرآن... والحياة

مبادىء اجتماعية سبق إليها القرآن [1]

ولدينا فى هذا ثلاث مبادىء أو حقائق اجتماعية كان للبشر فيها رأى منذ فجر وجودها ودرج الناس عليها إلى أن نزل القرآن على الرسول المصطفى فكان له فيها رأى اتفق به مع طبائع البشر وسنة الحياة وهى المساواة ونظام الحكم وحرية العقيدة .

كانت أمم الأرض كلها لا تعرف إلا أن الناس درجات سادة وعبيد وأعلون وأدنون وعلى هذا المبدأ كانت كل أمة تقسم شعبها إلى طبقات ولا ترى فى ذلك غضاضة ولا بأسا وكان فلاسفة العالم وحكماؤه وقادة الرأى فيه يقرون ذلك ويعترفون به ويرونه النظام الذى لا نظام غيره ولا بديل له حتى لقد اعتبروا العبيد من رتبة غير رتبة البشر كما اعتبروا المرأة مخلوقاً لا روح له .

هذه أمة اليونان قديمًا اعتبروا أنفسهم شعبًا راقياً خلق من عنصر أسمى من عنصر الأجناس الأخرى الذين أطلقوا عليهم اسم «البرابرة» ووقع فى هذه اللوثة بعض مفكريهم وفسلاسفتهم «فأرسطو» وهو أبو الفلسفة اليونانية وصاحب العقل الأول فى اليونان عامة يقرر أن الآلهة قد خلقت جنسين من الناس الأول عنصر اليونانيين الذين زودوا بالعقل والإدراك والإرادة وكذلك كانوا ليكونوا سادة على الناس والنوع الثانى ماعدا اليونانيين وهم البرابرة الذين ليس لهم إدراك ولا معرفة وكانوا كذلك ليكونوا عبيدًا مسخرين .

وبنوا إسرائيل اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار وأن من عداهم من الناس شعوب وضيعة ليس لهم شأن يذكر والكتب المقدسة للبراهمة الهنود تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم والعرب فى أيام الجاهلية كانوا يعتقدون أنهم شعب كامل الإنسانية وأطلقوا على الشعوب الأخرى اسم الأعاجم وهى شعوب وضيعة وصاروا يصدرون فى أعمالهم على ضوء هذا المبدأ .

وقد تواضع الناس على هذا المبدأ منذ فجر الخليقة حتى صار مبدأ مألوفا حتى جاء القرآن فنادى فى الناس بمبدأ لا عهد لهم، نادى بالمساواة بين الأفراد والطبقات منذ أربعة عشر قرناً من الزمان قائلاً ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: 13) ، ثم أخذ النبى محمد يقرر هذا المبدأ فيقول : «**أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى**» .

أعلن القرآن هذه الصيحة وآمن بها من آمن وكفر من كفر واستمرت الإنسانية ترسف فى أغلال الطبقية والتفرقة العنصرية حتى جاءت القرون الحديثة وسئم الناس حياة الذل والعبودية التى عاش فيها أسلافهم أحقاباً طويلة ويزداد السأم والأنفة ويكون التذمر تغلى به الصدور حتى تحول إلى ثورة فرنسا التى حطمت الأغلال وكسرت القيود وأزاحت الكابوس الذى جثم على صدر الإنسانية زمناً وتقررت المساواة بين الناس جميعا ولم تعد ميزة لفرد دون فرد ولا لجماعة دون جماعة وقامت الشعوب الأخرى قومة فرنسا تطالب بالمساواة فى الحقوق والواجبات وهكذا تقرر مبدأ المساواة بين الناس حتى عم الدنيا بأسرها أى أن حكم القرآن قد نفذ وأمره قد أطاعه الناس أجمعون .

وقد انكشف لهم من طبائع البشر وظهر لهم من ثمار هذا الوضع الذى طلع به الإسلام على العالم ما به عرفوا تماماً أن ما كانوا فيه من قبل كان خطأ وخسرانا مبينا فقد أرتنا بحوث علم النفس أن الإنسان لا تستيقظ مواهبه ولا تتفتح ملكاته ولا تتفتق أفكاره وتصير إلا إذا أشعر بالكرامة ورضى عن نفسه كل الرضا ووثق بها غاية الثقة حتى لقد قيل : إنه لا فرق بين النابغة وسواه إلا أن الأول أتيح له أن يكون هكذا ولو تيسر للثانى ما كان للأول لكان نظيره فإذا حرم الإنسان هذه المنزلة فقد تبلد حسه واستغلق ذهنه وتعطلت مواهبه وتصبح حركاته وسكناته آلية لا غناء فيها .

وكانت جناية نكراء ارتكبتها البشرية فى حق نفسها حين مكنت الطائفية فى المجتمع وتوزعت بذلك إلى طائفتين أشراف ووضعاء وأقوياء وضعفاء وسادة وعبيد وللسادة كل شىء وليس للعبيد أى شىء .

وجاء القرآن والناس على هذه الحال يخربون بيوتهم بأيديهم ليس فيهم من يتنبه إلى سوء ما يفعل فأعلن مبدأ المساواة ليرتد إلى الاعتدال من تكبروا بغير حق ولينهض من القنوط من وقع فيه بدون موجب .

وجاء القرآن والناس لا يعرفون من أنواع الحكم إلا أنه حكم مطلق يرى الملك أن الناس ملك له ويدبر أمر رعيته كيف شاء ولا يسأل عما يفعل ويتصرف فيها كما يريد ولا راد لإرادته ويحكمها حسب هواه ولا معقب لحكمه ولا تفهم الرعية سوى هذا الوضع واستمر هذا المبدأ يرسخ فى الأذهان بمرور الزمان حتى جاء الإسلام فقرر أن الأمر ليس هكذا أبدا فإن الحاكم راع وهو مسئول عن رعيته وأمر الناس شورى بينهم والدين النصيحة لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم وأن من رأى من الناس منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وأن على المؤمنين أن يتعاونوا على البر والتقوى وإذا خاطب بأمر خاطب به جماعة المؤمنين وإذا نهى عن أمر وجه الكلام إليهم جميعا يعنى أنهم مسئولون عن تنفيذ الواجب لا تبرأ ذمتهم حتى يتم ومسئولون عن كل منكر يحدث لا يخرجون من الذنب حتى يمحى وعلى ذلك قام أول حاكم فى الإسلام يقول: أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم» .

وقام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخاطب الخاص والعام من فوق المنبر قائلا: إن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى فقام رجل من عرض الناس وقال: والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بالسيف» ففرح بذلك عمر ورآه أمانا له من الانحراف وقال: الحمد لله الذى جعل فى أمة عمر من يقوم عمر بالسيف» وبذلك صار الإنسان فى الإسلام لا يحنى رأسه إلا للحق ولا يخضع إلا لسلطان الله بل لقد صار الحق هدف كل من الحاكم والمحكوم يقوم كل من الطرفين صاحبه إذا انحرف عن الطريق المستقيم ولنسمع إلى القرآن الكريم وهو يطالب الرسول نفسه بمشورة المؤمنين فيقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: 159) .

إلى هذا الحد وحتى الرسول نفسه وهو الرجل المعصوم لابد له أن يفعل وقد فعل وقام بالأمر من بعده أبو بكر وعمر وإليك هذه الحادثة التى وقعت بين

الصحابيين الجليلين أبي بكر وعمر «جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالا: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطينا إياها لعلنا نحرثها أو نزرعها ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم فقال أبو بكر لمن حوله: ما ترون فيما قالا؟ قالوا: إن كانت أرضا سبخة لا ينتفع بها فنرى أن تعطيها لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم فأقطعهما إياها وكتب لهما بذلك كتابا وأشهد عمر وليس فى القوم فانطلقا إلى عمر يشهدانه فوجداه قائماً يهنأ بعيراً له فقالا: إن أبا بكر يشهدك على ما فى هذا الكتاب فنقرؤه عليك أو تقرأ قال: أنا على الحال التى تريانى فإن شئتما فاقرآ وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ فأقرأ عليكما قال: لا بل نقرأ فقرآه فلما سمع ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ثم تفل، تفل فيه فمحاه فتذمرا وقالا مقالة سيئة فقال: إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل وإن الله عز وجل قد أعز الإسلام اذهبا فاجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما».

قال الراوى وهو ابن سيرين: وأقبلا إلى أبى بكر وهما يتذمران فقالا: والله لا ندرى من الخليفة؟أنت أم عمر؟؟ قال: بل هو لو أنه كان شاء». قال الراوى: فجاء عمر ـ وهو مغضب ـ حتى وقف على أبى بكر فقال: أخبرنى لمن هذه الأرض التى أقطعتها هذين أرض لك خاصة؟ أم بين المسلمين عامة؟ قال: بل هى للمسلمين عامة قال: فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين؟ قال: استشرت هؤلاء الذين حولى فأشاروا على بذلك. قال: فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أفكل المسلمين أوسعته مشورة ورضى؟ قال أبو بكر: قد كنت قلت لك: إنك أقوى على هذا منى لكنك غلبتنى».

هكذا الحكم فى الإسلام قوامه المشورة وأساسه الطاعة والقرآن صريح فى ذلك فالأمر أمر الناس ولابد أن يقولوا فيه كلمتهم ويدلوا فيه برأيهم ويترجموا عن شعورهم فما حك لأحد جلده مثل ظفره أبدا فإن أمضى الحاكم رأيا له بدون المشورة رد عليه وقد فعل ذلك عمر بأعز الناس عليه وأكرمهم منزلة بل وأعظم الناس على الناس حرمة بعد رسول الله وهو أبو بكر الصديق.

القرآن .. والحياة

مبادىء اجتماعية سبق إليها القرآن (2)

جاء القرآن يعلن حرية العقيدة الإسلامية فى أوضح عبارة وأصرحها، قال الله تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: 256)، وقد روى فى سبب نزول الآية أن أحد المسلمين أراد أن يكره بعض بنيه على الدخول فى الإسلام تبعا له فنزلت هذه الآية تعلن على الدنيا أن الدين الجديد لا يكره أحد على الدخول فيه طالما لم يحاربه ولم يقف فى طريق دعوته وإن الأمر حينئذ سيكون كما قال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: 29) .

إن القرآن يمنع أن يكره أحد على الدخول فى عقيدة لا يرغب فيها إنه لا يرضى أن يكره أحدٌ أحدا على قبول ما لا يقبل ولو كان فى الاستجابه لله تعالى : قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: 99) ، مع أن السائد فى ذلك الوقت هو أن الناس على دين ملوكهم ولا شىء غير ذلك وأن للوالد على أولاده كل حق حتى لو قتل أحدهم أو باعه ما سأله أحد لم فعل؟ وذلك هو المدون المسطور فى شرعة اليونان عمدة الشرائع والقوانين فى ذلك الزمان والمرجع الأول للناس فى العصور القديمة والقانون الأوحد الذى مازال أنصاف المتعلمين يتمدحون بأسبقيته وأثره فى كل اللوائح والقوانين .

فكأن القرآن جاء ليقوض هذه السلطة الجائرة الخاطئة ويرد على الفرد اعتباره قبل كل إنسان حتى والده وألا يجعل له عليه من سبيل حتى فيما يأخذ من الآراء وما يدع إنه جاء ليمنع ذلك نهائياً وطبق المبدأ أولاً فيما يخصه حتى لا تكون لأحد عليه حجة فى الأرض .

وهذا أمر يدعو من غير شك إلى العجب من دين الإسلام الذي جاء لينتشر بين الناس فيبدأ عمله الإصلاحى محظراً على أتباعه قبل كل شىء أن يتقدم أحدهم ليساعده بيده ويدفع الناس إلى حظيرته بعصاه .

فلو كان هذا الإسلام من وضع البشر فالمقطوع به أن هذا المبدأ الذى دعا إليه ما كان يمكن أبداً أن يخطر على البال حيث إن الإنسان المفكر يتكيف مع البيئة التى يعيش فيها ويفكر بفكرها ويعقل بعقلها والذى يخطر على البال فى هذا الموضوع هو عكس المبدأ الذى نتحدث عنه والذى شهده الزمن ولمسه الإنسان فلم يعد هناك شك واندفع كل ريب .

ولكن ربما لاح للإنسان فى هذا الموضوع أن واجبه يحتم عليه أن يكره من يهمه أمرهم على اعتناق ما يعتقد ـ مادام على صواب ـ لينتفعوا به وإلا فهل يتركهم وشأنهم يتخبطون فى الظلام ويتيهون فى ضلال مبين؟

غير أن المتبادر إلى الذهن أن أحدًا لن يفعل ذلك أبدا وإلا فمن ذا الذى يترك أبناءه وذوى قرابته يدخلون النار وهو ينظر إليهم .

هذا ما يجول فى ذهن من يعتقد صحة مبدأ وصوابه ولكن تأمل ما أكثر الخطأ فى القريب من الأمور والظاهر من الأشياء إننى إذا أكرهت ولدى لأنى أرى ما أنا عليه حق فكل إنسان فى الدنيا يرى أن ما هو عليه هو الحق وما عداه باطل .

فأنا على ذلك سأكرهه على قبول أمر أعتقده حقا ويراه هو باطلا ولو كان هو الوالد لكان مقتضى الجرى على القاعدة أن يكرهنى على قبول ما يراه حقاً وأراه أنا باطلاً وهذا من أشد الأمور على نفسى إننى ـ والحالة هذه ـ إن رضخت لحكم القوة ودخلت فى هذا الأمر فما أكون فى الواقع قد دخلت فيه ما دمت لا أؤمن به وإن أبيت ورفضت وذلك هو الغالب وقدمت حياتى فداء لعقيدتى وذلك هو ما يثبته التاريخ فسوف يطول الصراع بين الحق والباطل وتدوم المعركة بينهما ثم لا تفعل شيئا فإن انتصرت فسأكون قد احتفظت بعقيدتى التى أحبها وأوثرها على غيرها وإن هلكت فما يكون خصومى قد جعلونى كما أرادوا وحينئذ كان ترك الصراع من البدء أولى وهذا هو الذى جعل الناس أخيرا يتركون حرية العقيدة ثم وجدوا أن كثيراً ما يكون الإنسان معتقدا صواب شيء وهو فى حقيقة الأمر فاسد ومادام كل من الطرفين يعتقد صواب ما عنده والصواب عند أحدهما فقط إن كان هناك من صواب وعن طريق التفاهم يمكن اكتساب المعركة فى الصراع إن قدر لها أن تكتسب فإن عجز المنطق فما يفعل السيف شيئا أبدا .

هذا هو منطق التاريخ عبر القرون والأجيال وهذه هى الحقيقة التى أدركها الناس من ثنايا الكوارث والمحن ولكن إلى أن يدركوها تمام الإدراك وذلك لا يرجع إلى الوراء أكثر من قرنين، وإلى أن تمر بهم هذه التجارب القاسية والحوادث المنبهة إلى أن يتم كل ذلك فسيظل الإنسان عند الصورة الأولى التى قلناها ـ فكيف جاز لمحمد أن ينجو منها ـ لو كان هذا الدين من عند نفسه .

من يقرأ تاريخ الدول والشعوب فى القرن العشرين فسوف يجد كل الدساتير التى يحكم العالم من خلالها تأخذ بنظام حكم الشورى وهو الحكم المسمى فى لغة العصر الحاضر باسم «الديمقراطية السياسية» وحرية العقيدة منصوص عليها فى كل شريعة .

وفى هذا ما يدل من غير شك على أن الناس قد استجابوا لحكم القرآن وقد حتمت عليهم الأيام أن يفعلوا وهم آخذون فى الفعل ولن يجدوا بدًا من أن يفعلوا فلن تجد سلطة أقوى من سلطة الزمن ولن تجد دفعاً أشد من فعل أحداثه وظروفه ولن تجد شهادة على صلاحية شىء أقوى من شهادته .

وإذا صح ما يقولون : من أن «طوماس جفرسون» هو صاحب الفضل الأول فى نشر حرية الإعتقاد فى البلاد الأمريكية وكتبوا على قبره العبارة التالية «منشىء إعلان الاستقلال فى أمريكا وواضع قانون الحرية الدينية فى فرجينيا» إذا صح ذلك يكون الناس فى بلاد الغرب لم يتمتعوا بهذه الحرية إلا منذ عهد قريب جدا إذ أن المذكور ولد عام ألف وسبعمائة وثلاث وأربعين وبالتالى تأخر تفكيره فى هذا الموضوع إلى ما بعد بلوغه درجة علمية كبيرة ووضعا اجتماعيا يؤهله للقيام بهذه المهمة الاجتماعية العظيمة . وحكم الشورى بدأ يوم بدأ بقيام الثورة الفرنسية أى منذ عهد قريب جداً .

لنفهم هذا ولنضعه فى ذهننا ولنرجع إلى العصر الأول من تاريخ الإسلام وما كان عليه المسلمون من حرية وديمقراطية تمتعوا بها فى وقت كان الغير محرومًا منها وكانوا فى ذلك مأمورين بتوجيهات الكتاب العزيز ، قال تعالى لرسوله : ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ**

لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران: 159) ، وقال تعالى فى شأن المسلمين : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشوري: 38) .

وعاش المسلمون حياة ديمقراطية سليمة وعاشت دولتهم شعبية يوجه الخطاب فيها إلى الشعب بأسره لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غنى وفقير ولا بين عالم وجاهل قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: 135) .

لقد كان المسلمون ـ كما أراد الله لهم ـ قائمين بأمر الله حراسًا على الحق أمناء عليه وأصبح كل واحد منهم متأثرا بهذا المبدأ العظيم يقول قولة الحق فى وجه الحاكم دون أن يخشى فى الحق لومة لائم وهذا من غير شك أثر من آثار مبدأ الشورى فى الإسلام، فقد روى أن سيدنا عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ رأى ذات ليلة رجلاً وامرأة على فاحشة فقال للصحابة : ما رأيكم لوأن أمير المؤمنين رأى رجلاً وامرأة على فاحشة؟ فقال على بن أبى طالب : - وكان جالسا فى المجلس ـ يأتى أمير المؤمنين على صحة قوله بأربعة شهداء وإلا أقمنا عليه الحد (حد القذف) فسكت عمر ولم يبد اعتراضا أو تذمرا .

وعلى ذلك يكون غاية العجب أن يأتى محمد النبى الأمى ـ وهو الذى لم يقرأ فى كتاب ولم يتعلم فى مدرسة أو يذهب إلى جامعة ولم يزاول بحثا من البحوث كما لم يشهد تجربة من التجارب ـ يجىء محمد وحاله ما وصفنا فيضع شريعة تخلو من الخطأ نهائيا بل تكون هى التى تصحح أخطاء الباحثين وتعدل أوضاع الأمم وتقيم الناس على نهج واضح سوى .

إنه والحق يقال : إن ذلك ليس فى مقدور البشر ولا يصح أبداً أن يكون لإنسان وإنما هو وحى من عند الله وصدق الله العظيم إذ يقول فى شأن القرآن ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82) .

وهكذا تجد الأمم والشعوب مندفعين إلى الأخذ بتعاليم القرآن كما رأيت حتى لكأنهم قد قرأوا فيه وما قرأوا وحتى لكأنهم مؤمنون وما آمنوا وإنما هى التجارب

تهديهم والزمان يعلمهم وإلى الله المرجع والمآب ﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾
(الشوري: 53) .

ظهر مما سبق إن القرآن حقيقةمن حقائق الكون وصارت قضية لاشك فيها يؤيدها كل ما نري من توافق بين آيات القرآن ومعارف الكون ولا عجب فإن منزل الكتاب هو هو الذي أجري السحاب ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: 88) .

وإننا لننجد إختلافا بين حقيقة قرآنية وحقيقة كونية كما لا يختلف قول الحكيم في عمله . والواقع أو القرآن كون ناطق حين يتحدث عن الحياة كما أن هذا الكون الكبير قرآن صامت وكلاهما صادر عن ذات واحدة ويهدف إلي غاية واحدة ولعل هذا هو السر في أن الله أقسم بالأجرام السماوية والحقائق الكونية علي أن القرآن كلامه قال تعالي : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾
(الواقعة: 75-80) .

وجاء بالقسم مرة أخري بالليل والنهار في تعاقبهما بالإظلام وبالإشراق وبالنجوم في سيرها وحضورها علي أن القرآن كلام الله ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾
(التكوير: 15-19) .

وما لا نعرفه من أمور الكون أكثر مما نعرفه وأكثر مما نتوقعه وبكل أقسم الله بروعته علي أن القرآن ـ أيضا ـ كلامه ﴿لا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحاقة: 38-43) .

من هذا كله يظهر مدي التوافق بين آيات القرآن وأصول الحياة وأنها لا يمكن لها أن تسير إلا علي طريقه ووفق ما رسم قال تعالي : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (الرعد: 13) .

وحدة المسلمين أساس قوتهم

بنى الإسلام الوحدة الإسلامية بين المسلمين على أركان قوية ودعائم ثابتة وأسس لا تفنى ولا تزول إلا بزوال الحياة الدنيا.

وهذه حقيقة قائمة وأمر يجب أن يعرفه الناس جميعًا والمسلمون على وجه الخصوص فإن الله وضعها أمام أنظارهم فى كثير من آيات القرآن الكريم ودعمها بما افترض عليهم من فروض وبما بين لهم من أخلاق كما ذكرهم بها الرسول الأمين محمد ﷺ بما فعل أمامهم من أعمال وبما سن من سنن وقال لهم: **«لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»**.

وباستعراض الآيات الكريمة وبالرجوع إلى الأحاديث النبوية التى تحدثت عن هذا الشأن سوف تتضح الحقيقة سافرة لا لبس فيها ولا إبهام ولا غموض ولا إلتواء قال الله تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾** (النساء: 1)، فإن الله عز وجل جعل الناس كلهم على اختلاف أجناسهم وتباين ألوانهم وتباعد أوطانهم أصلاً واحداً يتصلون به ويرجعون إليه ووجب عليهم من أجل ذلك أن يعيشوا متحدين متراحمين ومتآخين متعاونين ومتآلفين متضامنين وتلكم هى سنة الحياة ونظام الكون أن يتعارف الناس وأن يتآلفوا فلا عداوة ولا بغضاء ولا عدوان ولا اعتداء **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات: 13)، فصار التعارف أساسا وأضحت العقيدة أصلا **﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾** (الأنعام: 98)، وأصبح العدل والمساواة بين الناس كلهم ركنًا من أركان الحياة فى ظل الإسلام، روى الطبرى أن النبى ﷺ خطب الناس بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: **«يا أيها الناس ألا أن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟»** قالوا: نعم. قال: **«فليبلغ الشاهد منكم الغائب»**.

واجه القرآن البشر بهذا الأصل الثابت ـ ولأول مرة فى تاريخ العرب ـ فأوجد دولة من شتات وجمع قلوبا من فرقة وكون أمة من أجناس على عقيدة واحدة أصيلة روحية ربانية أساسها وعمادها ومنارها وشعارها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وبذلك ربط النبى محمد ﷺ آخر هذا الأمر بأوله وكان فى ذلك قوله : «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله**» .

ربطت هذه العقيدة الأصيلة الواحدة الروحية الربانية بين قلوب المسلمين فى شتى مناطق العالم فصاروا يؤمنون بعقيدة واحدة ويتجهون إلى قبلة واحدة ويعبدون رباً واحداً يدينون له بالولاء والطاعة ويذعنون له بالخضوع والتقوى ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ (البقرة: 177) ، ويقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ (النساء: 136) .

ولقد كان لهذه العقيدة الواحدة الأصيلة الروحية الربانية أثر كبير عظيم فى وحدة المسلمين وترابطهم فقد وحدت مشاعرهم وجعلتهم يرتبطون بهدف واحد على اختلاف الأجناس والألوان والأوطان قال رسول الله ﷺ : «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» وحددت قرابة الدم المشتركة بينهم ووثقت أواصر الأبوة التى تربطهم بأبيهم آدم عليه السلام .

ولئن كانت الأبوة الآدمية أبوة مادية تربط المسلمين وتجمع بينهم فى الأصل الواحد فإن عقيدة الإسلام الحنيف هى الأبوة الروحية الربانية التى تتصل بها فروع المسلمين وتلتقى عليها قلوب الموحدين ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: 92) ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ (المؤمنون: 52,51) .

وتبع هذه العقيدة الواحدة الأصيلة الربانية الروحية وحدة المصدر التشريعى ولم يكن هذا المصدر غير القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين فتوفر المسلمون عليه ووحد

بين قلوبهم وربط بين نفوسهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ**».

إن لكل جماعة فكراً ونظاماً يحدد لها هدفها في الحياة ويوجد أفرادها والمسلمون - كجماعة وجدت على الأرض - لم تشذ عن هذا الأمر فكان لها القرآن الكريم وحد بين المسلم في الشرق والمسلم في الغرب وعمل عمله في حياة المسلمين الخاصة والعامة وفعلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (المائدة: 15-16)، كما جعل فيه شفاء ما يكون في المجتمع من أدواء وأوصاب وإصلاح ما يوجد فيه من عوج قال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾ (الإسراء: 82).

اعتصم المسلمون بهذا القرآن واحتكموا إليه في كل الأمور وحقق ما تصبوا إليه نفوسهم وما يتطلبه مجتمعهم ونفذوا أحكامه عن رضا واقتناع وكان من أجل ذلك أن توحدت به صفوفهم واجتمعت عليه كلمتهم وتآلفت حوله قلوبهم فكان لهم أصلاً جامعا ومناراً هادياً ودستوراً قويما، فعن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**أليس تشهدون ألا إله إلا الله؟**» قالوا: بلى. قال: «**إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمكسوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا**» الطبراني. وبذلك وجب عليهم أن يردوا كل شيء في حياتهم إليه حتى يكونوا على صواب وهدى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾ (النساء: 59).

وطاعة الله عمل بأوامره وانتهاء عن نواهيه لأنه تعالى لم يأمرنا إلا بما فيه صلاحنا وسعادتنا في الدنيا ولم ينهنا إلا عما فيه هلاكنا وضياعنا في الآخرة وطاعة رسول الله هي الاهتداء بسنته والاقتداء بعمله فقد قام بتبليغ رسالة الله، وقال تعالى في شأنه: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ (الحشر: 7).

فصار ذلك معلما من معالم الدين أن يين لنا رسول الله ما يريد الله بيانه وكان صادقا مصدوقا وأمينا مأمونا فبلغ ما أرسل، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44).

وعلى هذا قامت وحدة المصدر التشريعى لدى المسلمين على كتاب ربهم وسنة نبيهم فانتظمت حياتهم وارتفعت رايتهم وعلا شأنهم وبعد صيتهم وكانوا كما جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ووجدوا فى رسول الله أملهم المرجى وطلبهم المنشود، روى ابن ماجة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله»**.

على هذه الأسس الثلاثة أقام الإسلام الوحدة الإسلامية بين المسلمين على الأصل الإنسانى وعلى المبدأ العقدى وعلى المصدر التشريعى فطلعوا على العالم جماعة واحدة ورسالة بانية ودولة جامعة وأمة فتية تقول فتسمع الدنيا وتحكم فيطيع العالم وظلت هذه الوحدة تحقق غرضها فى الحياة تحفظ المسلمين من عاديات الأعداء وتؤدب الطامعين فيهم.

حين اعتدى الروم على حدود الدولة العربية الإسلامية فى الشمال وأسروا امرأة من المسلمات واستغاثت المرأة وقالت: وامعتصماه قام المعتصم ومعه الجيش العربى الإسلامى واستطاع أن يثأر به من الرومان وردهم إلى بلادهم وتوغل فيها وكان نصراً مبينا وسقطت عمورية عاصمة الروم الشرقية فى يد المسلمين وتغنى الشعراء بالشعر فسجل هذا الفتح العظيم.

ولكن لما سقطت الخلافة الإسلامية فى استامبول على يد «أتاتورك» وهى الرباط القوى المتين الذى يشد المسلمين بعضهم إلى بعض تفككت وحدتهم وانفصمت عروتهم وصاروا يستغيثون ولا مغيث ويصرخون ولا يسمع لهم أحد.

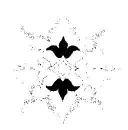
أنا لا أدافع عن الخلافة العثمانية الإسلامية فى الوقت الذى انحدرت إليه فيه وقت الضعف والخور والوهن والفساد الذى قضى عليها حتى انتهت إلى الوضع الذى انتهت إليه.

ولكننى أقول: إنها كانت على الأقل رمزاً يربط المسلمين فى شتى بقاع الأرض

ويشدهم إليها ويجمعهم عليها وتجعل أفئدتهم تلتقى عليها وتدافع عنها لأنها علامة القوة وأمارة الغاية وشارة الوحدة وراية الملة ورائدة الأمة وجامعة الدولة .

ولقد كان للخلافة الإسلامية فى استامبول من المجد والفخار والعزة والسيادة والهيبة ـ على الرغم من الضعف الذى وصلت إليه ـ أن الصهيونية العالمية لم توجد على أرض فلسطين إلا بعد سقوطها ومحوها من الوجود فقد رفض السلطان العثمانى ألوف الألوف من أموال اليهود فى مقابل أن يسمح لهم بقطعة من أرض فلسطين يعيشون عليها آمنين من التشرد الذى يعيشون فيه فى شتى بقاع الأرض وهو فى هذا الوقت أحوج ما يكون إلى المال والدولة فى أشد الحاجة إلى هذه الأموال الكثيرة ولكن السلطان يرفض ذلك العرض بعزة المسلم وإباء المؤمن وترفع عن مال اليهود وطردهم من مجلسه رحمه الله رحمة واسعة .

إن المسلمين فى عهدهم الحاضر فى أمس الحاجة إلى وحدة أصيلة تربطهم وتجمعهم من جديد كما كان لهم من قبل .



من عمل الخير

قضاء حاجة المحتاج

الرحمة الحانية والمحبة الصافية والمودة الخالصة والرجولة الكاملة والمروءة النادرة والشهامة العالية والتآلف المكين والتعاون الوثيق والتكافل الرحيم والتراحم المستمر كل ذلك أخلاق إنسانية كريمة وخصال اجتماعية رحيمة أمر بها الدين وجعلها علامة اليقين وهى فرق ما بين الإنسان العاقل السوى والحيوان الأعجم الذى لا فكر له ولا فهم عنده وحسبها أن يعيش فى حدود وقته وفى دائرة ما يقدم له .

فإذا رزق الإنسان قلبا رحيما وإذا رزق فؤادا كريماً وإذا كان على مروءة ونجدة وإذا أعطى للناس مودة ومحبة فإنه سوف يسعى إلى تفريج كربة المكروب ويمشى إلى إغاثة الملهوف ويسير فى قضاء حاجة المحتاج عملاً بما جاء عن الله تبارك وتعالى من أمر بالفضائل وبما ورد عن الرسول ﷺ من توجيهات تربى النفس على الخير والبر . فقد قال الله تعالى : ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (المائدة: 2) ، وروى البيهقى عن ابن عباس أنه كان معتكفا فى مسجد رسول الله ﷺ فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس فقال له ابن عباس : يافلان أراك مكتئبا حزينا؟ قال : نعم يا ابن عم رسول الله لفلان على حق ولاء وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه قال ابن عباس : أفلا أكلمه فيك؟ قال : إن أحببت . قال : فانتعل ابن عباس ـ لبس نعله ـ ثم خرج من المسجد فقال له الرجل : أنسيت ما كنت فيه ؟ قال : لا ولكنى سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب ـ فدمعت عيناه ـ وهو يقول : «**من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين الناس ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين**» .

وإذا وفق الإنسان إلى أخلاق الرجولة الكاملة وإذا أدرك أثر المحبة والمودة فى إصلاح المجتمع وإذا عرف مكان التضامن والتآلف فإنه سوف يتجاوب مع ما يدور فى المجتمع من أحداث وآلام .

فإن الرحمة تحمل صاحبها على أن يتألم لآلام الناس ويحزن لحزنهم ويبكى

لبكائهم ويشقى لشقائهم وهذا ما يجعل الإنسان صاحب القلب الكبير يتألم لمنظر فقد يراه ويحس بالبؤس ينزل بالفقراء والبائسين وينفعل قلبه لشدة النكبة حين تنزل بالمحزونين والمنكوبين .

وإن المروءة والنجدة تحمل صاحبها على أن يخفف الآلام والويلات ويمسح الدموع والعبرات ويدفع الأحزان والنكبات عن المنكوبين والضعفاء ويعطف على المحتاجين والبؤساء ، أخرج الطبراني عن سمرة عن النبي ﷺ قال : «**أفضل الصدقة صدقة اللسان** » قيل : يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال : «**الشفاعة تفك بها الأسير وتحقن بها الدم وتجر بها المعروف والإحسان إلى أخيك وتدفع عنه الكريهة**» .

وإن المحبة والمودة لا ترضى لصاحبها أن يعكف على لذاته وشهواته وتجرى على مسراته وأفراحه وأن يتمتع بثروته وهناءته وقد أدرك أن بجانبه بائسا أصابته الآلام ونزل به الضرر والبأساء أو جائعاً عضه الجوع فحرمه لذيذ الراحة أومريضا يتقلب على فراش الأوجاع والأسقام أو يتيمًا خلا إلى نفسه فمكث يبكى أباه وهذا ما جعل النبى الأمين يقول : «**ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم**» .

إن الإنسان إذا قسا قلبه وخلا من الرحمة والنجدة وعاش لحاجاته فقط ولا يعبأ بآلام الناس ولا يهتم بحاجات الناس ولا يشترك فى تخفيف الويلات عنهم فذلك هو الأنانى القبيح الذى قُدَّ قلبه من الصخر وفقد إنسانيته وآدميته .

وإن إغاثة الملهوف من أعمال الخير وقضاء حاجة المحتاج من الأخلاق الطيبة الكريمة التى تغرسها فى نفس الإنسان مجموعة من الخصال الصالحة . روى البخارى من حديث ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**» .

وإن الرجل الذى لا تتألم نفسه لمنظر البؤس ولا تنفعل نفسه لضحايا الحرمان لهو رجل غليظ القلب فظ الطبع وإن الرجل الذى لا يعيش إلا لأمواله وتجاراته وحاجاته فلا يحس ببؤس البؤساء ولا بتعاسة التعساء فهو رجل لا مكان له فى الإنسانية الكاملة ولاحظ له من الرجولة السوية ، وإن الإنسان الذى لا يرحم الناس

فلا يغيث ملهوفهم ولا يهدى حائرهم ولا يقيل عثرتهم لهو إنسان أبعد ما يكون من مواطن الأعمال الصالحة وقد قال رسول الله ﷺ : **«من لا يَرحم لا يُرحم »** وقال ﷺ : **«لا تنزع الرحمة إلا من شقى»** وقال ﷺ : **«ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»** .

وقد أرشد ربنا تبارك وتعالى الناس فى كتابه الكريم إلى هذه المعانى الطيبة الإنسانية فحث على إغاثة الملهوف وأمر بقضاء حاجة المحتاج وحض على تفريج كربة المكروب وجعله علامة الإيمان الصادق وقرين الصلاة والعبادة وسبب من أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة، قال الله تعالى : **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾** (الماعون) .

ويحذرنا الرسول الأمين ﷺ من الأثرة والبخل ويدعونا إلى البر والعطف على المحتاج والشفقة به وتعدت رأفته الإنسان حتى شملت الحيوان فقال ﷺ : **«دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»** وأخبر أن الله غفر لرجل سقى كلبا أشرف على الهلاك من شدة العطش .

وكان مثلاً رائعاً فى العطف على المحتاجين فكان يحمل الكل ويكسب المعدوم ويقرى الضعيف ويعين على نوائب الدهر وكان هو وأصحابه يتسابقون فى هذا الخير ومما يروى فى ذلك أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى مجهود فأرسل النبى إلى بعض نسائه يسألها عندها طعام؟ فقالت : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى من زوجاته فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندي إلا ماء فقال النبى ﷺ : **«من يضيف هذا الليلة؟»** فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله . فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته : «أكرمى ضيف رسول الله » ثم سألها : هل عندها شىء؟ فقالت : لا إلا قوت صبيانى قال : فعلليهم بشىء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنا نأكل معه ثم قعدوا فأكل الضيف وباتا طاويين» .

وقد أخبر الله تبارك وتعالى أن هذه الأعمال الكريمة لها حسن الثواب فى الدار الآخرة فتنجى صاحبها من المهالك وتكون سبباً فى نجاته من العقبات والهموم وأنه

إذا لم يفعل حرم من ذلك كله ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(البلد: 11:17) ، وعن أبى نجيح عمرو بن عيشة السلمى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما مسلم أعتق رجلا مسلما فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظما من عظامه من النار**» وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة. فقال: «**لئن كنت قد أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة**» فقال: يا رسول الله أو ليستا بواحدة؟ قال: «**لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى عتقها والمنحة الوكوف والفىء على ذى الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير**».

وهذا إنسان ينكر الله عليه فعله فقد أنعم عليه بالنعمة السابغة والفضل الكبير ولكنه منع حق المحتاج والفقير فانقلبت عليه النعمة هماً ثقيلاً وصار الفضل نقمة كبرى، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ (المدثر: 42-44).

وهذه مقارنة بين إنسان أعطاه الله فقام بما يجب عليه من إعطاء كل ذى حق حقه وبين إنسان لم يمتثل أمر الله فجحد حقوق الآخرين ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: 10:5).

وأخيراً هذا موقف رائع من مواقف الصدق والإيثار والتضحية والعطاء... موقف الأنصار أهل المدينة أصحاب الدار والمال من إخوانهم المهاجرين حين هاجروا إليهم وإن الزمان على الإتيان بمثلهم لضن بخيل فاستحقوا بذلك ثناء الله عليهم فيما أنزل فى كتابه فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 9).

مع التجار

الإسلام يربى الفرد على الإخلاص العميق، والرحمة الشاملة، والصدق والنصح فلا غش ولا استغلال ولا اعتداء على حق الناس.

وهو بهذا النوع من التهذيب والتربية يقصد إلى إقامة مجتمع فاضل سليم، يعمل على تحقيق العدالة والإخاء، والمساواة والحرية والحفاظ على الحقوق والأموال والعمل على إبعاد الغش والاستغلال والخداع والتضليل، ومن أجل ذلك جاءت التعاليم الإسلامية تترى مبينة طرق المعاملات السليمة التى يجب أن تكون بين الناس، حتى لا يبغى أحد على أحد.

ولما كانت التجارة تمثل جانباً كبيراً من حياة الأفراد، وكانت هى الطريق الوحيد الذى يبين حسن التعامل بين الناس، فقد اهتم بها الإسلام اهتماماً كبيراً، شملها من جميع جوانبها، فهى طريق التعاون الصادق يقوم به التاجر حينما يجلب الأشياء، ويقبل عليها الناس من جانب، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الجمعة: 10)، ما ذاك إلا لفضلها، وعلو شأنها، وحبذا لو فهم التجار هذا العمل المبارك، وما يجلب لصاحبه من ثواب الله فى الدنيا والآخرة فأخلصوا فى معاملتهم، وصدقوا فى بيعهم وشرائهم فقد قال تعالى: ﴿**الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (الزمر: 33)، وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**» وبينما الناس فى هول وفزع عظيمين يوم القيامة يسألون السلامة من هذا الكرب نجد التاجر الصدوق فى عز سابغ وفضل عميم، ورحمة ورضوان، روى أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة**».

وكان المسلمون فى أول أمرهم يصدرون عن هذه المعاملة الطيبة والتوجيه الإسلامى السليم، راغبين فيما عند الله من ثواب، فكانت معاملتهم صادقة سمحاء أقرب إلى الصدقه منها إلى التجارة، وها هو عثمان بن عفان ـ فى عام من أعوام المجاعات التى كانت تجتاح البلاد فى هذه الأزمات الغابرة ـ تحضر إليه قافلة تحمل

كثيرا من الدقيق والزيت وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس فذهب إليه بعض التجار وأرادوا أن يأخذوها منه بعد أن يعطوه ثمنها ومعه المكسب المعروف فلم يقبل عثمان، فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا: نأخذها منك ونعطيك ثمنها ضعفين، فقال عثمان: إذا قبلتم أن تأخذوها بعشر أمثالها بعتها لكم، فهناك من يأخذها منى بهذا الثمن. فقالوا: نحن لا نعرف تجاراً غيرنا فى هذا المكان يدفع هذا الثمن، فقال لهم عثمان: الله تعالى اشتراها منى بعشر أمثالها حيث قال: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ (الأنعام: 160)، وإنى أشهد الله وأشهدكم أنى جعلتها صدقة للفقراء والمساكين.

إننا نسوق هذه القصة عن رجل من رجالات الإسلام لنقول للتجار: لقد خبتم وخسرتم، وضل سعيكم فى الحياة الدنيا، وتعرضتم لغضب الله وسخطه جزاء ما تفعلون بالناس، وتغلون فى الأسعار، وتحتكرون السلع، واسمعوا ما ورد عن عبد الرحمن بن شبل يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن التجار هم الفجار**» قالوا: يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «**بلى! ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون**» يكذبون فى بيان السلعة وعرض ثمنها.

إن التجارات اليوم تقوم على الطمع والجشع، التاجر يريد الغلو، والشارى يريد البخس، والأنانية هى التى تحكم حركات التبادل فى المحال والأسواق وقد كره الإسلام هذه المعاملة الحقيرة، قال ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البيعان وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحا ويمحقا بركة بيعهما**».

وقد قام ﷺ ذات يوم وذهب إلى السوق، فرأى الناس يتبايعون ويتساومون واستمع إليهم ورأى أصناف المبيعات، وصور البيع والشراء، فقال: «**يا معشر التجار يا معشر التجار!**» فرفعوا أعناقهم. وتوقفوا عن العمل، ومدوا أبصارهم، وأنصتوا لما يقول، وانتظروا ما يلقى عليهم من إرشاد وتعليم فقال: «**إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق**» ولاشك أن هذه الصيحة منه هى صيحة الشفقة والرحمة بالأمة، ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة: 128).

ولكن من الناس من تدفعه محبة الربح الكثير، والحرص على جمع المال من هنا وهناك، وتحصيل الغنى من أى طريق، يدفعه ذلك إلى ارتكاب جرائم تسقط منزلته عند الله والناس، ويكون ذلك من جهة الغش فى المعروضات بإخفاء عيوبها، وإظهار محاسنها، وقد مر رسول الله ﷺ وهو يتابع جولته فى السوق برجل يبيع الطعام فأعجبه ظاهره ولما أدخل يده فيه وجد به بللا فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**» قال: أصابته السماء ـ يريد أن المطر نزل عليه ـ فقال ﷺ: «**فهلا أبقيته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا**» وهذا يدل على مقدار ما وصل إليه هذا الرجل من الهبوط والانحدار الخلقى، والبعد عن رحمة الله، فهو ليس من المسلمين الرحماء الذين تتسم معاملتهم بالإخلاص، وعن صفوان بن سليم أن أبا هريرة ﷺ مر بناحية الحرة فإذا إنسان يحمل لبنا يبيعه فنظر إليه أبو هريرة فإذا هو قد خلطه بالماء فقال له أبو هريرة: كيف بك إذا قيل لك يوم القيامة خلص الماء من اللبن؟ فعلينا أن نأخذ على أيدى من يفعل هذا الفعل وأن ننبه الناس إلى ألاعيبهم حتى نقضى عليهم، ونزيل شرهم، ولنا على ذلك نعيم الله، عن أبى سباع قال: اشتريت ناقة من دار واثلة بن الأسقع فلما خرجت بها أدركنى يجر إزاره، فقال: أشتريت؟ قلت: نعم، قال: أبين لك ما فيها، قلت: وما فيها ؟ قال: إنها لسمينة ظاهرة الصحة، قال: أردت بها سفراً أم أردت بها لحماً؟ قلت: أردت بها الحج، قال: فارتجعها، فقال صاحبها: ما أردت إلا هذا أصلحك الله تفسد على، قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «**لا يحل لأحد يبيع شيئا إلا يبين ما فيه، ولا يحل لمن علم ذلك ألا يبينه**» هذا هو دور من يرى الغش، إنه لا يقل عن دور الحارس اليقظ ينبه الناس ويدلهم على أماكن الاستغلال والغش ففى الحديث: «**لا يحل لامرىء مسلم يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبر به**».

وعلى التاجر أن يكون أميناً كريماً سمحا يبيع ما عنده فلا يحتكر ولا يختزن السلع حتى لا يعرض الناس للأزمات المستحكمة، والنكبات النازلة، ويرهقهم من أمرهم عسرا، وليعلم أن النبى ﷺ قال: «**لا يحتكر إلا خاطىء**» وكلمة خاطىء قيلت فى شأن الجبارين العتاة الذين باءوا بغضب الله، والطرد من رحمته فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: 8)، وإذا كان هؤلاء

خاطئين والمحتكر خاطىء فهم جميعا شركاء فى الإثم، وقد أعلن رسول الله براءة الله من المحتكرين فقال: «**من احتكر طعاما أربعين يوماً فقد برىء من الله وبرىء الله منه**» وروى عن فروخ خادم عثمان بن عفان أن طعاما ألقى بباب المسجد - لبيعه - فخرج عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. فقال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. فقال بعض من معه: يا أمير المؤمنين قد احتكر! فقال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ خادم عثمان وفلان خادم عمر فأرسل إليهما فأتياه. فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين، قالوا: يا أمير المؤمنين: نشترى بأموالنا ونبيع فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس**» فعند ذلك قال خادم عثمان: فإنى أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود إلى احتكار طعام أبداً وتحول إلى مصر. أما خادم عمر - فقد أصر على مبدأ حرية التجارة - فقال: نشترى بأموالنا ونبيع، وقال أبو يحيى - راوى الحادث فرأيت خادم عمر هذا مجذوما مشدوخا».

وعلى التاجر أن يكون صادقاً فى بيعه وشرائه، فلا يخدع الناس بالحلف الكاذب، وإنما يريهم الحسن والردىء، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة**» وعن ابن أبى أوفى أن رجلاً أقام سلعة فى السوق فحلف بالله لقد أعطى ما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين - فنزلت ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (آل عمران: 77)، والتاجر الحلاف مع الزانى الفاجر والمتكبر المختال والحاكم الطاغى فى النار جزاء ما ارتكبوا فى حق الناس من آثام، فعن أبو هريرة قال: سمعت رسول الله يقول: «**أربعة يبغضهم الله: البياع الحاذق والفقير المختال والشيخ الزانى والإمام الجائر**» وفى رواية عن أبى ذر عن النبى قال: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** قال: فقرأها رسول الله ثلاث مرات فقلت: خابوا وخسروا ومن هم يارسول الله؟ قال: - **والمسبل والمنان والمنفق سلعته باليمين الكاذب**.. فليجعل التاجر من نفسه رقيبا عليها، وليلزم نفسه الصدق فى المعاملة.

وعلى التاجر أن يكون أمينا في كيله وميزانه وليعط كل ذي حق حقه، فإن الدناءة والخسة وسوء الخلق أن يسرق حقوق الناس ، ويبخسهم أشياءهم بالكيل الناقص، والميزان الباطل، والله سبحانه وتعالى قد أهلك أمة بأسرها لما أنقصت الكيل والميزان، فكانت عبرة لغيرها ومثلاً في الآخرين هذه أمة شعيب يعظها رسولها ﷺ ثم يقول : ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (الأعراف : 85)، ويقول الله عز وجل : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء : 181-183) ، ولقد توعدهم الله تبارك وتعالى بالعذاب المهين حيث قال : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(المطففين : 1-6) . وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : «**رحم الله امرأ سمحاً إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى**» .



حديث العمل والإنتاج فى الإسلام

الإسـلام هو الدين الذى ختم الله به الرسـالات فـلا دين بعـده حتى يأذن الله بإنتهاء هذه الحياة، ومن أجل ذلك ضمن الله هذا الدين كل ما يصلح به أمر الناس، دنيا وأخرى، فقد وضع لهم الأسس القويمة التى يسيرون عليها فى حياتهم ليحققوا الخلافة عن الله عز وجل فى الدنيا حيث قال: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: 30).

ولا يكون ذلك إلا إذا صلح المجتمع لأن الإسلام يقصد أول ما يقصد إلى بناء مجتمع سليم تتماسك فيه الطبقات وتترابط وتتعاون وتتناصر ويضع كل فرد يده فى يد الآخر ويشعر بشعوره ليرتفعوا بشأن الوطن ويعملوا على رقيه ورفعته فقد قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

ورفعة شأن المجتمع لن تكون إلا بتوافر الجهود والسعى المتواصل والعمل الدائب والجد والكفاح للقضاء على الرواسب الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

فالعمل وحده هو القوة الكفيلة بإذابة الفوارق بين الطبقات وإنشاء رابطة المحبة والألفة بينهم وبذلك يتطور المجتمع إلى تحقيق آمال الشعب ورفاهيته وتنتهى تلك الفوارق المصطنعة التى عملت على خلق الطبقية والاستغلال والمظالم والفوضى والأحقاد والتحاسد.

1- الإسلام دعوة إلى التسامى والرقى والإصلاح.

2- العمل بين الإنسان والحيوان حيث أن البقاء للأصلح.

ومن المعلوم أن الإنسان يعمر الكون من جانب وتعمره بقية الكائنات الأخرى من جانب آخر وكل واحد من الجانبين يختلف عن الآخر فى الحصول على حاجاته الضرورية التى تحفظ عليه حياته وكان من أميز ما يفرق الإنسان عن غيره من

الكائنات الأخرى، أنه يجد نفسه فى موقف المواجهة لقوى الطبيعة وجهاً لوجه وكان لزاماً عليه أن يبذل جهوده ويعمل ما وسعه الجهد للحصول على حاجاته وأن يحافظ على وجوده ويعيش فى تطور مستمر مع الحياة ليسخرها فى خدمته فدوره إذن فى الحياة ليس بالدور السلبى إن الحياة أعطته عاش وإن هى ضَنَّتْ عليه مات . . !! كلا بل وجب عليه أن يفكر طويلا ويعمل كثيرا ويسعى دائباً للحفاظ على حياته ضرورة أن البقاء للأصلح .

وعلى العكس من ذلك نجد بقية الكائنات الأخرى فإنها تمثل جزءا من الطبيعة وتعيش على ما تعطيه لها وتحيا على ما تجده منها ومن أجل ذلك وجدنا فيما قرأنا أنواعاً كثيرة من الحيوانات عرفت باسم حيوانات ما قبل التاريخ كات فى غاية الضخامة الجسمية ولكنها على الرغم من ذلك انقرضت وبادت ولم يَعُدْ لها وجود حيث إنها لم ترزق ملكة العمل والصراع والكفاح للتغلب على قوى الطبيعة كما فعل الإنسان .

3- حاجة الإنسان إلى العمل أساساً للحياة السعيدة الواسعة .

ومنذ أن هبط الله آدم وأبناءه إلى الأرض وهم مكلفون بالكدح فى ثراها ليحصلوا على قوتهم ويجدوا عيشهم لأن أجسامهم لا توجد فيها الحركة والنشاط، ولا تتماسك بها حرارة القوة والعافية إلا بمقدار متجدد من الغذاء كلما نفد منه مقدار تبعه مقدار آخر وهكذا، قال تعالى : ﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ**﴾ (الأنبياء : 8) ، وتحصيل هذا الطعام مطالب به كل إنسان عن طريق أى عمل شريف توفره له الدولة ويتفق مع استعداده ومواهبه وملكاته، وإن موارد الرزق فى الدنيا كثيرة غير أن تفجيرها والبحث عنها والحصول عليها يحتاج إلى مشقة بدنية وعقلية ولابد أن يقوم بها الناس متعاونين : ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ (هود : 61) ، وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ (الملك : 15) ، وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ (الأعراف : 10) .

هذه الآيات وغيرها تشرح الصلة الوثقى بين الإنسان وبين العمل فى الدنيا عملاً متصلاً مثمراً منتجاً مفيداً يتجه إليه المرء بقلبه وروحه وحركاته وسكناته جميعا لا ليتقنه فحسب بل ليتوصل منه إلى معرفة عظمة الخالق جل وعلا .

فالعمل إذن هو وسيلة للبقاء وضريبة للحياة فمن كرس جهاده وحياته للحق والخير فعمله عبادة متقبلة وكل قطرة تبذل من عرقه آية جهاد وكفاح توضع فى سجل حسناته يوم القيامة : كان رسول الله ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب جلد قوى وقد بكّر ليسعى فقالوا : ويح هذا ! ! لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ! ! فقال لهم النبى ﷺ : **«لا تقولوا هذا فإنه إن كان قد خرج يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله وإن كان قد خرج يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان»** وقال ﷺ : **«من أمسى كالا - متعبا - من عمله بات مغفورا له»** ويزيد فى البشارة حيث يقول ﷺ : **«من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره لقى الله - يوم القيامه - ووجهه كالقمر ليلة البدر»** هذا هو ما نعرفه عن رأى الإسلام الذى يجعل العمل وسيلة للبقاء .

4- فضل العمل ومنزلته فى الإسلام وضرر التراخى والكسل

والإسلام يجعل العمل سمة الرجولة الفارعة والقوة النادرة ومظهر التجاوب مع رسالة الوجود وكفاه منزلة سامية - أن الله تبارك وتعالى أمر به بعد أداء الصلاة الجامعة حيث قال فى محكم كتابه : **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (الجمعة : 10) ، وجعله نجاة للشخص من المسئولية أمام الله يوم القيامة **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** (الكهف : 110) ، وثواب المرء وعقابه حسب ما يبذل من عمل فإن كان كثيرا فالجزاء كثير مضاعف قال تعالى : **﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** (الأحقاف : 19) ، كما كان سبيلاً إلى مرضاة الله عز وجل وطريقا إلى الشرف والحفاظ على كرامة الشخص فقد قال ﷺ : **«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»** والله قد خلق هذا الكون وزينه وبسط الأرض ودحاها ليزيد عمل الناس : **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى**

الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ (الكهف : 7) ، وقد ذكر للرسول الكريم رجل كثير العبادة ـ ولا يعمل ـ فقال : « **من يقوم به ؟** » قالوا : أخوه ! ! قال : « **أخوه أعبد منه** » وقال : « **إن الله يحب العبد المحترف** » وعن سليمان الدارانى : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد » وقد ورد أن الرسول قبل يداً ورمت من كثرة العمل وقال : « **تلك يد يحبها الله ورسوله** » .

5- العمل مع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام :

إن رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين عرفوا قيمة العمل فى حياة الإنسان فعملوا بأيديهم وضربوا أروع الأمثال فى الكفاح من أجل لقمة العيش فكانوا فى هذا الجهاد قدوة لغيرهم فها هو ذا نوح ﷺ يعمل ويمتثل أمر الله ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾ (هود : 37) ، فصنع نوح ﷺ السفينة بيديه صادعاً بأمر ربه .

والخليل إبراهيم ﷺ يقوم حسب أمر الله ببناء الكعبة ويعاونه فى هذا العمل ابنه إسماعيل ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (البقرة : 127ـ128) .

وعمل موسى عند شعيب عليهما السلام ثمانى سنوات ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ (القصص : 26) ، وأكل داود ﷺ من عمل يده ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ (سبأ : 10ـ 11) ، وسئلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن حياة النبى ﷺ ماذا كان يعمل فيها ؟فقالت : كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة» .

وقد حكى القرآن عن أحد عباد الله الصالحين أنه فى أثناء سيره فى الدنيا وصل إلى شعب مستضعف مستذل لشعب آخر فشكو إليه ما يجدونه من طغيان الشعب

الآخر الذى يظلمهم ويطغى عليهم فأمرهم بالعمل معه متعاونين ليدفع عنهم الطغيان والظلم . ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف : 94-97) .

6- أثر العمل فى رقى الأمة ونهضتها:

فالعمل يحفز الهمم الوانية ويحرك القوى النائمة ويبعث الأمم الهادرة ويحيى الموات ويعمر الأرض ويوسع آفاق الفكر ويصقل العقل، ويكسب النفس ثقة وقوة ويُضفى على الأمة سمة التقدم ويحلق بها فى مستوى رفيع من العزة والرقى والرفاهية وهو أساس السعادة والهناء فى الميادين كلها ، ففى ميدان الزراعة وعمل المناجم وأبحاث البترول وحفر الآبار لاستخراجه يقول الرسول الكريم : «**التمسوا الرزق فى خبايا الأرض**» وفى ميدان التجارة نقرأ توجيه الله لنا حيث يقول : ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ (البقرة :282) ، وفى ميدان التصنيع يقول الله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (الأنبياء : 80) .

7- ما سبيلنا إلى الزيادة والإنتاج ؟

فإلى العمل جميعاً كل فى ميدانه فالطالب فى معهده والصانع فى مصنعه والتاجر فى متجرة والعامل فى مكانه والزارع فى حقله إلى العمل جميعا فالحياة جهاد وكفاح وجلاد إلى العمل فالعمل سبيل الزيادة فى الإنتاج ، والإنتاج طريق الغنى والثروة والتقدم والرفاهية والقوة والكرامة والعزة والحرية والاستقلال والرضى ولا تظنوا أن العمل الصالح الذى ذكر فى القرآن فى مائة وستين آية مقصود به الصلاة والصوم والزكاة والحج فحسب بل العمل الصالح بجانب ذلك كل خير تقدمه لأهلك ولنفسك ولوطنك ولجيرانك ثم للإنسانية جمعاء ، هو إذن طاقة توجه لجلب النفع فى المجتمع ولدفع الضرر عنهم .

إلي العمل لنقضى على الخمول والكسل والتواكل فلقد تعوذ رسول الله منها حيث قال: «**اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن**» وتحدث عن الفقر فوضعه فى موضعه المقيت: «**كاد الفقر أن يكون كفرا**» وقال مرة أخرى: «**اللهم إنى أعوذ بك من الفقر**» وكان على بن أبى طالب يقول: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

8- احتراف التسول ضرر يؤخر الإنسان عن واجب العمل:

ولم يقف علاج رسول الله لمشكلة الفقر عند هذا الحد بل أمر بالعمل تارة لزيادة الإنتاج ثم نهى عن التسول مرة أخرى فعن أنس قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فمنا الصائم ومنا المفطر قال: ونزلنا منزلاً فى يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء فمنا من يتقى الشمس بيده، قال: فسقط الصوام إعياء فقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال الرسول ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله**».

فهذه هى كرامة العمل عند الله بالنسبة لطول العبادة والصيام بل إن الإسلام عد الإقبال على العمل والتشمير عن ساعد الجد فيه ضربا من الجهاد فى سبيل الله « **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾ (الكهف: 107-108) ، وكان رسول الله يقول: «**من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صوم ولا صلاة ولكن يكفرها السعى على المعاش**».

وعناية الإسلام بالعمل إلى هذا الحد ليخلق المجتمع القوى فى عقله وجسمه، الحر فى وطنه وبلده، فالحياة ميدان رحيب للمجد ولن تمد يدها لكسول خامل يسأل الناس رغدهم ويعيش على صدقاتهم فمثل هذا لا مكان له فى صفوف الرجال الأشداء الذين يعتمدون على سواعدهم، ويعملون على رقى دولتهم، ويحققون أمل الأمة فيهم، وهذا ما فعله الرجال الفاقهون لتعاليم الإسلام عن دفع الأفراد إلى الغايات السامية، والأهداف الكبيرة حتى لا يكونوا عالة على غيرهم وهو ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال لأهل الصفة: «لقد احتفظ النبى ﷺ بكم فى عهد لم تكونوا تجدون فيه مرتزق ولكن اليوم قد اتسعت فى وجوهكم أبوابه فامضوا لشأنكم واعملوا مع العاملين» وكان يقول: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وقد

علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة» وقد جاءت الأحاديث تترى تؤيد هذا الفهم الذى فهمه عمر قالها رسول الله ليقضى على الخمول والكسل والمسألة والمسكنة المفتعلة التى يفعلها بعض الناس يريقون بها ماء وجوههم ويفقدون بها شرفهم ورجولتهم روى البخارى أن رسول الله قال: «**لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة لحم**» والرجل حين يسأل الناس تكثرا فإنما يأخذ نارا فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر**» وروى البيهقى عن ابن مسعود بن عمرو عن النبى ﷺأنه أتى برجل ليصلى عليه فقال: «**كم ترك؟**» قالوا: دينارين أو ثلاثة. قال: «**ترك كيتين أو ثلاث كيات**» فلقيت عبد الله بن القاسم مولى أبى بكر ﷺ فذكرت ذلك له فقال: ذاك رجل كان يسأل الناس تكثرا».

وقد بين رسول الله من يستحق الصدقة ومن لا يستحقها فقال: «**لا تجوز الصدقة على غنى ولا على ذى مرة قوى**» وعن أبى هريرة أن رسول الله قال: «**ليس المسكين الذى يطوَّف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس، ولأن يقوم المرء فيجمع الحطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**».

9- **حقوق العمال وواجباتهم:**

ولا تقف عناية الإسلام بالعمل عند هذه الدرجة بل إنه تعداها حيث جعل للعامل حقوقا وواجبات وأناط به مسئوليات كبيرة وأهاب بالمسلمين إلى أن يضربوا فى الأرض وأن يحصلوا على ثمراتها وخيراتها.

فالعامل مسئول أمام الله عن العمل الذى يقوم به قال تعالى: ﴿**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (النحل: 93)، وحديث رسول لله: «**والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته**» وعليه أن يتقن العمل قال ﷺ: «**إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن**» وحديث «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» وعلى الدولة أن توفر الأجر للعاملين فقد قال ﷺ: «**أعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**» وقال تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى**﴾ (آل عمران: 195)، وقال رسول الله: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة**».

وحق العامل فى تأمين نفقاته العائلية والاجتماعية شيء لا ينكره الإسلام فقد ورد عن رسول الله : «**من ولى لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلا أو ليس له زوجه فليتزوج أو ليسه له دابه فليتخذ دابة**» وحقه فى الراحة يجب أن يوفر له أيضا : «**إن لنفسك عليك حقا وإن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا**» ويراعى أن يكون العمل على قدر الطاقة فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها ففى الحديث : «**ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون** » والأجر حق العامل لا منة فيه لأحد عليه ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (فصلت : 8) ، وهذا الأجر مراعى فيه أن يكون على قدر العمل فلا يصح أن يتساوى أجر البطيء بأجر المجتهد الذى يضاعف العمل فقد قال تعالى : ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ (الأعراف : 85) .

فالأجر ثابت لا مرية فيه ولاشك ، ضمنه الإسلام للعامل حيث إنه لا عمل من غير أجر وهذا يعتبر بحق من أسمى ما وصلت إليه البشرية فى تاريخها الطويل وأعظم ما عرفه الناس فى شرعة العمل والعمال ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**﴾ (هود : 15) .

10 – تجديد فهم المسلمين لفضيلة التوكل على الله وأنه دعوة إلى الايجابية فى الحياة:

ولقد عرف الأولون من المسلمين قدر العمل وأثره فى نهضة الأمم فانطلقوا فى آفاق الأرض يحدوهم الأمل فى حفظ كيانهم وفى أمتهم وقيام دولتهم، ولم يرضوا أن يكونوا عالة على غيرهم، روى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها» قال عبد الرحمن : بارك الله فى أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو ثم جاء وبه أثر صفرية ـ زينة ـ فقال النبى : **مهيم** ـ سؤال عن حاله ـ قال : تزوجت، قال : **كم سقت إليها؟** قال : نواة من ذهب .

ولما انحدر المجتمع الإسلامى وتضاءل فهم المسلمين للإسلام وجدنا ظاهرة

غريبة ، تلكم هى إن المسلمين فهموا العمل الصالح الذى نطقت به الآيات الكريمة على أنه الصلاة والزكاة والصيام والحج وليس هذا ، وظهر نتيجة لذلك دعوات الزهد فى الدنيا والسعى فيها وفروا من الحياة وتكاليفها فرارهم من الأسد وفهموا التوكل على غير حقيقته فأصبح دعوة سلبية بعد أن كان دعوة إيجابية على عهد الرعيل الأول من أبناء هذه الأمة وتبع هذا مجىء الاستعمار إلى بلادهم بدسائسه وشروره وآثامه ولم ينفعهم أنهم ينتسبون إلى خير دين لأنهم غفلوا عن حقيقة جوهرية فى دينهم هى فضيلة العمل ومنزلة العاملين .




العمل بين الأثرة والإيثار

سمعنا كثيراً من شيوخنا فى حلق الدرس ونحن طلاب صغار، كما قرأنا فى الكتب ونحن كبار كلمتين ثنتين : هما كلمتا الإيثار والأثرة وبين الكلمتين بعد ما بين السماء والأرض، فإحداهما تحلق فى مستوى رفيع من الجمال والكمال والعلو والرفعة ، والثانية تهبط وتمعن فى الهبوط والانحطاط حتى تلتصق بالتراب، الأولى : ترتفع وتعلو حتى تأخذ مكانها عند الثريا والثانية : تنزل حتى تكون مع الثرى وشتان ما بين الثريا والثرى.

وقد شرح العلماء كلمة الأثرة بأنها إمعان فى محبة الذات حتى تجعل الشخص لا يحب إلا نفسه، ولا يود الخير إلا لها، فكل خير يجب أن يكون له وحده دون غيره من الناس كأن الله لم يخلق سواه، فهو يريد أن يحتوش كل فضل، ويستولى على كل نعمة، هذا الصنف من الناس طبعت نفسه على الأنانية وحب الذات فلم تعد تعرف نور الحق وجلاله وأضحت قلوبهم كالحجارة فلم تعد تؤمن بالخير وجماله.

على خلاف ذلك نجد معنى الإيثار، فهو عاطفة نبيلة وخلق جميل يدفع صاحبه إلى المكرمات ويجعله يسير فى الحياة على سنا من محبة الناس فهو إذا عمل عملاً رجا من ورائه الخير لهم جميعا وإزجاء النعمة إليهم ودفع الضر عنهم فهو خلق يجعل صاحبه يؤثر غيره بالخير على نفسه وهذا الصنف من الناس هو الذى مدحه الله تعالى وشرح ما تنطوى عليه نفوسهم من حب الخير ومحبة الناس حيث قال فى شأن الأنصار : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر : 9) .

ولقد أعد الله لهؤلاء الأخيار الثواب الجزيل فى الآخرة والفوز والعزة فى الدنيا جزاء ما قدموا للإنسانية من فضل، فهم الذين يرطبون جفاف هذه الحياة بأعمالهم الطيبة ويقدمون للبشرية ما يخفف آلامها وها هو ذا القرآن الكريم يتحدث عن جماعة منهم فيقول الله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان : 7-12) ، فانظر - هداك الله - إلى تلك العاطفة الجياشة، والقلب العامر بالإيمان ومحبة الناس إنهم يعملون العمل لا يرجون من ورائه جزاء من أحد ولا ثناء. بل إن أحدهم ليرتفع بعمله أكثر من هذا فلا يقابل الإساءة بمثلها وإنما ينأى بنفسه عن مواطن الانتقام، روى البخارى أن مسلماً وقع فى أيدى المشركين - أسيرا - فحبسوه ليقتلوه فتسرب إليه صبى من أهل الحى وقعد فى حجره، وكانت فى أيدى الأسير - موسى - حديدة يحلق بها زوائده فتلفتت أم الصبى مذعورة وقد رأت وليدها فى حجر الأسير وطارت بلبها الظنون فأقبلت عليه مفزعة، فنظر إليها الأسير المسلم فى وداعة ورقة وقال لها: أظننت أن يصيب ابنك منى شر ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله».

وعلى أكتاف هؤلاء الأخيار يقوم الحق وينتصر وبدمائهم يشتد ويقوى ساعده فعن شداد بن الهاد أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فآمن به ثم قال له: أهاجر معك - وكان من الأعراب البدو - فأوصى به النبى بعض أصحابه وضمه إلى جنده فكانت غزاة انتصر فيها المسلمون وغنم النبى فيها شيئا فقسمه على من معه وأرسل إلى الأعرابى نصيبه فلما وصل إلى الأعرابى قال: ما هذا؟ قال: **حظك من الغنيمة قسمته لك**. قال: ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى بسهم ها هنا - وأشار إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة. فقال له الرسول: «**إن تصدق الله يصدقك**» ثم نهضوا إلى قتال العدو وما لبثوا إلا قليلا حتى جىء بالأعرابى محمولاً وقد أصابه سهم فى حلقه حيث أشار بيده قال النبى: «**أهو هو؟**» فالوا: نعم!! قال: «**صدق الله فصدقه**» ثم كفن فى جبة النبى ثم قدمه فصلى عليه فكان مما ظهر فى صلاته على الأعرابى القتيل قوله: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك فقتل شهيدا وأنا على ذلك شهيد**» رواه النسائى. هذا هو الإيثار فى أعلى معانيه وأكمل صوره.

والأنانيون لعنة ماحقة فى كل مجتمع فما قامت بهم نهضة ولا انتصرت بهم أمة ولا ارتفع بعملهم وطن وإنما هم فى كل مجتمع دليل على الشح والبخل والشر،

والطمع ، قال تعالى فى شأن رجل منهم : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص : 76-77) ، قال فى طغيان وتبجح : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص : 78) ، هذا هو منطقهم فهم لا يعترفون للناس بفضل ولا يعرفون لهم حقا فكل خير لهم ومن حقهم .

ولقد حكى القرآن الكريم عنهم الشيء الكثير وبين طوائفهم ، فطائفة منهم لا يهمهم الصالح العام ولا يفكرون فيه على نحو ما وصف القرآن هذه الطائفة التى انخذلت عن رسول الله وهو ذاهب إلى غزوة أحد ومعه المسلمون فقد قال الله تعالى : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ﴾ (آل عمران : 154) .

وهناك طائفة ثانية أولئك الذين يحبون أن يحوزوا كل نعمة ويأخذوا كل خير وفضل فهم إن أخذوه رضوا وإن حرموا منه سخطوا وبكوا ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (التوبة : 58) .

وطائفة ثالثة تمثلها طائفة التجار الجشعين . الذين لا يستريحون إلا إذا أصابوا ما عند الناس ، واستولوا على أرزاقهم وخرجوا من الأمر بنصيب الأسد ، قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين : 1-6) .

وبقيت طائفة رابعة أشد من أصحابها نكراً فهم إذا كان الحق فى صالحهم أذعنوا له وقبلوه وجاءوا إليه مذعنين وإذا كان بعيدا عنهم تمردوا ولووا رءوسهم واستكبروا استكباراً ، أولئك هم الذين فضحهم الله بقوله : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)

أفي قُلُوبهم مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (النور : 48ـ50) .

هذا هو حديث القرآن عن الأنانيين الذين أقفرت قلوبهم من المحبة على الأمة وضاقت عن إرجاء النفع الخاص وعجزت نفوسهم عن إسداء المعروف للإنسانية فهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم ويستكثرون على غيرهم أن يعيشوا كما يعيشون وينعموا كما ينعمون ولم يعرفوا معنى لقول رسول الله ﷺ : «**صنائع المعروف تقى مصارع السوء والصدقة تطفىء غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر وكل معروف صدقة وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة وأول من يدخل الجنة هم أهل المعروف**» رواه الطبرانى ، وقد شرح رسول الله هذه المسألة فى حديث آخر وأنه يكفى الشخص أن يقدم ما يستطيع تقديمه فالله سبحانه وتعالى يبارك فى القليل حتى يصير كثيرا وما على الأنانى إلا أن يتخلص من أثرته ويخلص لله فى نيته ، فعن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : «**على كل مسلم صدقة**» قالوا : أرأيت إن لم يجد؟ قال : «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**» قالوا : أرأيت فإن لم يستطع . قال : «**يعين ذا الحاجة الملهوف**» قالوا : أرأيت فإن لم يستطع ؟ قال : «**يأمر بالمعروف أو الخير**» قالوا : أرأيت إن لم يفعل ، ؟ قال : «**يمسك عن الشر فإنها صدقة**» متفق عليه .

والإيثار من علامات الإيمان ودلائل اليقين فكما أن للحياة فى الجسم أمارات تدل عليها من حركة ونشاط وحرارة ونبض وقوة ، كذلك الإيمان فى القلب فإذا وجدت شخصا يسره أن يسوق الخير للناس وينقبض حين ينزل بهم الضر فاحكم له بالإيمان واعرف له جلال اليقين وإذا وجدت شخصا يرتكب الخطايا غير متحرج ولا متأذ فاعرف أنه إنسان ميت الضمير قلما يتحرك لخير أو يسعى لمنفعة عامة ولقد بين رسول الله ﷺ أن المسلم جياش الفؤاد حى الضمير يفعل الخير فى كل أوقاته لأن الخير قد انساب فى فؤاده وظهر فى كل خلجة من خلجات نفسه ، فعن أبو ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «**على كل مسلم فى كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة** » ، قلت : يا رسول الله من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ . قال : «**من أبواب الصدقة : التكبير وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله واستغفر الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعزل**

الشوك عن طريق الناس والعظم والحجر وتهدى الأعمى وتسمع الأصم الأبكم حتى يفقه وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك» .

والنفس تحتاج إلى مران طويل كيما تتخلص من الأثرة وتتعود الإيثار وتفعل الخير عن طواعية وحب، فالنفس راغبة إذا رغبتها فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال رجل : يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرى موطنى فلم ، يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾

المساواة فى الحقوق والواجبات

عود على بدء لنتابع الحديث عن الفكرة الإسلامية كى يتضح منه منهج متكامل للفرد والجماعة ، فالإسلام يحث على المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات والمسئوليات .

والرسالة الإسلامية جعلت الناس سواء فى الحقوق والواجبات والمسئوليات فصارت التشريعات الإسلامية قائمة على المساواة بين الناس بأوسع معانيها وأبعد حدودها فلا قيود ولا استثناءات وإنما هى مساواة مطلقة بين الأفراد والجماعات مساواة تامة بين الأمم والشعوب والأجناس مساواة بين الحكام والمحكومين والرؤساء والمرؤسين مساواة بين الولاة والرعية وبين الرجل والمرأة .

ولا فرق فى الرسالة الإسلامية بين أبيض وأسود ولا بين عربى وغير عربى وكذلك لا فضل لجنس على جنس فلا فضل لآرى على سامى ولا لسامى على آرى وإنما التفاضل قائم بين الناس على أساس التقوى التى هى أساس الإيمان واليقين ومنبع العلم والفكر وأصل الفضائل والأخلاق يقول ربنا تبارك وتعالى فى كتابه العزيز - مقررا هذا المبدأ الذى لم تشهد له الدنيا مثيلا من قبل - **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات : 13) .

وقد أكد الرسول الأمين ﷺ هذا المبدأ بقوله وفعله ولاسيما فى المجامع العامة والمشاهد الحافلة فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته ثم وقف بين الناس قائلا : «**الحمد لله الذى أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها الناس رجلان رجل بر تقى كريم على الله تعالى ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**» (الحجرات : 13) .

ومن هنا كان الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وشعوبهم وألوانهم وألسنتهم سواء فى الحقوق والواجبات والمسئوليات .

طبقت الشريعة الإسلامية مبدأ المساواة بين الناس على أوسع مدى يتصوره عقل بشر ولهذا لم تفرق بين الملوك والسوقة ولا بين الرؤساء والمرءوسين ولم تفرق بين ممثلى الدول السياسيين والرعايا العاديين ولم تفرق بين الأغنياء والفقراء ولم تفرق بين أصحاب الجاه والخاملين فكلهم فى شرع الله سواء لا قداسة فى الإسلام ولا امتياز للخلفاء والملوك والرؤساء .

والرسالة الإسلامية لا تفرق بين الحكام والرعايا فى الخضوع لأحكام الشريعة وسريانها عليهم وهم مسئولون عن جرائمهم وفى تاريخنا الإسلامى أكثر من دليل على ما نقول فقد روى ابن إسحاق فى سيرته : أن رسول الله ﷺ وقف يعدل الصفوف يوم بدر بقضيب فى يده فمر بسواد بن غزية الأنصارى وهو خارج من الصف فطعنه بالقضيب فى بطنه وقال له : «**استقم يا سواد**» فقال سواد : أوجعتنى يارسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال : « استقد يا سواد» فاعتنقه سواد فقبل بطنه فقال له النبى ﷺ : **ما حملك على هذا يا سواد ؟**» فقال : يا رسول الله حضر ما ترى - يعنى موطن الشهادة فى سبيل الله - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك» فدعا له رسول الله ﷺ بخير» وذكر الإمام القاضى عياض فى الشفاء : أن يهودياً جاء يتقاضاه دينا له عليه لم يحل أجله فأغلظ له فى القول وقال : إنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل» فهم به سيدنا عمر وانتهره فمنعه الرسول الأمين وقال له : **أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضى**» ثم قال : «**لقد بقى من أجله ثلاث**» وأمر عمر أن يقضيه حقه ويزيده عشرين صاعاً لأنه روعه» وقد أثر هذا العدل المطلق فى نفس الرجل اليهودى فما كان منه إلا أن أسلم راغبا مختارا وجاؤا إليه برجل فوقف يرتعد بين يديه فقال له : **هون عليك يا أخا العرب فإنى لست بملك وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد من قريش**» .

وفى أثناء مرض الموت خرج رسول الله ﷺ بين الفضل بن العباس وعلىّ حتى جلس على المنبر ثم قال : « **أيها الناس من كنت جلدت له ظهر فهذا ظهرى فليتقدمنه ومن أخذت منه مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخش الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ألا**

وان أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له أو خللى - تنازل لى عنه - فلقيت ربى وأنا طيب النفس» .

وإذا كان النبى الكريم قد قرر هذا المبدأ الأسمى فى خاصة نفسه فإنه قد قرره على أهله وولده وذلك لما جاؤا إليه يطلبون الشفاعة فى عدم إقامة الحد على المرأة المخزومية التى سرقت حليا وقطيفة من جارتها ووجب عليها الحد فوسطوا إليه أسامة بن زيد رضى الله عنهما فغضب الرسول غضباً شديداً وقال : **أتشفع يا أسامة فى حد من حدود الله ؟ إنما أهلك من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»** وعلى ذلك كان إذا أمر بأمر بدأ بأهله وإذا نهى عن شىء بدأ بأهله .

وجاء من بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا منهجه وساروا على هديه واتبعوا طريقه وكانوا وقافين عند أمره ، فهذا أبوبكر وقف يقول فى أول خطبة له بعد البيعة العامة : أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم ولكنه نزل القرآن وسَنَّ النبى ﷺ السنن وعلمنا فعلمنا فاعلموا أن أكيس الكيس التقى وأعجز العجز الفجور وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له حقه وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإذا أحسنت فأعينونى وإذا أسأت فقومونى أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم» .

وجاء عمر من بعد أبى بكر فطبق مبدأ المساواة فى الأحكام الشرعية بين الناس جميعاً لا فرق بين ملك وسوقة ولا بين شريف ووضيع ولا غنى وفقير وخطب فقال : لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر تذهب بنا شرقاً وغرباً فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم فإن استقام اتبعوه وإن حنف قتلوه فقال طلحة بن عبيد الله : وما عليك لو قلت : وإن اعوج عزلوه قال : لا القتل أنكى لمن بعده» كما كان يسر حين يرى من الرعية رقابة على الخلفاء والأمراء خطب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» فقال : الحمد لله الذى جعل فى أمة عمر من يقوم اعوجاج عمر بسيفه» وعلى ذلك فليكن الحكام ولتكن الأصول التى تقوم عليها الدولة فى الإسلام .

ولقد ساوى سيدنا عمر بين الملوك والسوقة فإن جبلة بن الأيهم ملك غسان لما أسلم ووفد على عمر بأبهة الملك تلقاه بالترحيب وبينما هو يطوف حول الكعبة يوما وطىء إزاره أعرابى من بنى فزارة فلطمه على وجهه فشكاه الأعرابى إلى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له : إما أن ترضيه واما أن يقتص منك فكبر ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة فقال له سيدنا عمر : لا قد جمع بينكما الإسلام فاستمهل جبلة عمر إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بهرقل فأرسل له عمر من يسترضيه فأبى الرجوع.

وأعطى أبو بكر القود من نفسه وأهله وأقاد للرعية من الولاة وكذلك فعل عمر بل وتشدد فى ذلك وبالغ فأعطى القود من نفسه غير مرة ولما سئل فى ذلك قال : رأيت رسول الله ﷺ يعطى القود من نفسه وأبا بكر يعطى القود من نفسه وأنا أعطى القود من نفسى وكان إذا صعد المنبر ونهى الناس عن شىء جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم إلا ضعفت عليه العقوبة لمكانه منى» . وروى أن جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين عذته بك من الظلم قال : عذت معاذا قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ويحضر ابنه معه فقدم هو وابنه فقال عمر : أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب فجعل يضرب ابن عمرو بالسوط وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو قال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه ثم قال عمر لعمرو بن العاص هذه الكلمة التى صارت مثلا : مُذْ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» فقال عمرو : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى الرجل يعنى المصرى.

كما عرف عن عمر أنه لا كبير فوق الحق ولا سلطان إلا سلطان الشريعة ،روى عن الشعبى قال : كان بين عمر بن الخطاب وبين أبى بن كعب خصومة فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا فجعلا زيداً بن ثابت فأتياه فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال : ها هنا يا أمير المؤمنين فقال عمر : هذا أول جور جرته فى حكمك ولكن أجلس مع خصمى

فجلس بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لأبى : اعف أمير المؤمنين من السجن وما كنت لأسألها لأحد غيره فحلف عمر لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء».

وهذه قضية أخرى فإن عمر أخذ فرسا من رجل على سوم فمل عليه فعطب فخاصم الرجل عمر فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلاً فقال الرجل : فإنى أرضى بشريح العراقى فقال شريح لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : أخذته صحيحا سليما فأنت له ضامن حتى ترده صحيحا سليما وقد كان هذا الحكم الذى صدر من شريح ضد عمر هو الذى حفزه لتعيين شريح قاضيا.

وبهذه المساواة وعلى هذا القول قامت حضارة الإسلام وبلغت الأمة الإسلامية من التقدم والرقى والسلطان والعزة ما تبلغه أمة من الأمم لا فى القديم ولا فى الحديث.

وقد جرى العمل فى الإسلام على محاكمة الخلفاء والملوك والأمراء والولاة أمام القضاء العادى وبالطريق العادى الذى يحاكم به بقية أفراد الشعب طيلة عهد الخلفاء الراشدين وهذا هو الإمام على ـ وهو من نعلم سبقه فى الإسلام وقرابته من رسول الله ـ يفتقد درعا له ويجدها مع يهودى يدعى ملكيتها فيرفع على أمره إلى قاضى المسلمين فيحكم لصالح اليهودى ضد الخليفة على بن أبى طالب وهذا هو المغيرة بن شعبة والى الكوفة يتهم بالزنا فيحاكم على الجريمة المنسوبة إليه بطريق القضاء العادى.

واستمر العمل بهذا المبدأ بعد عصر الخلفاء الراشدين فقد قص علينا التاريخ الصحيح أن المأمون بن هارون الرشيد اختصم مع رجل بين يدى يحيى بن أكثم قاضى بغداد فدخل المأمون إلى مجلس القضاء وخلفه خادم يحمل طنفسة يجلس عليها الخليفة المأمون فرفض القاضى يحيى أن يميز الخليفة على أحد أفراد الرعية وقال : يا أمير المؤمنين لاتأخذ على صاحبك شرف المجلس فاستحيا المأمون ودعا للرجل بطنفسة أخرى وجلس عليها وهكذا سار العمل فى الدولة الإسلامية فى العصور التى كانت السيادة لشريعة الإسلام وأحكامها وقضاتها.

وقد جرى الإتفاق بين الفقهاء قاطبة على المساواة فى المسئولية والعقوبة بين

جمهور الناس وبين الولاة والحكام والسلاطين والملوك الذين يخضعون للخليفة الذى عقدت له البيعة العامة من جماهير الأمة كما رأى جمهور العلماء أن الخليفة مسئول هو الآخر عن كل جريمة ارتكبها سواء منها ما يتعلق بحق الله تعالى أو بحق أحد من أفراد الرعية وفيما سقناه من سيرة الرسول وأصحابه دليل على صحة رأيهم.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية لا تميز بين رئيس الدولة وبين غيره فهى من باب أولى لا تميز رؤساء الدول الأجنبية فإذا ارتكبوا أية جريمة أثناء وجودهم فى دار الإسلام عوقبوا عليها وكذلك لا تعفى الشريعة الإسلامية رجال السلك السياسى إذا ما أتوا بجريمة فى دار الإسلام ولا أعضاء الهيئة التشريعية على ما يرتكبونه من أعمال تتنافى مع مبادىء الشريعة إذ أن الشريعة تأبى أن تميز فرداً عن فرد أو جماعة عن جماعة ولأنها تأبى أن تسمح لفرد أو هيئة بارتكاب الجرائم مهما كانت وظيفة الفرد ومهما كانت صفة الجماعة.

هذا وإن القوانين الوضعية ظلت حتى نهاية القرن الثامن عشر تميز بين الأفراد ولم تكن تعترف بالمساواة بين الحاكمين والمحكومين والأشراف ورجال الدين فكانت تميز بينهم فى المحاكمة وفى توقيع العقوبة وطريقة تنفيذها كما كانت المحاكم تتعدد تبعاً لتعدد الطوائف فللأشراف ورجال الدين محاكم خاصة وقاضة من طبقة معينة ولرجال الدين محاكم خاصة كما كان للجمهور محاكم خاصة وكانت الجريمة الواحدة يعاقب عليها أمام هذه المحاكم بعقوبات مختلفة وكان لشخصية الجانى اعتبارها فى تخفيف العقوبة أو عدمه.

كان هذا هو الوضع حتى نهاية القرن الثامن عشر وجاءت الثورة الفرنسية فجعلت المساواة أساسا من الأسس الأولية فى القانون وأصبحت نصوص القوانين تسرى على الجميع ولكن مع هذا لم يطبق مبدأ المساواة تطبيقاً تاما إلى وقتنا هذا فلم يكن من السهل أن يتخلص الناس من جملة التقاليد التى ورثوها فبقيت رواسب من التمييز وعدم المساواة اعتبرت استثناءات من مبدأ المساواة التامة وظل الأمر على ذلك إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وطلع علينا أغلب المفكرين وصاروا يعملون جاهدين لتحقيق المساواة بين الناس ولكن ومع صدور مثل هذه

الكتابات من المفكرين إلا أنه ماتزال الدول المتحضرة تؤمن بالفوارق فلا زال الرجل الأبيض يري لنفسه ميزة عن الرجل الأسود وليس أدل على ذلك مما تعانيه أمريكا التى تتزعم العالم الغربى فإنها تنوء بالتفرقة بين الرجل الأمريكى الأبيض والأمريكى الأسود ولايزال أبناء أوروبا وأمريكا يرون أن لهم فضلا على أبناء أفريقيا وآسيا . وإنك لتلمس ذلك واضحا فى القوانين الوضعية .

ولا بأس من سوق جملة من هذه الصور التى حفلت بها القوانين الوضعية التى تدل على عدم المساواة بين الأفراد والطبقات .

أولا: تفرق القوانين فى كل بلاد العالم بين رؤساء الدول والشعوب وبين أفراد هذه الدول والشعوب فبينما يخضع الأفراد للقانون لا يخضع له رئيس الدولة أو الملك بحجة أنه مصدر القانون وأنه فوق السلطة ذلك ما تجده فى كل دساتير العالم بل إن بعضها يجعل ذات الملك مصونة ومقدسة لا تمس وهذا رغم التطور الكبير التى خطت إليه مما جعلها لم تصل بعد إلى ما وصلت إليه الشريعة الغرّاء وعجزت عن اللحاق بها ولاشك أن العالم فى أمس الحاجة إلى هذا المبدأ الذى أعلنته الشريعة الإسلامية .

ثانيا: ميزت القوانين الوضعية الأغنياء على الفقراء فى كثير من الحالات فقد أباح القانون المصرى أن يدفع الغنى غرامة إذا حكم عليه فى بعض الجرائم بالحبس وترك للقاضى تقدير الغرامة المالية وأن يفرج عن المحبوس بالضمان المالى بينما الفقير يمكث فى الحبس المدة المقررة عليه لأنه لا يستطيع دفع الغرامة ولا يملك الإعتراض على الحكم . وفى تشريع مبدأ الضمان المالى وتقريره خروج على مبدأ المساواة واعتداء على مقدرات الناس وحقهم فى الحياة الحرة الكريمة .

ثالثا : وتميز القوانين الوضعية أصحاب الجاه والحسب والنسب والظاهرين من أفراد الشعب على غيرهم من الطبقات الدنيا والوصفاء أفراد الشعب فإذا كان المتهم شخصية مرموقة أو موظفا كبيراً أو محاميا مشهورا أو طبيبا أوعضواً فى البرلمان فإنه لا يجوز الاعتداء عليه برفع دعوى أو خلافها إلا بعد استئذان جهات معينة ويجوز لوكيل النيابة أن يحفظ القضية مكتفياً بتوقيع جزاء إدارى يوقع على الموظف أو الطبيب أوالمحامى أو صاحب الجاه وبذلك ينجو صاحب التهمة من العقوبة الجنائية

ومثل هذا الإجراء غير ممكن بالنسبة لأفراد الشعب العاديين بل إن بعض القوانين تبيح أكثر من هذا فإذا وقع ضرر على أحد الناس واقتضى الأمر أن يطالب بتعويض مادى روعى فى الحكم ما عليه من وضع اجتماعى فلو أن مديراً فى شركة وعاملاً من عمالها أصيبا فى حادث واحد وتقدم كل منهما لطلب تعويض عن هذه الإصابة فسيكون تعويض المدير أكبر وأكثر من تعويض العامل وفى هذا ما فيه من خرق لمبدأ المساواة إذ أنه ربما يكون للعامل من الأسرة الكبيرة ما هى بحاجة إلى تعويض أكبر وأكثر ولكنها آراء البشر وقوانين الإنسان ، قال تعالى : ﴿**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا**﴾ (الإسراء : 100) .

بقيت كلمة أخيرة عن فوضى القوانين الوضعية فى ناحية المساواة بالنسبة لرؤساء الدول الأجنبية ملوك ورؤساء دول وبالنسبة للمفوضين السياسين وممثلى الشعب .

إن القوانين الوضعية لا تحاكم الملوك ولا الرؤساء إذا ارتكبوا جريمة فى أى بلد آخر غير بلادهم كما تعفى هذه القوانين المفوضين السياسيين الذين يمثلون الدول الأجنبية ويشمل الإعفاء رجال حاشيتهم وأفراد أسرهم ولاشك أن فى هذا ضرراً بليغاً فى حقيقة الأمر للدولة المضيفة فربما يتحولون من ضيوف وممثلين إلى جواسيس على الدولة يتآمرون على سيادتها وحريتها .

وقل مثل ذلك مع ممثلى الشعب فى البلاد النيابية على ما يصدر منهم من الأقوال أثناء تأدية وظائفهم والمقصود من هذا الإعفاء إعطاء أعضاء المجالس النيابية قدراً من الحرية يساعدهم على أداء وظائفهم حق الأداء .

هذه كلمة الإسلام عن المساواة بينتها آيات القرآن وشرحها فعل رسول الله ونفذها الصحابة والتابعون وعلى الجانب الآخر الطبقية والتفرقة بين الأفراد والطبقات عبر القرون والأجيال ، فهل من عودة إلى المساواة التى بينها القرآن حتى تسعد الدنيا فى ظلها وتتنسم الحياة أنسام الراحة والهدوء ؟!!



مكانة الشورى فى الإسلام

الإسلام دين الأمة الفاضلة والدولة الراقية والفرد المؤمن والمجتمع السليم هو طلبة الطبيعة البشرية من أول عهدها بالحياة قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم : 30) .

ولما كان حكم الدولة هو نظام حياتها وعنوان تفكيرها ومرآة رقيها وأساس كرامتها وحريتها فإن الإسلام قد أقام نظام هذا الحكم على أرقى ما يطلبه أى شعب يريد الحياة الحرة الكريمة وكانت الشورى هى النظام الأمثل للعلاقة الطيبة بين الحاكم والشعب وبها استطاع المسلمون أن يعرفوا معنى الحياة الطيبة المستقرة وعرف الخلفاء الراشدون مكانة المسئولية وعظمها .

والشورى تفتح الطريق للحرية السياسية المعبر عنها فى العصور الحديثة «بالديمقراطية» عن طريق اشتراك الشعب مع الحكومة فى إدارة شئون الدولة على أى وضع يضمن الحرية للفرد والجماعة للإدلاء بالرأى الصالح للأمة .

والشورى أساس الحكم الصالح الرشيد وتكريم للعقل الإنسانى أن يفكر ويحترم تفكيره وطبيق لمبدأ القيادة الجماعية واحترام الحرية الرأى كما أنها السبيل إلى تبين الحق ومعرفة الآراء السديدة الناضجة التى أمر بها القرآن الكريم فقد جاء فيه سورة حملت اسم «الشورى» وقررت هذا المبدأ عنصراً من عناصر الدولة السعيدة القوية وأساساً من أسس الشخصية الإسلامية المستقلة ومبدأ من المبادىء القويمة قائماًعلى أساس مكين من الإيمان بالله والتوكل عليه ومراقبته بإقامة الصلاة وطهارة الجوارح من الفواحش والآثام والإنفاق فى سبيل الله وأخيراً العزة والانتصار على البغى والعدوان ،قال الله تعالى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشوري 36-39) .

برز هذا الأمر العظيم إلى عالم الواقع وأخذ طريقه إلى ميدان التنفيذ حين أصيب المسلمون فى غزوة «أحد» عندئذ أمر الله رسوله بمشاورة أصحابه تدبيرا لشئونهم وربطاً لقلوبهم وتأليفاً لأرواحهم وحفز الهمم. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: 159)، وبهذا كانت الشورى فى الحكم نظام حياة المسلمين ودستور حكمهم.

كانت نظام حياة المسلمين فى السلم والحرب وحقاً مشروعاً للرجال والنساء على السواء رباهم عليه الإسلام من الأيام الأولى للدعوة.

ونحن الآن نلمح على مد البصر أناسا جالسين هم من خير من حملت الأرض فى تاريخها الطويل. هذا رسول الله ﷺ يجلس وقد جلس عن يمينه أبو بكر وعمر وعن يساره جلس المقداد بن عمرو وأمامه جلس سعد بن معاذ سيد الأنصار وآخرون وآخرون عند «بدر» فى انتظار ما تتمخض عنه الحوادث وتسفر عنه المقادير بعد أن كشرت الحرب عن أنيابها وجاءت قريش على بكرة أبيها يحدوهم الأمل فى القضاء على الدعوة الإسلامية وضرب محمد وصحبه ضربة قاضية وقطع حبل الصمت رسول الله ﷺ حين طلب مشورتهم فيما عساهم أن يفعلوا فتكلم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - فأحسنا وأبديا رأيهما بالموافقة والتأييد فأثنى عليهما الرسول خيراً ثم قام المقداد بن عمرو - رضى الله عنهما - فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة: 24)، ولكن «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» فسكت الناس وعاد الصمت إلى المجلس مرة أخرى ثم عاد رسول الله يقول: «**أشيروا على أيها الناس** - يريد الأنصار أهل المدينة وكان ذلك بعد نظر منه فقد كانوا يؤلفون معظم الحاضرين -» فقال سعد بن معاذ: وكان صاحب رايتهم.. كأنك تريدنا يا رسول الله! قال: **أجل**، قال سعد: يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت فنحن معك والذى بعثك بالحق لو استعرضت

بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله» فسر رسول الله لمقالة سعد وقال: «**سيروا على بركة الله**».

فسار بهم الرسول حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذى نزلته أهو منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أم نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**» فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ثم أشار بمكان آخر قريبا من الماء. فاستشار الرسول أصحابه فى رأى الحباب وعلى ذلك أعلن موافقته معهم وكان عاقبة ذلك نصر مبين للمسلمين.

ولما تحزب الأحزاب وتجمعت قريش مع من أكل الحقد قلوبهم على الاسلام والمسلمين من الأعراب وأرادوا أن يضربوا المسلمين ضربة رجل واحد بعد أن عرفوا أنه لا قبل لهم بحرب الاسلام إذ وقف كل واحد منهم أمامه على حدة ونظر المسلمون فوجدوا المدينة قد أحيط بها فاستشارهم رسول الله فأشاروا عليه بالتحصن بالمدينة وأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق فى مواجهة الأعداء حتى لا يجدوا فرصة ينفذون منها إليهم وكان عملاً مضنياً ليس لهم بمثله عهد ولكن رسول الله وافق على رأى سلمان وحفر معهم الخندق وكتب الله لهم النصر على الأعداء ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ (الأحزاب: 25).

وحين وافق الرسول على رأى أبى بكر فى أسرى بدر وترك رأى عمر مع أنه الصواب وكأن الأمر سار على غير مشورة عاتبه الله عز وجل قائلاً: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (الأنفال: 67).

ولئن فعل رسول الله ذلك فى أيام الحرب وكان عليه جد حريص فإنه فعل ذلك فى أيام السلم، ففى ليلة العقبة الكبرى ـ وكانت فى الأيام الأولى للدعوة ـ ذهب رسول الله ومعه عمه العباس إلى أهل المدينة تحت ستار الليل ودار الكلام على الوجه التالى : -

قال العباس : يا معشر الخزرج ! ! إن محمدا منا حيث قد علمتم حسبا ونسبا وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده . .

قال كعب بن مالك : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت . فتكلم رسول الله فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال : «**أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**» فأخذ البراء ابن معرور بيده وقال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فبايعنا يا رسول الله فنحن ـ والله ـ أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر . . فاعترض من هذا القول ـ والبراء يتكلم ـ أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال ـ يعنى اليهود ـ عهودا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا» .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : «**بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ! ! أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**» فلم يقبلوا منه دعوته دون مناقشة وتمحيص .

ومن أجل ذلك كان لابد من الشورى فى إدارة شئون الجماعة ومن تركها فقد فتح ثغرة استبداد وباباً إلى الطغيان ووأد الحريات .

وقد سار على هذا النهج أصحاب رسول الله من بعده فكان أبو بكر يستشير الصحابة فيما يعرض له من مشكلات وسن هذا المبدأ بعد أن تولى أمر المسلمين فقال فى أول خطبة خطبها : أيها الناس ! ! إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق ـ إن شاء الله ـ له أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم» .

وبذلك كانت الشورى طريقاً ممهداً ووعاء نقياً صالحاً لحرية السياسية التى وجدت الأمة فى ظلها حقها وكرامتها وشجاعتها الأبية حين وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذات يوم وقال : إن رأيتم فى اعوجاجاً فقومونى فقال رجل من آخر الصفوف : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» فيطمئن عمر ويرضى . . وقال له رجل آخر : اتق الله يا عمر . فقال له رجل من الحاضرين : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟ فقال له عمر : دعه يقولها فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها» .

وبهذه الشورى قضى الإسلام على الاستبداد عدو الإنسانية ومفسد الشعوب وخانق الحريات وحقق للفرد كرامته الفكرية وأوجد له شجاعته الأدبية وقرر للجماعة حقها فى تقرير مصيرها فى إدارة شئونها وأبعد عنها الغش فى النصح والخلل فى التدبير والطغيان فى الرأى والجور فى الحكم والنفاق من المحكومين ، فروى مسلم عن الدارى أن رسول الله ﷺ قال : «**الدين النصيحة** » قلنا : لمن يا رسول الله؟ قال : «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» وروى الحاكم وأبو داود عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه**»

ولكن! ! من هم هؤلاء الذين يستشيرهم الحاكم فى إدارة شئون البلاد؟

هل هم هؤلاء الوصوليون الذين يبتغون الزلفى لدى الحاكم؟ولا هَمَّ لهم إلا مصلحتهم الخاصة ومن هنا كثر تواجدهم على الأبواب وتمسحهم بالأعتاب .

هل هم المنافقون الذين يهتفون لكل عهد ويمدحون كل قادم ويشيعون كل ذاهب باللعنات ويزينون للحاكم أعماله ولو كانت سيئة فيشيدون بطغيانه على أنه حزم ويمدحون عسفه على أنه ضبط للأمور ويثنون على جوره وظلمه بأنه مراعاة للمصلحة العامة التى تتطلبها الأمة فى مرحلة من مراحلها؟

هل هم هؤلاء الصحفيون الذين يمدحون اليوم من يذمونه غدا ويصنعون من الحبة قبة ومن الهرة جملاً كبيراً .

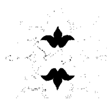
هل هم هؤلاء الصحفيون الذين قرأت لأحدهم كلمة فى جريدة الأخبار تحت

عنوان «مواقف» جعل فيها الخنافس الذين ظهروا في بريطانيا من خير من حملت الأرض وعرفت الدنيا حضارة ومدنية وتقدما وعلما وفنا؟ هل هم واحد من هؤلاء المذكورين ومن على شاكلتهم؟

كلا!! إنهم ليسوا واحداً من هؤلاء وإنما الذين يستشريهم الحاكم أناس طهرت نفوسهم وأخلصت قلوبهم وقدموا مصلحة الأمة على منافعهم الشخصية وتركوا الأنانية والأثرة كي يضعوا تفكيرهم وعقولهم ومواهبهم في خدمة الأمة ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«المستشار مؤتمن»**.

على هذا الأساس المكين ينبغي أن تقوم الشورى ويختار لها الأكفاء الذين يفهمون شئون البلاد في كل ناحية من نواحيها وفي ضوء هذا المعنى ندرك معنى كلمة أولي الأمر في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ (النساء :59) ، فإن أولي الأمر هم المبرزون النابهون في كل شئون من شئون الحياة في السلم والحرب في الزراعة والتجارة في الصناعة والسياسة في العلم والدين والتشريع في المال والإقتصاد وإذا كانت طاعة الله هي العمل بما جاء في كتابه والسير على تعاليمه وإذا كانت طاعة رسول الله هي العمل بأقواله التربوية وأعماله التشريعية التي وردت عنه فإن طاعة أولي الأمر -بعد أن تبين مقامهم وعرف مقدار علمهم- هي الأخذ بما يتفقون عليه ويرونه صالحاً للأمة .

هذه هي الشورى من وجهة نظر الإسلام أتى بها في وقت كانت فيه الدنيا ترزح تحت حكم الأباطرة الطغاة والملوك المتسلطين والأمراء المتحكمين وسرت في المجتمع الإسلامي أشد ما تكون وضوحاً وأضوأ من فلق الصبح وأشرق من الشمس في رائعة النهار وتنفس بها الناس الصعداء وعاشت بها الأمة في أول أمرها سعيدة ترفرف عليها راية الأمن والسلام وعاش أهلها في سكينة وأمان .



الأسباب الرئيسية في الطلاق

الأسرة هي النواة التي يقوم عليها كيان المجتمع، واللبنة الأولى في بناء الأمة، وما صدرت البشرية التي يموج بعضها في بعض، وتملأ فجاج الأرض إلا عن طريق الأسرة المتواضعة التي كونها آدم وحواء منذ عهد الناس بالحياة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً......﴾ (النساء: 1).

فكانت الأسرة ـ ومازالت ـ عماد المجتمع ووحدة بنائه، ومصنعه الذي يزوده بأعضائه، ويصوغهم له في القالب السليم ليجعل منهم أفرادا صالحين تنشأ فيهم آثار الأسرة وأسلوبها في التنشئة وأخلاقها في التربية إذا شبوا باشروا مسئوليتهم في الحياة.

وقد عنى الإسلام بالأسرة منذ ظهوره عناية كبرى، تقديراً لمكانتها، وأحاطها بما يكفل لها أداء رسالتها على أحسن وجه وأتم دور وأكمل صورة كي تبقى الركن الركين في بناء المجتمع المتماسك، والأساس السليم للأمة القوية.

فإذا قويت روابط المحبة والألفة بين الزوج والزوجة زادت أواصر التعاون والتساند في المجتمع، وأصبحت الأمة صفا واحداً كالبنيان المرصوص. ولذلكم حض الإسلام على الزواج لأنه الوسيلة الوحيدة لبناء الأسرة، وإشباع العاطفة، وإمتاع النفس، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21).

وعناية الإسلام بالأسرة فاقت كل عناية، فقد أحكم الله تشريعاتها، وفصل حقوقها، ووضع لها النظام السليم الذي يكفيها شر الخلل، ويباعد بينها وبين الزلل، ولكن الناس انحرفوا عن الحدود التي رسمها الإسلام، فمنهم من يقدم على الزواج وليس عنده من مستلزماته ما يجعله قواما على الأسرة، ومنهم من لا يتم زواجه على أساس من الحكمة والعقل، بل يتم على أساس النزوة والهوى، ومنهم من يفرط في حقوقه أو لا يقوم بواجباته، ومنهم من يسارع إلى الفراق لأتفه الأسباب، وبهذا تعرضت الأسرة في العهد الحاضر لهزات عنيفة زلزلت كيانها،

وقوضت أركانها، وأصبحت محتاجة إلى من يمد لها يد العون والإصلاح كى تبقى متماسكة اللبنات.

فكان من أجل ذلك أن نفر الإسلام من الطلاق لأنه معول هدم وتدمير وتفريق للأسرة، يقع أول ما يقع على رؤوس الأولاد فيشردهم فى ابتداء حياتهم، ولم يُبحْهُ إلا بعد محاولات من أجل جمع شمل الأسرة من جديد، وهذا من أحب الأمور وأقدس الأعمال، فلم يكن إلا إذا تعذرت الحياة الزوجية بعد فشل مهمة الحكمين من أهله ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**﴾ (النساء: 35)، ومع ذلكم فقد حكم الإسلام عليه إذا وقع بأنه من الأمور التى يبغضها الله، روى أبو داود من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**» وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بال قوم يلعبون بحدود الله، يقول قد طلقتك قد راجعتك قد طلقتك**».

ولقد كان من رحمة الله أن جعل الطلاق ثلاث مرات، ليراجع كل من الزوجين موقفه من الآخر من أجل أن تعود العلاقة بينهما، قال تعالى: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ (البقرة: 229).

إن الأسرة فى عهدها الحاضر، تعرضت للتصدع والتشقق لأن كلاً من الزوجين لم يعرف حقوق الآخر وواجباته التى جعلها الدين لكل واحد منهما على الآخر، فكان التفريط فى الحقوق والواجبات الزوجية من الأخطار الجسيمة التى عرضت الأسرة للانهيار، ولو عرف كل منهما ما عليه من حقوق وواجبات لعاشت مستقرة.

أوجب الإسلام على الزوج لزوجته حسن معاشرتها وإكرامها، وأن يقدم إليها ما يمكن تقديمه من صنوف الإكرام حتى يؤلف قلبها، وأن يعاملها بالمعروف يتحمل ما يصدر منها من هفوات، فقد قال تعالى ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ (النساء: 19)، وفى ذلك يقول النبى ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**» رواه ابن حبان عن

عائشة، وروى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة ـ أى يبغض ـ إن سخط منها خلقا رضى منها آخر**» . . وقد أورد القرطبى حكاية فى هذا المعنى فقال وكان الشيخ أبو محمد بن أبى زيد من العلم والدين فى المنزلة والمعرفة، وكانت له زوجة سيئة العشرة، وكانت تقصر فى حقوقه وتؤذيه بلسانها، فيقال له فى شأنها ويعذل بالصبر عليها، فكان يقول: أنا رجل قد أكمل الله على النعمة فى صحة بدنى ومعرفتى وما ملكت يمينى، فلعلها بعثت عقوبة على ذنبى، فأخاف إن فارقتها أن تنزل بى عقوبة تكون أشد منها» قال علماؤنا: فى هذا دليل على كراهة الطلاق مع الإباحة» .

كما أوجب عليها أن يصون كرامتها، ويحفظ شرفها وسمعتها حتى لا تتعرض لمقالة السوء، وهذا من الغيرة التى يحبها الله، روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله قال: «**إن الله يغار وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه**» .

وإذا كان هذا من جانب الزوج، فقد وجب مثله من جانب الزوجة لزوجها، وجب عليها أن تطيعه فى غير معصية، ولا تدخل بيته من يكرهه إلا بإذنه، وأن تحفظه فى نفسها وماله، وتبتعد عن أى فعل يضيق به، وبذلك تدوم الحياة الزوجية وتسعد الأسرة، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ، أى الناس أعظم حقا على المرأة؟ قال: « **زوجها** »! قلت: فأى الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال: « **أمه**» رواه البزار والحاكم. . وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» رواه الترمذى. ورواية الحاكم من حديث معاذ قال: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**» ولهذا قال الله تعالى: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ . .**﴾ (النساء: 34) .

فإذا إن التفريط فى الحقوق الزوجية معولاً يهدم الأسرة، فإن انتشار المفاسد الأخلاقية فى المجتمع بات هو الآخرمن المعاول التى تأتى عليها من القواعد، فهذه مفاسد العرى والجهل بالدين وعدم الحفاظ على احترام الأسرة، والتقليد الأعمى لموضات الأزياء، وانتشار المراقص والمسارح والملاهى الليلية ومسابقات الجمال،

وإنشاء المعاهد لتدريس موضات قص وتصفيف الشعر للنساء، عَمَّ هذا الفساد وطم حتى دخل إلى البيوت واقتحم دور التعليم وصارت الفتاة لا تفرق بين حرم الجامعة وصالات عرض الأزياء.

وهذا معول آخر من معاول تدمير الأسرة، هذا الاختلاط الفاحش بين الجنسين فى كل ناحية من نواحى المجتمع، فى الجامعات والأسواق، فى الشوارع والمتنزهات، وصرنا نسمع هذه الكلمة النابية «صديق العائلة» قال الله تعالى، لأطهر نساء : ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**﴾ (الأحزاب : 32) . . عن أبى سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما من صباح إلا وملكان يناديان : ويل للرجال من النساء ، وويل للنساء من الرجال**» رواه ابن ماجه والحاكم. وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «**لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له**» رواه الطبرانى والبيهقى.

ولقد كان لعمل المرأة خارج البيت فى العهد الحاضر دون ضوابط أثره الخطير فى قلب نظام الأسرة رأساً على عقب، وكان سبباً فى ضياع كثير من الحقوق الزوجية، ولو رجع كل منهما إلى نفسه وتدارسا شئون الحياة ونظما حياتهما على مبدأ القناعة والتعاون لكان لذلك أثر كبير فى انتظام شئون الأسرة بدلاً من هذا السعار المرهق، ولعل فى هذه الآية الكريمة ما يضع الأمر فى نصابه، قال تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . . . . .**﴾ (النساء : 34) .

فإذا أدى كل من الزوجين ما عليه من حقوق، فإنه لاشك سيصبح البيت سعيداً، والأسر مستقرة آمنة، ويجد الأولاد والهدوء والاستقامة، وتشيع فى البيت آداب الدين الحنيف فلا مكان فيه لاختلاط مريب لأن الأب لا يغيب عن الأولاد، ولا موضع فيه لسفور وتبرج لأن الأم ملتزمة بآداب دينها، ولا مكان فيه لفساد لأن الأسرة قد اهتدت بهدى الإسلام.

وخير ما يهدى للأسر فى هذا الموضوع هدى رسول الله ﷺ فى عمله مع أهله وفعله فى بيته، فقد كان حسن المعاشرة حسن الأخلاق، يتحدث إليهن ويوجههن

إلى الخير برفق وصبر ويحسن إليهن ويعدل بينهن فى المعاملة، فحبذا لوأخذنا من القدوة والأسوة فى هذا الشأن العظيم، والأمر الخطير، إننا إن فعلنا ذلك فإن الخير العميم، والسعادة الدائمة، والثبوت والاستقرار سوف تعم بيوتنا وبالتالى سوف ننعم بهدوء البال وهناءة الحال، ونتفرغ لما هو خير وأكبر.

هذه توجيهات من كتاب الله الكريم، وارشادات من هدى النبوة الراشدة، علَّ فيها ما ينير السبل أمام أسرنا حتى يعود إليها الهدوء، ويرسم لها طريقا واضحاً حتى تقوم برسالتها على الوجه الأكمل.

الزوجة الصالحة

الزواج نعمة من نعم الله على عباده الصالحين، ومنحة ربانية للنفس المؤمنة، وطريق مستقيم إلى حياة طيبة مستقرة، وفرصة حسنة لحياة سعيدة مطمئنة وسبب من أسباب الأنس والمودة والرحمة، وسبيل طيب للرزق الواسع العريض، وأساس متين لعيش هنيء، وأصل صالح لأسرة قوية تنمى الحياة وتثريها، وتعمر الأرض وتغنيها، قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(الروم: 21)، وقال عز شأنه: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ (النحل: 73).

وهو هدى النبيين وسنة من سنن المرسلين، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾ (الرعد: 38)، وعن أبى أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع من سنن المرسلين: الحناء، والتعطر، والسواك، والنكاح**» الترمذى.

ثم هو من دواعى القوة البدنية والقوة النفسية التى تجعل الرجل يضرب فى جنبات الأرض كى يكسب قوت زوجته وأولاده، وهذا ما تشير إليه هذه الآية، قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (النور: 32)، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف**» رواه الترمذى. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ (النور: 32). وعن ابن مسعود قال: التمسوا الغنى فى النكاح.

وإذا تقرر الأمر على هذا النحو العظيم الذى يبعث على الثقة وحب الحياة، فقد وجب على الرجل أن يبحث وينقب، ويفتش ويتأنى فى البحث حتى يظفر بالزوجة التى تكون سبباً فى هذه السعادة كلها.

والواقع أن الإسلام مع الرجل من أول لقائه بالحياة ـ من حين ولادته ومن قبلها ـ يرشده ويشرح له ويبين ما يجب من الصفات الحميدة التى يجب أن تكون عليها الزوجة، فأوصى باختيار الزوجة الصالحة وكلفه بالبحث عنها، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**» رواه مسلم والنسائى.

ثم بين المرغبات التى تدعو إلى الزواج من المرأة وتحث على الاقتران بها ـ فكان الدين من أكبرها شأنا ـ كى يكون المرء سعيداً فى حياته، فإن أثر الدين فى النفس أن يجعل الإنسان يراقب ربه ويخشى غضبه، فكان دوره ظاهر فى بناء الحياة الطيبة، وإنشاء المجتمع الصالح، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**» رواه البخارى، ونفر من زواج المشركين والمشركات، وحذر من الكافرين والكافرات، وذلك لما لهم من الأثر السيء على الأولاد فى المستقبل، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (البقرة: 221).

إن الزوجة الصالحة أساس الحياة السعيدة والأسرة المباركة المستقرة، إنها تشيع فى البيت جو الرضا والقناعة، وتملأ المكان بهجة ومسرة، وذلك بما تأخذ نفسها به من آداب كريمة وسمع وطاعة وعفة وأمانة، عن أبى أمامة رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «**ما استفاد المؤمن ـ بعد تقوى الله عز وجل ـ خيراً له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله**» رواه ابن ماجه.

كما كانت ـ الزوجة الصالحة ومازالت ـ من أسباب سعادة زوجها فى دنياه وعونه على أمور دينه وأخراه، عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ قال: «**من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة: من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن**

السوء، والمركب السوء» رواه أحمد بسند صحيح . وقد جاء تفسير هذا الحديث في حديث آخر رواه الحاكم: أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة من السعادة: المرأة الصالحة، تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة تلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، وثلاث من الشقاء: المرأة تراها فتسوءك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفا فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق»** .

وضع الإسلام الأساس السليم للزوجة الصالحة حتى يكون الزوج على بينة من أمرها، لأنها مهوى فؤاده، وسكن نفسه وروحه، وربة بيته وأم وأم أولاده، وموضع نجواه وسره، وأهم ركن في الأسرة بعده، فكانت العناية بها عظيمة والاهتمام بشأنها كبيرا، فوجب أن يكون من المزايا التي ينبغي أن تتوفر فيها، أن تكون أمينة مطيعة، بارة جميلة، ذات حسب ونسب، ومن بيئة طيبة، فإنها ـ والحالة هذه ـ تكون رحيمة بوالدها، قائمة بحق زوجها، ولا يتبادر إلى الذهن أن تتحقق هذه الصفات كلها بعيدة عن تعاليم الدين وهداه، كلا فما الأخلاق الكريمة، والصلاح إلا الاهتداء بآداب الدين، والتمسك بالفضائل، ورعاية حقوق الزوجية، روى الطبري بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«أربع من أصابهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلبا شاكرا، ولساناً ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لا تبغيه حوبا في نفسها وماله»** .

إلى هنا نكون قد سردنا كثيراً من صفات المرأة الصالحة ومازال الحديث عنها موصولاً وحلواً جميلاً، قدمنا هذه الصفات الكريمة، والأخلاق الحسنة من السمع والطاعة والقناعة، وحسن الخدمة والمظهر وهدوء البيت، وحسن التدبير وكمال الرعاية للحقوق الزوجية، فهل بقي بعد ذلك من شيء؟ والجواب!! نعم . فقد فعلت الزوجة المثالية في صدر الإسلام أعظم من هذا، تلطفت إلى زوجها وتحببت إليه وخففت من مصابه، وسألت عن الواجب عليها نحوه، عن أنس رضي الله عنه قال: كان ابن لأبي طلحة رضي الله عنه يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي فلما رجع أبو طلحة قال: ماذا فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان، فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما

أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : «**أعرستم الليلة**»؟ قال : نعم . قال : «**اللهم بارك لهما**» فولدت غلاما ، فقال لى أبو طلحة : احمله حتى تأتى به النبى ﷺ ، وبعث معه بتمرات ، فقال : «أمعه شىء؟ قال : نعم . تمرات ، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها فى فىّ الصبى ، ثم حنكه وسماه عبد الله» متفق عليه ، وفى رواية للبخارى : قال ابن عينيه : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن ، يعنى من أولاد عبد الله المولود» .

هذه منارات مضيئة نضعها على الطريق أمام نساء العهد الحاضر وفتياته حتى ينظرن صوراً مشرقة ، وتوجيهات حسنة لما ينبغى أن تكون عليه المرأة الناجحة فى حياتها الأسرية ، ويبصرن عن كثب دستوراً حكيماً لأسرة آمنة مستقرة ، فى بيت آمن هادىء ، مع أولاد يتربون على العواطف النبيلة منذ نعومة أظفارهم ، وهم بهذا سيأخذون طريق النجاح نحو المستقبل المرموق ، بعيداً عن القلق والأزمات النفسية ، هذه توجيهات وإرشادات ، أنزلها الله ، ووضحها رسول الله .

إن هذه الارشادات السابقة كفيلة بإنشاء أسرة سعيدة ، فقد ظهر أن صلاح المرأة له منزلة سامية فى إصلاح هذا الوضع الاجتماعى الخطير ، ولكن كثيراً من النساء قد غرهنَّ زخرف الحياة الحاضرة من سفور وتبرج وخروج للعمل بدون ضوابط ، وتلهت المرأة بأمور جانبية بعيدة عن حياة الأسرة ومتطلبات النشء فتعرضت الأسرة بذلك لهزات عنيفة زلزت أركانها .

انشغلت الزوجة بأمور الأزياء «الموضة» وتطلعت إلى المزيد من زخرف الحياة ، وقلدت مثيلاتها فى بلاد الغرب ، ونسيت شرقيتها الأصيلة ، ورسالتها الأساسية ، وقطعت فى ذلك شوطاً طويلاً حتى بعدت كثيراً عن هذه التعاليم الإسلامية ، وصارت كأنها غريبة عليها لأنها لم تعد تعرف عنها شيئاً ، مع أنها مقررة فى هدى دينها ، وتعاليم نبيها ، ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين أسباب هذا الانحراف الذى وصلت إليه المرأة زوجة وأماً وأختاً لأنها أسباب تشعبت وتشابكت حتى أوصلتها إلى هذا المصير ، وإننا على كل حال لن نيأس فقد ظهرت الصحوة الاسلامية وكان لها دور رائد مع المرأة حتى تعود إلى أصالتها الإسلامية . .

مساوىء الغش وأضراره

أرسل الله رسوله محمد ﷺ بالهدى والرحمة، والعدل والأمانة، حتى لا يبغى أحد على أحد، ولا يظلم أحد آخر. فلا غش ولا غبن، ولا ظلم ولا إرهاق، ولا خداع ولا استغلال، وبذلك أكد حرمة الأموال فلا يحل مال امرىء إلا عن طيب نفس منه، فما أخذ من غير رضاه فهو غبن وغلول، وضرر وإضرار، وأكل لأموال الناس بالباطل، وإيذاء لهم فى شىء حرمه الله وتوعد بالعذاب الأليم على مرتكبه، قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾(الأحزاب: 58)، هكذا! فقد احتملوا إثماً كبيراً، وذنبا عظيما، لا يقل فى بشاعته وغلظه عن البهتان والكذب على الله عز شأنه، وروى الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه..**»، وعنه ـ من رواية مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض..**» قال الإمام النووى: النَّجَشُ أن يزيد فى ثمن سلعة ينادى عليها فى السوق ونحوه، ولا رغبة له فى شرائها بل يقصد أن يغر غيره وهذا حرام»، وعن ابن عمر رضى الله عنهما، «أن النبى ﷺ نهى عن النَّجَش» متفق عليه

إن الإسلام قد حرم الغش بأنواعه المختلفة، وطرقه المتعددة: حرمه فى البيع والشراء فيجب أن يقوم ذلك على السماحة وحسن الأخذ والإعطاء، روى البخارى وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال«**رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى**».

وحرمه أيضا فى تطفيف الكيل وبخس الميزان فأعد الله العذاب الأليم لمن يفعل ذلك وحسبه من الشر والإثم أن الله أهلك بسببه أمة سابقة وأنزل فى شأنه سورة عرفت باسم هؤلاء، قال تعالى: ﴿**أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ (الشعراء: 181-183)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث

الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (المطففين : 1-6) ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك» رواه ابن ماجه وابن حبان والبيهقي .

وإذا كان الإسلام قد حرم الغش فى هذه الأنواع من المعاملات فإنه حرم كل ما يؤدى إليه من ألاعيب، فحرم الخديعة والمداهنة، والغل والحقد، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: ذكر رجل لرسول الله ﷺ **أنه يخدع فى البيوع**، فقال رسول الله ﷺ : «**من بايعت فقل لا خلابة**» متفق عليه، والخلابة: الخديعة وكذلك حرم التمويه وكل ما يؤدى إلى التغرير بالناس ويفسد عليهم بيعهم وشراءهم، روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا**»، وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال: « **ما هذا يا صاحب الطعام؟** » قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا**» رواه مسلم، وابن ماجه .

بهذا الهدى النبوى نستطيع أن نتخلص من الغش بأنواعه ومن كل ما يؤدى إليه من ألاعيب وحيل، ومكر وخديعة وغل وحقد، ومداهنة وإفساد وتمويه وإدهان ـ بمعنى تزيين الردىء ليغر الناس ـ وغير ذلك مما يحدث فى ميدان المعاملات بين الناس، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**من غشنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار**» رواه الطبرانى وابن حبان.

على أنه قد بقى من هذا الإثم شيئان نحب أن ننبه عليهما لما فيهما من الذنب العظيم فإن كثير من الناس يأخذ الحلف سبيلاً إلى الكسب والترويج وهذا من الذنب بمكان وآخرين يغشون اللبن بوضع الماء فيه وآخرين يحجزونه فى الضرع حتى تبدو البهيمة به على غاية كبيرة من اللبن الوفير وهو المعروف بـ«التصرية»، روى أبو داود من حديث. . فقال رسول الله ﷺ : «**ليس منا من غش**» وروى أن أبا هريرة رضي الله عنه ، مر بناحية الحرة فإذا إنسان يحمل لبنا يبيعه فنظر إليه أبو هريرة، **فإذا هو قد خلطه**

بالماء فقال له أبو هريرة : كيف بك إذا قيل لك يوم القيامة خلص الماء من اللبن» رواه البيهقى والأصبهانى .

وهذه الآفة المنكورة المرذولة آفة الحلف من أجل الإقبال على السلعة علامة خيانة ودلالة خداع، فلو كانت السلعة نظيفة ما احتاج إلى حلف ولأقبل الناس عليها راضين . وهذا أمر منهى عنه أشد النهى، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البيعان وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحا، ويمحقا بركة بيعهما، اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب**» رواه البخارى ومسلم وغيرهما، وروى مسلم عن قتادة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «**إياكم وكثرة الحلف فى البيع فإنه ينفّق ثم يمحق**»، وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يخرج إلينا وكنا تُجارا، وكان يقول : «**يا معشر التجار إياكم والكذب**» رواه الطبرانى فى الكبير .

ولقد كان النبى ﷺ يتعهد السوق بهذه التوجيهات الحكيمة، والإرشاد النبوى الكريم من أجل أن يسير سيراً حسنا يرضى الله ورسوله ويطمئن الناس على أشيائهم، خرج إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون ، فقال : «يا معشر التجار، **فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال** : إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق» رواه الترمذى وغيره، ورواه أحمد والحاكم عن عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن التجار هم الفجار**» قالوا : يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال : «**بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون**» .

وماذا بعد!!؟ أليس لهذه الآفة من علاج؟ أليس لهذا الداء من دواء؟ أليس لهذا الانحراف من تأديب وتقويم؟ . . بلى . . فإن التواصى بالحق، والتعاون على البر والتقوى، والتناصح ورقابة الله فى السر والعلن خير ما يعين الناس على أمرهم، ويدفع عنهم غائلة الطمع والجشع والاستغلال ونجد ذلك فى توجيهات الرسول الأمين وسيرة الصالحين من المسلمين . روى ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من باع بيعاً لم يعينه لم يزل فى مقت الله، ولم تزل الملائكة تلعنه**»، وإذا تأكدت النصيحة للناس أجمعين فى رواية مسلم عن تميم الدارى

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدين النصحية**» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**» فإنها تكون فى ميدان البيع والشراء والأموال أشد تأكيدا، وأقوى أثراً حيث يتوقف حركة الحياة واستقرارها على التناصح الأمين بين الناس وإلا نزعت الأمانة، وضاعت الطمأنينة، ووقع الناس فى حرج شديد وكرب موجع، ولذا نهض المصلحون لهذا الأمر الكبير، وسهروا عليه سهر الحارس الأمين، فنصحوا وبينوا وصدقوا وطاردوا الغش وأهله، عن أبى سباعٍ رضي الله عنه قال: اشتريت ناقة من دار واثلة بن الأسقع، فلما خرجت بها أدركنى يَجرُّ إزاره فقال: اشتريت؟ قلت: نعم. قال: أبين لك ما فيها. قلت: وما فيها؟ قال: إنها لسمينة ظاهرة الصحة، قال أردت بها سفراً أم أردت بها لحما؟ قلت: أردت بها الحج، قال: فارتجعها، فقال صاحبها، ما أردت إلى هذا، أصلحك الله تفسدُ علىَّ؟ قال: «إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد يبيع شيئا إلا بين ما فيه، ولا يحل لمن علم ذلك إلا بينه**» رواه البيهقى، والحاكم وقال صحيح الإسناد. وإنك لواجد مثل ذلك فى تاريخ أهل المروءات من الناس الذين صدقوا مع الناس وراقبوا ربهم، وقنعوا بالكسب الحلال الذى يدوم أثره فى الدنيا فى نواحى الخير والبر والإصلاح وفى الآخرة بالثواب العظيم والنعيم المقيم جزاء على ما قدمت أيديهم من حسنات بقيت بعده حياتهم، إن الأمة الإسلامية تربطها أخوة جامعة تجعلهم متوادين متناصحين ينصح بعضهم بعضا، ويبذلون الخير للناس جميعا، وينحُّون وسائل الشر والفساد عن مجتمعهم، روى أبو الشيخ بن حبان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحَةٌ متعاونون، وإن بعدت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غَشَشَة متخاذلون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم**».

هذه أوامر الله فى هذا الأمر الخطير، وهذه إرشادات رسول الله ﷺ وتوجيهاته فى مساوىء الغش وأضراره، فقد وضحها قولاً وعملاً، وقام الصحابة والتابعون بالأمر من بعده يبينون خطورة هذا الغش فى كل ناحية من نواحى المعاملات حتى يطمئن الناس على حركة البيع والشراء، والواقع - أيها الناس - أن المجتمع تصيبه آفات وأمراض تفتك به إذا تركت دون علاج فهو كالجسم سواء بسواء وكان الغش

من أفتك الأمراض الاجتماعية التى تصيب المجتمعات فى مقاتلها فتأتى على وحدتها من القواعد إذا لم يتداركها أولو الرأى والنباهة فيها فيأخذوا على أيدى هؤلاء الغششة المجرمين، ويضربوا على أيديهم بقوة لا هوادة فيها، وإلا فسوف يمتد شرهم، ويستفحل خطرهم، ولن يقفوا عند حد ، هذا غش فى الأطعمة يتسبب عنه حالات تسمم خطيرة، وهذا غش فى الأشربة ينتج عنه غثيان وقىء وآلام فى البطون ، وهذا غش فى الملبوسات لا تصلح معه للاستعمال، وهكذا شر مستطير ، وخطر خطير لا يوقف عند حد بل يمتد إلى كل ناحية من نواحى المجتمع، وكل مرفق من مرافقه . .

فهــرس الموضوعات

مطابــع الصقــر
ت : ٤١٢٥٥٥ / ٠١٥ - ٤١٢٧٧٧ / ٠١٥